فتح المجيد

بشرح كتاب التوحيد

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

راجع حواشيه وصححها وعلق عليها

الشيخ / عبد العزيز بن باز

مع تعليقات الشيخ / محمد بن صالح العثيمين من كتاب

القول المفيد شرح كتاب التوحيد

ويليه كتاب

القول السديد في مقاصد التوحيد

للعلامة الفاضل الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله

المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ

ضبط نصوصه وخرج أحاديثه

حلمي بن إسماعيل الرشيدي

الجزء الثاني



باب ما جاء في السحر (*)

قوله: (باب ما جاء في السحر)

أي: والكهانة.

السحر في اللغة عبارة عما خفي ولطُف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»(١، ٢)، وسمى السحر سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل.

قال أبو محمد المقدسي في «الكافي»: السحر عزائم ورُقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، قال تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ (البقرة: ١٠٢). وقال سبحانه: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ (الفلق: ٤). يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن ولولا أن السحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

السحر لغةً: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحر لآخر الليل، لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السَّحور، لما يؤكل في آخر الليل، لأنَّه يكون خفياً، فكل شيء خفي سببه يسمى سحراً. وأما في الشرع، فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عُقَد ورُقى، أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾.

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل،

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٦٧).

(١) رواه مالك، وأحمد، وأبو داود، والترمذي عن ابن عمر. (الفقي).

(٢) جاء هذا الحديث على لسان جماعة من الصحابة منهم:

ابن عمر: أخرجه البخاري (٥١٤٦) (٥٧٦٧)، وأبو داود (٥٠٠٧)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأبو يعلى (٥٦٣٩) (٥٦٤٠)، وابن حبان (٥٧٩٥)، وأحمد (٤٦٥١) (٥٢٣٢) (٥٢٩١) (٥٦٨٧)، وأبو نعيم (٣/ ٢٢٤)، والبغوي (٣٣٩٣).

وابن عباس: أخرجه أحمد (٢٤٢٤) (٢٧٦١) (٢٨١٥) (٢٨٦١) (٣٠٢٦) (٣٠٦٨)، وابن ماجه (٣٧٥٦)، وابن حبان (٥٧٧٨)، والطبراني (١١٧٥٩) (١١٧٦٠) (١١٧٦٢)، والحاكم (٣/ ٦١٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٧)، وفي «الدلائل» (٥/ ٣١٧).

وعمار: أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٣)، ومسلم (٨٦٩) وغيرهم.

ومن حديث معن، وعائشة، وكعب بن مالك، بريدة.

وابن مسعود: وأخرجه أحمد (٣٨٤٤) (٤٣٤٢)، والترمذي (٢٨٤٤)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وأبو يعلى (٥٣١٦)، وابن حبان (٦٨٤٧)، والطبراني (١٠٤١٣)، وغيرهم عن ابن مسعود.

وقول الله تعالى: ﴿ولقدْ علمُوا لمنِ اشْتراهُ ما لهُ فِي الآخرةِ منْ خلاقٍ﴾ (البقرة: ١٠٢).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وأنه قال لها ذات يوم: أتاني ملكان، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم في مشط ومشاطة، وفي جَف طلعة ذَكر في بئر ذَرْوان»[1] رواه البخاري.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾».

وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف. فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك. فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئاً فشيئاً حتى يهلك. وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه. وفي عقله، فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله.

فالسحر قسمان:

أ- شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين، يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور.

ب- عدوان، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها. وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟ اختلف في هذا أهل العلم: فمنهم من قال: إنه يكفر. ومنهم من قال: إنه لا يكفر. ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين، فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالباً، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ (البقرة: ١٠٢)، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها، فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً.

وأما قتل الساحر: فإن كان سحره كفراً، قُتل قتل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر، قُتل قتل الصائل، أي: قتل لدفع أذاه وفساده في الأرض، وعلى هذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الحاكم، وظاهر النصوص التي ذكرها

---

(١) أخرجه الحميدي (٢٥٩)، والبخاري (٥٧٦٥) (٥٧٦٦) (٦٠٦٣) (٦٣٩١)، ومسلم (٢١٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦١٥)، والطحاوي «مشكل» (٥٩٣٤)، وابن حبان (٦٥٨٣) (٦٥٨٤)، وأبو يعلى (٤٨٨٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥٩٢٢)، والطبري (١٦٩٣)، والبيهقي (٥/ ١٣٥)، وفي «الدلائل» (٦/ ٢٤٧).

قال ابن عباس: من نصيب[١]، قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم: أن الساحر لا خلاق له في الآخرة[٢]، وقال الحسن: ليس له دين.[٣]

فدلت الآية على تحريم السحر، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩). وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه، وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله»[٤] وهذا مرسل.

واختلفوا: هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر.

وقال الشافعي: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر. اهـ.

المؤلف أنه يقتل بكل حال، فالمهم أن السحر يؤثر بلاشك، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى، لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله -عز وجل- وإنما يُخيل إلى المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذلك، كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

إذا قال قائل: ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟

نقول: مناسبة الباب لكتاب التوحيد. لأن من أقسام السحر ما لا يَتَأتى غالباً إلا بالشرك، فالشياطين لا تخدم الإنسان غالباً إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩٩) تفسير، وابن جرير (١٧٠٨) (١٧١٥)، وابن أبي حاتم (١٠٢٧) (١٠٢٩) بسند صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٠٠)، وابن جرير (١٧١٦)، وابن أبي حاتم (١٠٢٨).

(٤) **مرسل إسناده ضعيف**: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٧٥٣) من طريق: إبراهيم بن أبي يحيى عن صفوان ابن سليم فذكره.

وهو معضل، غير أن إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي ضعيف، له ترجمة مطولة في «الميزان» (١/ ٥٧).

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥١).

قال عمر: «**الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان**».

وقال جابر: ....

وقد سماه الله كفراً بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: ١٠٢). وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ١٠٢). قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾: وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر.

قال: (وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾).

تقدم الكلام عليهما فى الباب قبله، وفيه أن السحر من الجبت، قاله المصنف رحمه الله.

قوله: (**قال عمر ﷺ: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان**). هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم وغيره.[1]

قوله: (**وقال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان، فى كل حى واحد**). هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال: سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التى كانوا يتحاكمون إليها، فقال: إن فى جهينة واحداً، وفى أسلم واحداً، وفى هلال واحداً، وفى كل حى واحداً، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين».[2,3]

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن جرير (٥٨٣٥) (٥٨٣٦)، وابن أبى حاتم من طريق: حسان بن أبى فائدة العبسي عن عمر فذكره.
وحسان بن أبى فائدة مجهول.
لكن يشهد له قول مجاهد، رواه ابن جرير (٥٨٣٧) بسند صحيح عنه.
وقول قتادة - أخرجه ابن جرير (٥٨٤٠)، والسدى (٥٨٤١)، والشعبى (٥٨٣٨)، والضحاك (٥٨٣٩)، وكلها تؤيد قول عمر، والله أعلم.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن جرير (٥٨٤٦)، وابن أبى حاتم من طريق حجاج، عن ابن جريج، أخبرنى أبو الزبير، عن جابر أنه سمعه - فذكره.
وحجاج هو ابن محمد ثقة، وأبو الزبير صرح بالسماع من جابر، فالإسناد صحيح.

(٣) الذى يستخلص من كلام السلف ﷺ: أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصده عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله. سواء فى ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس، والأشجار والأحجار وغيرها. ويدخل فى ذلك بلاشك: الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به فى الدماء والفروج والأموال، وليبطل بها شرائع الله، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها. والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومروجوها طواغيت. وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشرى ليصرف عن الحق الذى جاء به رسول الله ﷺ -إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه- فهو طاغوت. (الفقي).

«الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، فى كل حى واحد».

وعن أبى هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «إجتنبوا السبع الموبقات.

قوله: (**قال جابر**) هو جابر بن عبد الله بن حرام الأنصارى.[1]

قوله: «**الطواغيت: كهان**» أراد أن الكهان من الطواغيت، فهو من أفراد المعنى.

قوله: «**كان ينزل عليهم الشيطان**» أراد الجنس لا الشيطان الذى هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع، فيصدقون مرة ويكذبون مائة.

قوله: «**فى كل حى واحد**» الحى واحد الأحياء، وهم القبائل، أى فى كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبى ﷺ ، فأبطل الله ذلك بالإسلام، وحرست السماء بكثرة الشهب.

قوله: (وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشِّركُ بالله، وَ السِّحرُ، وقَتلُ النَّفس التى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ، وَأَكلُ الرِّبَا، وأَكلُ مالِ اليَتِيم، وَ التَّوَلِّى يومَ الزَّحف، وقَذفُ المُحصنَات الغَافلاَت المُؤمنَات**»[2]).

كذا أورده المصنف غير معزو، وقد رواه البخارى ومسلم.

قوله: «**اجتنبوا**» أى: ابعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا واتركوا، لأن النهى عن القربان أبلغ، كقوله: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ (الأنعام: ١٥١).

قوله: «**الموبقات**» بموحدة وقاف: أى المهلكات، وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفى الآخرة من العذاب.

وفى حديث ابن عمر عند البخارى فى «**الأدب المفرد**»، والطبرى فى «**التفسير**»، وعبد الرزاق مرفوعاً وموقوفاً ، قال: «**الكبائر تسع** - وذكر السبعة المذكورة - وزاد: **والإلحاد فى الحرم، وعقوق الوالدين**»[3]. ولابن أبى حاتم عن على قال: «الكبائر - فذكر السبع إلا مال اليتيم - وزاد: العقوق، والتعرب بعد الهجرة، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة».[4]

---

(١) توفى جابر سنة ٧٤هـ وقيل سنة ٧٧هـ وكان عمره أربعاً وتسعين سنة. (الفقي).

(٢) أخرجه البخارى (٢٧٦٦) (٥٧٦٤) (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، وأبو عوانة (١/ ٥٥)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائى (٦/ ٢٥٧)، والطحاوى «مشكل» (١/ ٣٨٢)، وابن حبان (٥٥٦١)، والبيهقى (٨/ ٢٤٩)، والبغوى (٤٥).

(٣) **جاء مرفوعاً وموقوفاً** : المرفوع، أخرجه البيهقى (٣/ ٤٠٩)، والطبرى فى «تفسيره» (٥/ ٣٩)، وإسناده ضعيف. **والموقوف**: أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٨)، والطبرى فى «تفسيره» (٥/ ٣٩) بسند صحيح، وصححه الشيخ الألبانى فى «صحيح الأدب المفرد» (٦)، و«الصحيحة» (٢٨٩٨).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم (٥٢١٢) بسند ضعيف.

فقالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ،......................

قال الحافظ: ويحتاج عند هذا إلى الجواب عن الحكمة فى الاقتصار على سبع.

ويجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف، أو بأنه أعلم أولاً بالمذكورات، ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل.

وقد أخرج الطبرانى وإسماعيل القاضى عن ابن عباس أنه قيل له: «الكبائر سبع» قال: «هن أكثر من سبع وسبعين»، وفى رواية: «هى إلى السبعين أقرب»[1]، وفى رواية: «إلى السبعمائة».[2،3]

قوله: «قال: الشرك بالله» هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه ويخافه كما يخاف الله، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود: **«سألت النبى ﷺ أى الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك ـ الحديث»**.[4]

وأخرج الترمذى بسنده عن صفوان بن عَسَّال قال: «قال يهودى لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبى، فقال له صاحبه: لا تقل نبى، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين. فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال النبى ﷺ: **«لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببرئ إلى ذى سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولّوا للفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تَعْدُوا فى السبت، فقبَّلا يديه ورجليه، وقالا: نشهد أنك نبى ـ الحديث»**[5]، وقال: حسن صحيح.

قوله: «السحر» تقدم معناه، وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة.

قوله: «والسحر». أى: من الموبقات، وظاهر كلام النبى ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير. لأنه إن كان بواسطة الشياطين، فالذى لا يأتى إلا بالإشراك بهم، فهو داخل فى الشرك بالله.

---

(١) **صحيح الإسناد**: أخرجه عبد الرزاق (١٩٧٠٢)، وابن جرير (٩٢٠٩)، وابن أبى حاتم (٥٢١٦)، والبيهقى فى «الشعب» (٢٩٠)، ورجاله ثقات وإسناده متصل.

(٢) أخرجه الطبرى (٩٢٠٨)، وابن أبى حاتم (٥٢١٧)، وإسناده حسن.

(٣) قد ألف الحافظ عبد الرحمن بن رجب- رحمه الله- كتاباً فى عد الكبائر. طبع: ولشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- كتاب «مسائل الجاهلية»، هو كذلك فى عد الكبائر. (الفقي).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠)، والطيالسى (١١٦٤)، والترمذى (٢٧٣٣)، =

وَقَتلُ النَّفسِ التى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ...

وقوله: «وقتل النفس التى حرم الله» أى: حرم قتلها، وهى نفس المسلم المعصوم.

قوله: «إلا بالحق» أى: بأن تفعل ما يوجب قتلها، كالشرك، والنفس بالنفس، والزانى بعد الإحصان، وكذا قتل المعاهد، كما فى الحديث: **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»**[1].

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً، وهل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾ (النساء: ٩٣). وقال ابن عباس: **«نزلت هذه الآية وهى آخر ما نزل، وما نسخها شىء»**، وفى رواية: **«لقد نزلت فى آخر ما نزل، وما نسخها شىء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحى»**[2] وروى فى ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء، كما عند

وإن كان دون ذلك، فهو أيضاً جرم عظيم، لأن السحر من أعظم ما يكون فى الجناية على بنى آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويُقلقُه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك، لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمى، فإنه إذا صُرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلى الشرك بالله -عز وجل-.

قوله: «وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق». القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذى فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمى وليس نفس البعير والحمار وما أشبهها.

= والنسائى (٧/ ١١١)، وفى «الكبرى» (٣٥٤١) (٨٦٥٦)، وابن ماجه (٣٧٠٥)، والطحاوى «مشكل» (٦٤) (٦٥)، وفى «المعانى» (٣/ ٢١٥)، والطبرانى (٧٣٩٦)، والطبرى (١٥/ ١٧٣)، والحاكم (١/ ٩)، والبيهقى (٨/ ١٦٦)، وأبو نعيم (٥/ ٩٧)، والبغوى فى «تفسيره» (٤/ ١٨٧)، من طرق عن عبد الله بن سَلمة المرادى عن صفوان به.

وإسناده ضعيف، لضعف عبد الله بن سلمة، وضعفه الشيخ فى «ضعيف ابن ماجه» (٨٠٨).

(١) جاء من حديث ابن عمرو، وأبى بكرة، وأبى هريرة وغيرهم.

حديث ابن عمرو: أخرجه البخارى (٣١٦٦) (٦٩١٤)، والنسائى (٨/ ٢٥)، و«الكبرى» (٨٧٤٢)، وابن ماجه (٢٦٨٦)، وأحمد (٦٧٤٥)، والحاكم (٢/ ١٢٦) وغيرهم.

حديث أبى بكرة: أخرجه الطيالسى (٨٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٦-٣٩)، وأبو داود (٢٧٦٠)، والدارمى (٢٥٠٤)، والنسائى (٨/ ٢٤)، و«الكبرى» (٦٩٤٩)، وابن الجارود (٨٣٥) (١٠٧٠)، وابن حبان (٤٨٨٢)، والبيهقى (٩/ ٢٣١)، وهو صحيح.

حديث أبى هريرة: أخرجه ابن ماجه (٢٦٨٧)، والحاكم (٢/ ١٢٧)، وقال: على شرط مسلم. ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه البخارى (٤٥٩٠)، ومسلم (٣٠٢٣).

الإمام أحمد والنسائى وابن المنذر عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً**»[1].

وقوله: «**التى حرم الله**». مفعول «حرّم» محذوف تقديره: حرم قتلها، فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: «**إلا بالحق**». أى: بالعدل، لأن هذا حكم، والحق إذا ذُكر بإزاء الأحكام فالمراد به العدل، وإن ذكر بإزاء الأخبار، فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ (النحل: ٩٠). والنفس المحرمة أربعة أنفس، هى: نفس المؤمن، والذمى، والمُعاهد، والمُستأمِن، بكسر الميم: طالب الأمان. فالمؤمن لإيمانه، والذمى لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه. والفرق بين الثلاثة -الذمى، والمعاهد، والمستأمن-: أن الذمى هو الذى بيننا وبينه ذمة، أى: عهد على أن يقيم فى بلادنا معصوماً مع بذل الجزية. وأما المعاهد، فيقيم فى بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن، فهو الذى ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمّناه فى وقت محدد، كرجل حربى دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ (التوبة: ٦)، وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنها ليست على حد سواء فى التحريم، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمى، ثم المعاهد، ثم المستأمن. وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟ أشك فى ذلك، لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المُعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأياً كان، فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٧/ ٩٩)، والنسائى (٧/ ٨١)، والطبرانى (١٩) (٨٥٦) (٨٥٧) (٨٥٨)، والحاكم (٤/ ٣٥١) وإسناده حسن.

لكن يشهد له حديث عبادة بن الصامت، وحديث أبى الدرداء عند أبى داود (٤٢٧٠)، وابن حبان (٥٩٨٠)، والحاكم (٤/ ٣٥١).

وصححه الشيخ فى «صحيح الجامع» (٤٥٢٤).

وأكلُ الربَا،..

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحاً بدّل الله سيئاته حسنات، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان: ٦٨-٧١).

قوله: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً» قال أبو هريرة وغيره: «هذا جزاؤه إن جازاه».

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق الجمهور، فروى عن عبد بن حميد، والنحاس عن سعيد بن عبادة: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: «لمن قتل مؤمناً توبة»، وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما. وروى مرفوعاً **«أن جزاؤه جهنم إن جازاه»**[1].

قوله: «وأكل الربا» أي: تناوله بأي وجه كان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ـ الآيات (البقرة: ٢٧٥). قال ابن دقيق العيد: وهو مجرب لسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

وقوله: **«إلا بالحق»**. أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: **«وأكل الربا»**. الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج: ٥)، يعني: زادت. وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض. والربا: ربا فضل، أي: زيادة، وربا نسيئة، أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بيّنها الرسول ﷺ في قوله: **«الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»** فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنساً بمثله جرى فيه ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحداً على آخر، فهو ربا فضل، أو سويته لكن أخّرت القبض، فهو ربا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٨١٩)، والطبراني (٥٨١٩) والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٤٦) من طريق محمد بن جامع، عن العلاء بن ميمون عن الحجاج بن الأسود عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره.

وإسناده ضعيف: محمد بن جامع ضعيف.

والعلاء بن ميمون: لا يتابع عليه، له ترجمة في «الميزان» (٣/ ١٠٥)، وأورد الذهبي هذا الحديث في «ميزانه» له. وضعف الحديث ابن كثير (١/ ٥٣٨)، والسيوطي في «الدر» (٢/ ٣٥٢).

وأكلُ مالِ اليتيم، وَ التَّولِّى يومَ الزَّحفِ، وقَذفُ المُحصنَاتِ الغَافلاَتِ المُؤمنَاتِ».

قوله: «وأكل مال اليتيم» يعني: التعدى فيه، وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠).

قوله: «والتولى يوم الزحف» أى: الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فرّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال، كما قيد به فى الآية.(١)

قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها الحافظات فروجهن منه، والمراد الحرائر العفيفات، والمراد رميهن بزنا أو لواط،

نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهباً بذهب متفاضلاً والقبض متأخر، فقد اجتمع فى هذا العقد ربا الفضل وربا النسيئة، وعلى هذا، فإذا بعت جنساً بجنسه، فلابد من أمرين: التساوى، والتقابض فى مجلس العقد. وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة، أى: اتفق المقصود فى العِوَضَين، فإنه يجرى ربا النسيئة دون ربا الفضل، فذهبٌ بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير ربا لتأخر القبض. قال ﷺ: **«فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**.

وقولنا: اتفقا فى الغرض والمقصود احترازاً مما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبرُّقوتٌ. وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوى لاختلاف القصد، لأن هذا يقصد به النقد والثَّمنية، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل: الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض، فما هو الجواب؟ نقول: حقيقة إن هذا مقتضى الحديث أنك إذا بعت ذهباً ببر وجب التقابض، لقوله ﷺ: **«فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**.

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمناً، قال ابن عباس: قدم النبى ﷺ المدينة وهم يُسلفون فى الثمار السنة والسنتين، فقال: **«من أسلف فى شىء، فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»**.

---

(١) فى سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾. (الفقى).

والغافلات: أى عن الفواحش وما رمين به، فهو كناية عن البريئات، لأن الغافل بريء عما بهت به، والمؤمنات: أى بالله تعالى، احترازاً من قذف الكافرات.

وعلى هذا، فحديث: **«فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**، لا عموم لمفهومه، فلا يشترط القبض فى كل صورة من صور المخالفة، وإنما يشترط القبض فيما إذا اتفقا فى الغرض، كذهب بفضة، أو بر بشعير وأما ذهب أو فضة بشعير، ونحوه، فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة، فالظاهرية قالوا: لا يجرى الربا إلا فى هذه الأصناف الستة، لأنهم لا يرون القياس، فيقتصر على ما جاء به النص، فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض، لأنهما لا يدخلان فى المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة، فإنهم عدّوا الحكم إلى غيرها، إلا أن بعضاً منهم لم يُعد الحكم إلى غيرها، وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله، فإنه قال: لا يجرى الربا إلا فى هذه الأصناف الستة، لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا فى العلة التى من أجلها كان الربا، فلما اضطربوا فى العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه من الحصر فى المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجرى فى غير الأصناف الستة، وأن العلة هى الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هى الجنس والثَّمَنِيَّة، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلى إذا بيع بعضه ببعض، فيجرى فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة، فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلى خارج عن الثمنية خروجاً طارئاً، لأن التحلى طارئ، والأصل فى الذهب والفضة الثمنية، لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح، فقال شيخ الإسلام: إنه يصلح به القوت، أى: فهو تابع له، فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت براً ولم يكن فيه ملح، لم يبق إلا أياماً يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد، فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وعن جندب مرفوعاً: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بالسَّيفِ» رواه الترمذى، وقال: الصحيح أنه موقوف.

قوله: (وعن جندب مرفوعاً: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بالسَّيفِ**»[1] رواه الترمذى وقال: الصحيح أنه موقوف).

قوله: «عن جندب» ظاهر صنيع الطبرانى فى «الكبير»: أنه جندب بن عبد الله البجلى، لا جندب الخير الأزدى قاتل الساحر، فإنه رواه فى ترجمة جندب البجلى من طريق خالد العبد، عن الحسن، عن جندب، عن النبى ﷺ، وخالد العبد ضعيف، قال الحافظ: والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن، عن جُندب الخير: أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكره، وجندب الخير: هو جندب بن كعب، وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد، كما قال ابن حبان. أبو عبد الله الأزدى الغامدى صحابى، روى ابن السكن من حديث بريدة: أن النبى ﷺ قال: «**يضرب ضربة واحدة فيكون أمة وحده**»[2].

قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف» وروى بالهاء وبالتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة، فقالوا: يقتل الساحر، وروى ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس ابن سعد، وعمر بن عبد العزيز، ولم ير الشافعى القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل فى سحره ما يبلغ الكفر، وبه قال ابن المنذر، وهو رواية عن أحمد، والأول أولى للحديث ولأثر عمر، و عمل به الناس فى خلافته من غير نكير.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (١٤٦٠)، والدارقطنى (٣/ ١١٤)، والطبرانى فى «الكبير» (١٦٦٥) (١٦٦٦)، وابن قانع فى «معجم الصحابة» (١/ ١٤٤)، والحاكم (٤/ ٣٦٠)، والبيهقى (٨/ ١٣٦)، وضعفه الشيخ الألبانى -رحمه الله-، فى «ضعيف الجامع» (٢٦٩٨)، و«الضعيفة» (١٤٤٦).

(٢) **إسناده ضعيف**: ذكره الحافظ فى «الإصابة» (٢/ ١٠٧) من طريق: يحيى بن كثير، عن الجريرى، عن عبد الله ابن بريدة، عن أبيه به- وقال: رواه ابن السكن من هذا الطريق.
وإسناده ضعيف، يحيى بن كثير ضعيف.

وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال: «**كتب عمر بن الخطاب** ﷺ: أن **اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر**». وصح عن حفصة ﷺ «**أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت**» وكذلك صح عن جندب.

قوله: (وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال: «**كتب عمر بن الخطاب** ﷺ: **أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر**»[١]).

هذا الأثر رواه البخارى كما قال المصنف -رحمه الله-، لكن لم يذكر قتل السواحر.

قوله: «**عن بجالة**» بفتح الموحدة بعدها جيم: ابن عبدة -بفتحتين- التميمى العنبرى، بصرى ثقة.

قوله: «**كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة**» وظاهره أنه يقتل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة، وعن أحمد يستتاب، فإن تاب قبلت توبته، وبه قال الشافعى، لأنه ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قوله: (وصح عن حفصة ﷺ «**أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت**»[٢]). هذا الأثر رواه مالك فى «الموطأ».

وحفصة هى أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبى ﷺ بعد خنيس ابن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: «**وكذلك صح عن جندب**» أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر، كما رواه البخارى فى «تاريخه» عن أبى عثمان النهدى قال: «**كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا، فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدى فقتله**»[٣]. ورواه البيهقى فى الدلائل مطولاً، وفيه: «**فأمر به الوليد فسجن**» فذكر القصة بتمامها، ولها طرق كثيرة.

---

(١) أخرجه البخارى (٣١٥٦) بدون قتل السواحر. وأخرجه بلفظ الشارح، سعيد بن منصور (٢١٨٠)، وعبد الرزاق (١٨٧٤٥) (١٨٧٤٦) (١٨٧٤٨)، والبيهقى (٨/ ٢٤٧) وهو صحيح.

(٢) رواه مالك (١/ ٥٤٣) بلاغًا، ووصله عبد الرزاق (١٨٧٤٧)، والبيهقى (٨/ ١٣٦) من طريق نافع عن ابن عمر فذكره. وسنده صحيح.

(٣) أخرجه البخارى فى «تاريخه» (٢/ ٢٢٢)، والبيهقى (٨/ ١٣٦)، وجاء من طرق متعددة، كما قال ابن كثير فى «تفسيره» (١/ ١٤٤)، وهى قصة ثابتة، وقد أخرجه أيضًا الطبرانى (١٧٢٥)، والدارقطنى (٣/ ١١٤)، وذكره الذهبى فى «السير» (٣/ ١٧٦)، وفى «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣)، وقال: إسناده صحيح. وقد ذكر لها طرقاً فى «السير» (٣/ ١٧٦-١٧٧).

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهى.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا فى المسلمين على عهد عمر، **فكيف بعده؟**

قوله: «قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ». أحمد: هو الإمام أحمد ابن محمد بن حنبل.[1]

قوله: «عن ثلاثة» أى: صح قتل الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ، يعنى: عمر، وحفصة، وجندباً، والله أعلم.

(١) الإمام الجليل، ناصر السنة وقامع البدعة، الصابر المحتسب فى الله ولله على ما لقى فى نصر دين الله. العَلَم الحافظ الحجة، ولد سنة ١٦٤هـ، ومات سنة ٢٤١هـ. قال الشافعى -رحمه الله-: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد من أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه-. (الفقي).

باب بيان شيء من أنواع السحر (*)

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن

قوله: (باب بيان شيء من أنواع السحر)

قلت: ذكر الشارح رحمه الله تعالى هاهنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء، وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال، وظنوا أنها تدل على ولاية منْ جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فراجعه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى: (قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان ابن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «**إنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجبت**»[1]. قال عوف: العيافة: زَجرُ الطير، والطَّرْق: الخطُّ يُخطُّ بالأرض، والجبت: قالَ الحَسن: إنه الشيطان. إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» المسند منه).

قوله: «**قال أحمد**» هو الإمام أحمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر: هو المشهور بغُنْدَر الهذلي البصري، ثقة مشهور، مات سنة ست ومائتين.

وعوف: هو ابن أبي جميلة -بفتح الجيم- العبدي، البصري، المعروف بعوف الأعرابي، ثقة، مات سنة ست -أو سبع- وأربعين، وله ست وثمانون سنة.

وحيان بن العلاء: هو بالتحتية، ويقال: حيان بن مخارق أبو العلاء البصري، مقبول، وقَطَن -بفتحتين-: أبو سهل البصري، صدوق.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى في آخر هذا الجزء ص (٣٦٧).

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٢٠٦٠٤) من طريق محمد، و (٢٠٦٠٣) من طريق روح، و(١٥٩١٥) من طريق يحيى بن سعد، الثلاثة عن عوف. بهذا الإسناد، وإسناده ضعيف، حيان هذا غير منسوب، وإن نسبه المؤلف، فمرة يقال حيان بن العلاء، وقيل: أبو العلاء، وقيل: ابن عمير، وقيل: ابن مخارق، وهو مجهول الحال، ومدار الحديث عليه، وقد رواه جمع من طريقه، فرواه عبد الرزاق (١٩٥٠٢)، وابن سعد (٧/ ٣٥)، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢-٤٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٨)، وفي «التفسير» (١٢٨)، وأبو داود (٣٩٠٧)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٨٦)، والطحاوي «معاني» (٤/ ٣١٢)، وابن حبان (٦١٣١)، والطبراني (١٨/ ٩٤١) (٩٤٢) (٩٤٣) (٩٤٤) (٩٤٥)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/ ٤٢٥)، والبيهقي (٨/ ٣٩)، والبغوي (٣٢٥٦).

ابن قبيصة، عن أبيه أنه سمع النبى ﷺ قال: «**إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ**».

قوله: «عن أبيه» هو قبيصة -بفتح أوله- ابن مخارق -بضم الميم- أبو عبد الله الهلالى صحابى نزل البصرة.

قوله: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت» قال عوف: العيافة: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادات العرب، وكثير فى أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفاً: إذا زجر وحدّس وظن.

قوله: «والطرق: الخط يخط بالأرض» كذا فسره عوف، وهو كذلك.

وقال أبو السعادات: هو الضرب بالحصى الذى يفعله النساء، وأما الطيرة: فيأتى الكلام عليها فى بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: «من الجبت» أى: السحر، قال القاضى: والجبت فى الأصل: الفشل الذى لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر والسحر.

قوله: **«الطرق»**. فسَّره عوف: بأنه الخط يُخَط فى الأرض، وكأنه من الطريق، من طرق الأرض يطرقها إذا سار عليها، وتخطيطها مثل المشى عليها يكون له أثر فى الأرض كأثر السير عليها. ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به على الرمل على سبيل السحر والكهانة، ويفعله النساء غالباً، ولا أدرى كيف يتوصلون إلى مقصودهم وما يزعمونه من علم الغيب، وأنه سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم؟! وهذا نوع من السحر. أما خط الأرض ليكون سترة فى الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك، فليس داخلاً فى الحديث. فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أن نبياً من الأنبياء يخط، وقال: من وافق خطه، فذاك. قلنا: يجاب عنه بجوابين: **الأول:** أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يتحقق الوصول إليه، لأنه قال: فمن وافق خطه فذاك، وما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟ **الثانى:** أنه إذا كان الخط بالوحى من الله تعالى كما فى حال هذا النبى، فلا بأس به، لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحى بها بخطوط يُعلِّمهُ إياها. أما هذه الخطوط السحرية، فهى من الوحى الشيطانى، فإن قيل: طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعاً خاصة فى موضوع الشرك، فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟ **فالجواب:** كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط، فلابد أن يجيب عنه الرسول ﷺ.

قوله: **«من الجبت»**. سبق أن الجبت السحر، وعلى هذا، فتكون «مِنْ» للتبعيض على الصحيح، وليست للبيان؛ أى: هذان النوعان من الجبت.

قال عوف: العيافة: زَجرُ الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض.[١]

والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان. إسناده جيد.

قوله: «قال الحسن: رنة[٢] الشيطان» قلت: ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح أن في تفسير

قوله: «الطيرة». أي: من الجبت، على وزن فعَلَة، وهى اسم مصدر تطيَّر، والمصدر منه تَطَير، وهى التشاؤم بمرئى أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كان أو مكاناً، وهذا أشمل، فيشمل ما لا يرى ولا يسمع، كالتطير بالزمان. وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيفت إلى الطير، لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به، وإلا، فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم. وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبى ﷺ. والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم، ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شىء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر -والعياذ بالله- وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما فى النكاح، وقد نقضت عائشة رضي الله عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها فى شوال، وبنى بها فى شوال، فكانت تقول: **«أيكن كان أحظى عنده منى؟»** والجواب: لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغى للإنسان أن لا يطرأ له على بال، لأنه ينُكِّد عليه عيشه، فالواجب الاقتداء بالنبى ﷺ حيث كان يعجبه الفأل، فينبغى للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ، فكل شىء ترى فيه المصلحة، فلا تتقاعس عنه فى أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

قوله: «من الجبت». قال الحسن: «الجبت، رنَّة الشيطان»، قال صاحب «تيسير العزيز الحميد»: لم أجد فيه كلاماً. والظاهر أن رنة الشيطان، أى: وحى الشيطان، فهذه من وحى الشيطان وإملائه، ولاشك أن الذى يتلقى أمره من وحى الشيطان أنه أتى نوعاً من الكفر، وقول الحسن جاء فى «تفسير ابن كثير» باللفظ الذى ذكره المؤلف، وجاء فى «المسند» (٥/ ٦٠)، بلفظ: إنه الشيطان.

---

(١) هو ما يسمونه خط الرمل وعلمه، وهو ذائع بين أهل العصر، ولبعضهم فيه تأليف، وقد يتعيش به كثير من المتكهنين يغرون به البله والجهلة، زاعمين أنهم يطلعون على المغيبات وهم كاذبون، فإن هذا العلم بل الجهل لا يقصد به إلا خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل، وقد بحثت فى قواعده فوجدته كما ذكرت لك رجماً بالغيب وهو من الجبت كما فى الحديث، فيجب على المؤمنين بالله الكفر به. ومثله ما يسمونه علم قراءة الكف، وقراءة الفنجان، ومناجاة حب البن ونحوه، كل ذلك دجل وسحر واستمتاع كل من شياطين الجن والإنس ببعضهم. نسأل الله العافية للمسلمين من هذه الأمراض الفتاكة. (الفقى).

(٢) فى رواية أحمد (أنه) وليس (رنة) وهى الرواية التى اعتمد ذكرها الشارح -رحمه الله-.

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه.

بَقِيّ بن مَخْلَد «أن إبليس رنّ أربع رنات: رنة حين لُعن، ورنة حين أُهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب»[1]. قال سعيد بن جبير: «لما لعن الله تعالى إبليس، وتغيرت صورته عن صور الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة» رواه ابن أبي حاتم[2]. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة، رنّ إبليس رنَّة اجتمعت إليه جنوده»[3] رواه الحافظ الضياء في «المختارة». الرنين: الصوت، وقد رن يرن رنيناً، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى.

قوله: «ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه «المسند» منه» ولم يذكر التفسير الذي فسره به عوف، وقد وراه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن.

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له، فماذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك، فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة. وكذلك الطرق من السحر، لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه. والطِّيرة كذلك، لأنها مثل العيافة تماماً تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه.

قوله: «إسناده جيد...». قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع، إلا أن يكون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقاً للأصول، فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول، فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة، فهذا مشكل لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد، فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح، فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجودة، إذ جيّد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي منه شيء، لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن، وأيهما أهم: السند أم المتن؟ **الجواب**: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغني عنه بما تشهد به الأصول، أما السند، فلابد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند، لقال كل من شاء ما شاء.

---

(١) ذكره ابن مفلح المقدسي في «مصائب الإنسان» (ص ٨٢)، نقلاً عن بقي بن مخلد في «تفسيره».
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (٣٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١١٣٣).
(٣) **رجاله ثقات**: أخرجه الطبراني (١٢٣١٨)، والضياء في «المختارة» (١٠١).
وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٣): رجاله موثقون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن اقْتَبَسَ شُعبةً مِنَ النّجُومِ فقَد اقتَبس شُعبَةً مِنَ السِّحرِ،...

قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن اقْتَبَسَ شُعبَةً مِنَ النّجُومِ فقَد اقتَبسَ شُعبَةً مِنَ السِّحرِ، زَادَ مَا زَادَ**»[1] رواه أبو داود، بإسناد صحيح) وكذا صححه النووي والذهبي، ورواه أحمد وابن ماجه.

قوله: «**من اقتبس**» قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته إذا علمته. اهـ.[2]

قوله: «**شعبة**» أي: طائفة من علم النجوم، والشعبة الطائفة، ومنه الحديث: «**الحياء شعبة من الإيمان**»[3] أي: جزء منه.

قوله: «**فقد اقتبس شعبة من السحر**» المحرم تعلمه.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر**»، وقوله في حديث زيد بن خالد: «**من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**» ولقول النبي ﷺ في الشمس والقمر: «**إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**» فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥)، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية،

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٠٠٠) (٢٨٤٠)، وعبد بن حميد (٧١٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٦٠٢)، وأبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، والطبراني (١١٢٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥١٩٧).
وصححه الشيخ في «الصحيحة» (٧٩٣)، و«صحيح الجامع» (٦٠٧٤).

(٢) أصله مأخوذ من القبس، وهو القليل من النار ليستدفئ به. قال موسى لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾. (الفقي).

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، والنسائي (٨/ ١١٠)، وابن ماجه (٥٧)، وابن حبان (١٦٦)، وأبو داود (٤٦٧٦)، وابن منده في «الإيمان» (١٤٤) (١٤٥) (١٤٦) (١٤٧) (١٧١) (١٧٢) (١٧٣)، وأحمد (٩٣٦١)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٢) (٩/ ٢٨)، والبغوي (١٧) (١٨)، وغيرهم عن أبي هريرة مرفوعًا وأوله: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» الحديث.

زَادَ مَا زَادَ» رواه أبو داود، وإسناده صحيح. وللنسائي من حديث أبي هريرة:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩).

قوله: «زاد ما زاد» أي: كلما زاد من تعلم علم النجوم، زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس[١] من شُعَبه، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل.[٢]

قوله: (وللنسائي من حديث أبي هريرة: «**مَن عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَن سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَن تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِّلَ إِلَيْهِ**»[٣]) هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي، وقد رواه النسائي مرفوعاً، وحسنه ابن مفلح.

فقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦)، فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن، كالقبلة، والشمال، والجنوب.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد». المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف، لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له، ولا يقلب الأشياء، لكنه يُموِّه، فهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله: «زاد ما زاد». أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر. ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء، فإنه يزداد بزيادته.

---

(١) الوعيد لمن يتعلم منه ما يؤدي إلى الكفر؛ كادعاء علم الغيب كما في كتيب ينسب إلى أبي معشر، وهو شائع بين السحرة الذين يتسمون بأسماء إسلامية يغرون به النساء وضعفة العقول. وقد تمدن الشياطين وإخوانهم من سحرة هذا الزمان في البلاد المتمدنة، فاخترعوا أسماء للسحر جديدة وصوراً كذلك، مثل اسم التنويم المغناطيسي ومناجاة الأرواح واستحضارها بأنواع من الحيل والتعازيم المتمدنة أيضاً. (الفقي).

(٢) علم النجوم علمان: علم يعرف به سيرها ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها، وهذا علم الفلك لا بأس بتعلمه والعمل به. وعلم يعرف بالعلم الروحاني، يزعمون أنه معرفة روحانية النجوم والكواكب وتأثيرها في الأرض ومَنْ عليها بالأمراض والحروب والضيق والسعة والموت والحياة، والسعادة والشقاوة بين الزوجين إذا عقد قرانهما عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا، ولهم في ذلك ما يسمونه بالطالع، ويعملون جدولاً بالحوادث التي ستحدث في العام كله من حوادث عامة وخاصة. وهذا هو الدجل والكذب. وهو نوع من السحر واستخدام الشياطين والقول على الله بلا علم. (الفقي).

(٣) **إسناده ضعيف وفيه انقطاع**: أخرجه النسائي (٧/ ١٠٣)، وفي «الكبرى» (٣٥٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٩٢)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣٤٢) من طريق: عباد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة به. وعباد ابن ميسرة ضعيف. والحسن لم يسمع من أبي هريرة.
وأخرجه عبد الرزاق (١٩٧٧٢) من طريق أبان عن الحسن يرفع الحديث. وهو مرسل ضعيف [illegible].

«مَن عَقَدَ عُقدَةً ثُمَّ نَفَثَ فيهَا فَقَد سَحَرَ، ومَن سَحَرَ فَقَد أَشرَكَ، وَمَن تَعَلَّقَ شَيئاً وُكِّلَ إلَيه».

قوله: «وللنسائى» هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها، روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق، وكان إليه المنتهى فى العلم بعلل الحديث، مات سنة ثلاث وثلاثمائة، وله ثمانون سنة -رحمه الله تعالى-.

قوله: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر» اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة، حتى ينعقد ما يريدون من السحر، قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق: ٤). يعنى السواحر اللاتى يفعلن ذلك، والنفث هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل، والنفث فعل الساحر، فإذا تكيَّفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ فى تلك العقدة نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكونى القدرى لا الشرعى، قاله ابن القيم- رحمه الله تعالى-.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك» نص فى أن الساحر مشرك، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

قوله: «ومن تعلَّق شيئاً وكل إليه» أى: من تعلق قلبه شيئاً، بحيث يعتمد عليه ويرجوه

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف: أن من أنواع السحر: تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، لكن من حيث المعنى صحيح تشهد له النصوص الأخرى.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك». «من» هذه شرطية، وفعل الشرط: «سحر»، وجوابه: «فقد أشرك». وقوله: «فقد أشرك». هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سَحَرَ بالطرق الشيطانية. أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها، فقد سبق أنه لا يكون مشركاً، لكن الذى يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد، فهذا لاشك أنه مشرك.

وقوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه». «تعلق شيئاً»، أى: استمسك به، واعتمد عليه. «وكل إليه»، أى: جعل هذا الشىء الذى تعلق به عماداً له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه. ومناسبة هذه الجملة للتى قبلها: أن النافخ فى العُقَد يريد أن يتوصل بهذا الشىء إلى حاجته ومآربه،

وكله الله إلى ذلك الشيء[١]، فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شئ ومليكه، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه، فنعم المولى ونعم النصير، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر:٣٦). ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك، ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عياناً، وهذا من جوامع الكلم. والله أعلم.

قال: (وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلاَ هَل أُنَبِّئُكُم مَا العَضَـةُ؟ هى النَّميمَةُ القَالَةُ بَينَ النَّاسِ**»[٢] رواه مسلم).

فيُوكل إلى هذا الشيء المُحَرَّم. ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سُحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراء والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق:٣)، وإذا كان الله حسبك، فلابد أن تصل إلى ما تريد. لكن من تعلق شيئاً من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجباً بما يقول ويفعل، فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغى أن تكون دائماً متعلقاً بالله فى كل أفعالك وأحوالك حتى فى أهون الأمور. ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسبة للناس، فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم، واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة لله، فلا تستغن عنه، بل كن دائماً معتمداً على ربك حتى تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها، فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية، حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضاً من تعلق شيئاً من القبور، وجعلها ملجأه ومُغيثه عند طلب الأمور، فإنه يوكل إليه، والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذى حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة فى ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأحقاف:٥)، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

---

(١) ومن قصر تعلق قلبه على الله وحده كفاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ، وهذا التعلق هو روح الإيمان وخلاصة التوحيد، فمن تعلق قلبه بغير الله يرجوه فى دفع ضر أو جلب نفع فقد أشرك بالله أعظم الشرك. (الفقي).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٦)، والدارمى (٢/ ٣٠٠)، والطحاوى «مشكل» (٣/ ١٣٨)، والطبرانى (٨٥١٨)، وأبو يعلى (٥٣٦٣)، والبيهقى (١٠/ ٢٤٦)، وابن أبى الدنيا فى «الغيبة» (١١٩)، وفى «الصمت» (٢٥٦).

«ألاَ هَل أُنبِّئُكُم مَا العَضَةُ؟...

قوله: «ألا هل أنبئكم» أخبركم، و«العضة» بفتح المهلة وسكون المعجمة، قال أبو السعادات: هكذا يروى فى كتب الحديث، والذى فى كتب الغريب: «ألا أنبئكم ما العضَة» بكسر العين وفتح الضاد، قال الزمخشرى: أصلها «العضهة» فعلة من العضه وهَو البهت، فحذفت لامه، كما حذفت من السنَة والشَّفة، وتجمع على «عضين» ثم فسره بقوله «هى النميمة القالة بين الناس»، فأطلق عليها «العضة» لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً، ذكره القرطبى.

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبى كثير قال: «يفسد النمام والكذاب فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى سنة». وقال أبو الخطاب فى «عيون المسائل»: ومن السحر السعى بالنميمة والإفساد بين الناس، قال فى الفروع: ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر، وينتج ما يعمله السحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكن يقال: الساحر إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص، وهذا ليس بساحر، وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصاً

مناسبة الحديث: أن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

قوله: «ألا». أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته. قوله **«هل أنبئكم ما العضه»**. الاستفهام للتشويق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف: ١٠). لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التنبيه، لأن المُوَجَّه إليه الخطاب ينبغى أن ينتبه ليعلم، وهى تصلح للجميع. ومعنى **«أنبئكم»**: أخبركم، وهى مرادفة للخبر فى اصطلاح المحدثين، وقال بعض العلماء من ناحية اللغة لا الاصطلاح: إن الإنباء لغة يكون فى الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون فى الهامة وغير الهامة. قوله: **«العضه»** على وزن الحبل والصمت والوعد، بمعنى القطع، وأما رواية العضَة على وزن عدة، فإنها بمعنى التفريق، وأياً كان، فإنها تتضمن قطعاً وتفريقاً. قوله: **«هى النَميمة»**. فعيلة بمعنى مفعولة، وهى من نمّ الحديث إلى غيره، أى: نقله، والنميمة فسرها بقوله: **«القالة بين الناس»**، أى: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتى لفلان ويقول: فلان يسبك، فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقاً أو كاذباً فإن كان كاذباً، فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقاً، فهو نميمة. والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة،

هى النَّميمَةُ القَالَةُ بَينَ النّاسِ» رواه مسلم.

ولهما عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: ....

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة، وهو يدل على تحريم النميمة، وهو مجمع عليه، قال ابن حزم -رحمه الله-: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة فى غير النصيحة الواجبة، وفيه دليل على أنها من الكبائر.

قوله: «القالة بين الناس» قال أبو السعادات: أى كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس، ومنه الحديث: «**فشت القالة بين الناس**»[1].

قال: (ولهما عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ منَ البَيَان لَسحراً**»[2]) البيان: البلاغة والفصاحة، قال صعصعة بن صوحان: «صدق نبى الله، فإن الرجل يكون عليه

وتفرق بين الناس، فتجد هذين الرجلين صديقين، فيأتى هذا النمام، فيقول لأحدهما: صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلى عداوة، فيحصل التفرق، وهذا يشبه السحر بالتفريق، لأن السحر فيه تفريق، قال تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ (البقرة: ١٠٢). والنميمة من كبائر الذنوب، وهى سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**» أى: نمام، وفى حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه ﷺ: «**مر بقبرين يعذبان، أحدهما كان يمشى بالنميمة**».

والنميمة كما هى من كبائر الذنوب، فهى فى الحقيقة خُلُق ذميم، ولا ينبغى للإنسان أن يطيع النمام مهما كانت حاله، قال تعالى: ﴿**وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**﴾ (القلم: ١٠-١١)، واعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك، فاحذره. وهى أيضاً سبب من أسباب فساد المجتمع، لأن هذا النمام إذا أراد أن يعتدى على كل صديقين متحابين، ويفرق بينهما بنميمته فسد المجتمع، لأن المجتمع مكون من أفراد، فإذا تفرقت صار كما قال الله -عز وجل-: ﴿**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ (الأنفال: ٤٦)، وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد، فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعاً، فهو أفراد متناثرة، والأفراد المتناثرة ليس لها قوة، ولهذا قال الشاعر:

لا تخاصم بواحد أهل بيت ... فضعيفان يغلبان قوياً

قوله: (البيان): هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ (الرحمن: ٣-٤).

---

(١) أخرجه البخارى (٥٠٢٥) (٦٠٢٥) من حديث جابر وابن عباس.

(٢) سبق تخريجه.

الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق»، وقال ابن عبد البر: تأولته طائفة على الذم، لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح، لأن الله تعالى مدح البيان، قال وقد قال عمر ابن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله، قال: «هذا والله السحر الحلال». انتهى. والأول أصح، والمراد به البيان الذى فيه تمويه على السامع وتلبيس، كما قال بعضهم:

فى زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

والبيان نوعان:

الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس فكل إنسان إذا جاع قال: إنى جعت، وإذا عطش قال: إنى عطشت، وهكذا.

الثانى: بيان بمعنى الفصاحة التامة التى تَسبى العقول وتغير الأفكار، وهى التى قال فيها الرسول ﷺ: **«إن من البيان لسحراً»**. وعلى هذا التقسيم تكون **«من»** للتبعيض، أى: بعض البيان -وهو البيان الكامل الذى هو الفصاحة- سحر. أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط، صارت **«من»** لبيان الجنس. ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل، لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السامع حقاً، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يُحذر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السحر الذى يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف، فالبيان فى الحقيقة بمعنى الفصاحة، ولاشك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحُور: حديثها السحر الحلال.

وقوله: **«إن من البيان لسحراً»**، هل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟ الجواب: الأخير هو المراد، فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل، فهو مذموم، لأنه استعمال لنعمة الله فى معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل، فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل فى طاعة الله وفى الدعوة إلى الله، فهو خير من العى، لكن إذا ابتلى الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله، فهذا لا خير فيه، والعى خير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على الإنسان، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٤).

وجه مناسبة الحديث للباب: المؤلف كان حكيماً فى تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شىء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشىء، لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره.

«إنَّ منَ البيَانِ لَسِحراً».

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق والطيرة.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

مأخوذ من قول الشاعر:

تقول: هذا مُجاج النحل، تمدحه	**وإن تشأ قلت: ذا قيء الزنابير**
مدحاً وذماً، وما جاوزت وصفهما	**والحق قد يعتريه سوء تعبير**

قوله: «إن من البيان لسحراً» هذا من التشبيه البليغ، لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق فى قالب الباطل، والباطل فى قالب الحق، فيستميل به قلوب الجهال، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى.

وأما البيان الذى يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه، فهذا هو الممدوح، وهكذا حال الرسل وأتباعهم، ولهذا علت مراتبهم فى الفضائل، وعظمت حسناتهم.

وبالجملة: فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، وتغطية الحق وتحسين الباطل، فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم، وعلى هذا تدل الأحاديث، كحديث الباب، وحديث: **«إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها»**[1] رواه أحمد وأبو داود.

(١) **إسناده حسن:** أخرجه أحمد (٦٥٤٣)، وأبو داود (٥٠٠٥)، والترمذى (٢٨٥٣)، والبيهقى فى «الشعب» (٤٩٧١) (٤٩٧٢)، من طرق: عن نافع بن عمر، عن بشر بن عاصم بن سفيان، عن أبيه، عن ابن عمرو به. وإسناده حسن.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم(*)

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: ....

قوله: (باب ما جاء في الكهان ونحوهم)

الكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيراً، وأما بعد المبعث فإنهم قليل، لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب، وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة[1]، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن ولياً لله، وهو من أولياء الشيطان كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٢٨).

قوله: (روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مَن أتى عَرَّافاً فَسَأَلَه عَن شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَم تُقبَل لَهُ صَلاَة أَربَعِين يوماً**»[2]).

قوله: «عن بعض أزواج النبي ﷺ» هي حفصة، ذكره أبو مسعود الثقفي، لأنه ذكر هذا الحديث في «الأطراف» في مسندها.

قوله: (الكُهَّان): جمع كاهن، والكهنة أيضاً جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء، اعتقده الناس عالماً بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم، فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يُسَمَّون الكهنة، إذ هم

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٦٧).

(١) والواقع أن ذلك من تآلف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الإنسان الخبيث فيتناجيان، ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يحب من الأخبار التي يتلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الإنسان الآخر. وهكذا فإن لكل إنسان قريناً من الشيطان، كما جاء ذلك في القرآن والسنة. فيخبر شيطان الإنس بما أوحى إليه شيطان الجن من أخبار السائل وأحواله في منزله وخصوصية نفسه مما ألقاه إليه الشيطان القرين، فيظن الجهلة والمغفلون أن ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات، وأنه بصلاحه قد كُشف الحجاب عنه. وهذا من أضل الضلال ومن أعظم الخذلان، وإن اعتقده وخُدع به كثير ممن ينتسب إلى ظاهر العلم والصلاح. (الفقي).

(٢) أخرجه أحمد (٦٨/٤)، ومسلم (٢٢٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤٠٦/١٠)، وفي «تاريخ أصبهان» (٢٣٦/٢)، والبيهقي (١٣٨/٨)، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

«مَن أتى عرَّافاً فسَأله عن شيء فصدَّقَهُ لم تُقبل لهُ صَلاة أربعين يوماً».

قوله: «من أتى عرافاً» سيأتي بيان العراف إن شاء الله تعالى، وظاهر هذا الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله، سواء صدقه أو شك فى خبره، فإن فى بعض روايات الصحيح: **«من أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**.

قوله: «لم تقبل له صلاة» إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسئول؟ قال النووى وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه، ولابد من هذا التأويل فى هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. اهـ ملخصاً.

وفى هذا الحديث: النهى عن إتيان الكاهن ونحوه، قال القرطبى: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير، وعلى من يجىء إليهم، ولا يغتر بصدقهم فى بعض الأمور، ولا بكثرة من يجئ إليهم ممن ينتسب إلى العلم، فإنهم غير راسخين فى العلم بل من الجهال بما فى إتيانهم من المحذور.

يخبرون عن الأمور فى المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة فى شىء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب، فإن الأمور التى تدرك بالحساب ليست من الكهانة فى شىء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر، فهذا ليس من الكهانة، لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب فى ٢٠ من برج الميزان مثلاً فى الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج فى أول العام أو العام الذى بعده مذنب (هالى)، وهو نجم له ذنب طويل، فهذا ليس من الكهانة فى شىء، لأنه من الأمور التى تدرك بالحساب، فكل شىء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة. وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس فى خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهى تَكَيُّف الجو، لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحاً لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك فى العلم البدائى إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول: يوشك أن ينزل المطر. فالمهم أن ما استند إلى شىء محسوس فليس من علم الغيب. وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**مَن أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَر بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّد** ﷺ» رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة: «**مَن أَتَى عَرَّافاً أَو كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّد** ﷺ».

قال: (وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**مَن أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّد** ﷺ»[1] رواه أبو داود).

وفي رواية أبي داود: «أو أتى امرأة ـ قال مسدد: امرأته حائضاً -أو أتى امرأة- قال: مسدد: امرأته في دبرها ـ فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ»، فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة.

قال: (وللأربعة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة: «**مَن أَتَى عَرَّافاً أَو كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّد** ﷺ»[2]). هكذا بيّض المصنف لاسم الراوي، وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً.

قوله: «من أتى كاهناً» قال بعضهم: لا تعارض بين هذا وبين حديث: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»، هذا على قول من يقول: هو كفر دون كفر، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين، وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان، وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» قال القرطبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة. اهـ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٩٢٩٠) (١٠١٦٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٢-٢٥٣)، والدارمي (١١٣٦)، والبخاري في «تاريخه» (٣/ ١٦-١٧)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، والنسائي «كبرى» (٩٠١٧)، وابن الجارود (١٠٧)، والطحاوي «معاني» (٣/ ٤٥)، وفي «المشكل» (٦١٣٠)، والعقيلي (١/ ٣١٨)، وصححه الشيخ في «صحيح الجامع» (٥٩٤٢)، وفي «الإرواء» (٢٠٠٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٩٥٣٦)، من طريق: عوف، حدثني خلاس، عن أبي هريرة، والحسن عن النبي ﷺ - فذكره. وإسناده فيه انقطاع.

خلاس وهو ابن عمرو لم يسمع من أبي هريرة.

وأخرجه الحاكم (١/ ٨) من طريق: عوف، عن خلاس ومحمد بن سيرين، عن أبي هريرة، وقال: صحيح على شرطهما جميعًا من حديث ابن سيرين ولم يخرجاه. وراجع «الإرواء» (٧/ ٦٩).

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً.

وعن عمران بن حصين مرفوعاً: ....

وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر، فلا ينقل عن الملة، أم يتوقف فيه، فلا يقال: يخرج عن الملة ولا لايخرج؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى.

قال: (**ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً**[1]).

«أبو يعلى» اسمه: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره، روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق، وكان من الأئمة الحفاظ، مات سنة سبع وثلاثمائة، وهذا الأثر رواه البزار أيضاً، ولفظه: «**من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»، وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر، لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً.[2]

قوله: (وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «**لَيسَ مِنَّا مَن تَطَيَّرَ أو تُطُيِّرَ لَهُ، أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ لَهُ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ لَهُ، وَمَن أَتى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[3].

---

(١) **إسناده جيد**: رواه أبو يعلى (٥٤٠٨) من طريق: إبراهيم بن طهمان، عن أبي إسحاق، عن هبيرة بن يريم، عن ابن مسعود به موقوفاً. وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١١٧): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة وهو ثقة»، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٤٨) (٢٠٣٤٩) من طريق: معمر، عن قتادة، عن ابن مسعود. وأخرجه الطيالسي (٣٨٢)، من طريق: شعبة، عن أبي إسحاق. ورواه البزار في «البحر» (١٨٧٣) (١٩٣١)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٠٥)، وقال في «المجمع» (٥/ ١١٨): «رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» ورجال الكبير والبزار ثقات». وقال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢١٧): إسناده جيد.

(٢) وذلك لأن في الكتاب المنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، وقال في سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، فمن صدق العراف والكاهن فقد كذَّب بهذه الآيات، ومن كذَّبها كفر. (الفقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه البزار «البحر الزخار» (٣٥٧٨)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٦٢/ ٣٥٥)، من طريق: إسحاق بن الربيع العطار، عن الحسن، عن عمران به.
وإسحاق بن الربيع صدوق تكلم فيه للقدر. والحسن مدلس، لم يسمع من عمران. ويشهد له حديث ابن عباس الآتي: أخرجه أبو يعلى كما في «المطالب» (٢٥١٨)، و«الإتحاف» (٣٩٥٩)، والبزار (١١٦٩) زوائد، والطبراني «أوسط» (٤٢٦٢) من طريق زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عنه.
قال في «المجمع» (٥/ ١١٧): زمعة بن صالح ضعيف. وقال الحافظ في «المطالب»: زمعة ضعيف. وقال البوصيري (٤/ ٤٧٢): زمعة ضعيف. ويشهد له حديث علي: أخرجه الطبراني وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٥) وإسناده ضعيف وله شاهد ثالث من حديث جابر: أخرجه البزار (١١٧١) «زوائد». والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٣٥)، و«الصحيحة» (٢١٩٥).

«لَيسَ منَّا مَن تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّرَ لَهُ، أو تَكَهَّنَ أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ أو سُحِرَ لَهُ، وَمَن أَتى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رواه البزار بإسناد جيد.

رواه البزار بإسناد جيد، ورواه الطبرانى فى «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «**ومن أتى كاهناً ـ إلى آخره**»[1].

قوله: «ليس منا»[2] فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر.

قوله: «من تطير» أى: فعل الطيرة، «**أو تطير له**» أى: قبل قول المتطير له وتابعه، وكذا معنى «**أو تكهن أو تكهن له**» كالذى يأتى الكاهن ويصدقه ويتابعه، وكذلك من عمل الساحر له السحر. فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركا، كالطيرة، أو كفراً، كالكهانة والسحر، فمن رضى بذلك، وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل واتباعه.

قوله: «رواه البزار» هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبو بكر البزار البصرى صاحب «المسند الكبير» وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

قوله: (قال البغوى ـ إلى آخره) البغوى -بفتحتين- هو الحسين بن مسعود الفرّاء الشافعى، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان، كان ثقة فقيهاً زاهداً، مات فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قوله: «العرّاف: الذى يدعى معرفة الأمور» ظاهره: أن العرّاف هو الذى يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها، والضالة ومكانها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرّمال ونحوهم، كالحازر الذى يدعى علم الغيب، أو يدعى الكشف.

وقال أيضاً: والمنجم يدخل فى اسم العراف، وعند بعضهم هو معناه.

وقال أيضاً: والمنجم يدخل فى اسم الكاهن عند الخطابى وغيره من العلماء، وحكى ذلك عن العرب، وعند آخرين: هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى.

---

(١) راجع الحديث السابق.

(٢) فيه دليل على نفى الإيمان الواجب، وهو لا ينافى ما تقدم من أن الطيرة شرك، وأن الكهانة كفر. (الفقي).

ورواه الطبرانى فى «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله «وَمَن أَتَى» إلى آخره. قال البغوى: العراف الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل. قيل: الذى يخبر عما فى الضمير.

وقال الإمام أحمد: العرافة: طَرَف من السحر، والساحر أخبث.

وقال أبو السعادات: العرّاف: المنجم، والحازر: الذى يدعى علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً، وعرافاً. والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعى معرفة علم شئ من المغيبات، فهو إما داخل فى اسم الكاهن، وإما مشارك له فى المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة فى بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط فى الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية، ونعنى بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبى ﷺ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم[1]، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرّافاً، أو فى معناهما، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد، وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذى استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة.

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى، إما بدعاء، أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعى أنه ولى ويقول للناس: اعلموا أنى أعلم المغيبات، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من

---

(١) ومعنى الجاهلية: الإعراض عن العلم المنزل من الله على رسله هدى ورحمة، والاعتماد على التقاليد والعادات والظنون والتخرصات، وما يوحى به الشياطين، ويحددها قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقد عادت الجاهلية إلى الناس اليوم مثل الجاهلية الأولى وشراً منها، ولا يمنع وجود القرآن والحديث؛ لأنهم اتخذوهما مهجورين، فوجودهما حجة عليهم فقط، ولا يغرنك منهم عمائم ولحي وصور فما وراءها إلا جاهلية وعقلية عامية قد تكون شراً من عقلية من يتبعون أذناب الإبل والبقر. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. (الفقي).

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف اسم للكاهن، والمنجم، والرمال، ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

الأسباب، وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكهان: «**فيكذبون معها مائة كذبة**»[1] فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه، لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾ (النجم: ٣٢). وليس هذا من شأن الأولياء، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس، ويقولون: اعرفوا أننا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟ وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور، وحسبك بحال الصحابة والتابعين ﷺ، وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه

قوله: «**وقال أبو العباس ابن تيمية**». هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه والله أعلم كان مشغولاً بالجهاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوى الشهوة لتزوج، وليس كما يدعى المُزَوِّرون أن له ولداً مدفوناً إلى جانبه في دمشق، فإنه غير صحيح قطعاً.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذا، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذُكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال، فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: «ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء -الرَّمال والمُنجِّم ونحوهم- فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي، لأن عندنا عموماً معنوياً، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموماً لفظياً وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملاً له» وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يستخدمهم في طاعة الله، كأن يكون له نائباً في تبليغ الشرع، فمثلاً: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعاً، فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمراً محموداً أو مطلوباً، وهو من الدعوة إلى الله -عز وجل-، والجن حضروا النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين،

---

(١) سبق تخريجه.

الدعاوى والشطحات شيء؟ لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق رضي الله عنه[١]، وكان عمر رضي الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته[٢]، وكان يمرّ بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته[٣]، ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور[٤] فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء،

والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء، لأن المنذر لابد أن يكون عالماً بما ينذر، عابداً مطيعاً لله -سبحانه- في الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كان محرمة، صار حراماً، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك. ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر، ففعل، فذهب الجني، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يَسِمُ إبل الصدقة في المكان الفلاني، فهذا استخدام في أمر مباح. **الحال الثالثة:** أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركاً صار شركاً،

(١) كما في «الصحيحين» من حديث عائشة: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس».

(٢) خرجته في رسالة «البكاء»، وفي «مناقب عمر».

(٣) خرجته في كتاب «التخويف من النار» لابن رجب.

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝١٩ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ...﴾ الآيات إلى الآية (٢٤)، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ الآيات إلي الآية (٦١)، وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الآيات إلي الآية (٧٦)، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآيات إلى الآية (١٩)، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ الآيات إلي الآية (٢٨). هذا وفي القرآن الكريم صفات المؤمنين كثيرة جداً، بل أكثر آي القرآن في وصف الإيمان وأهله، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ومن أدل الدلائل على أن الجهل ضرب على القلوب نطاقاً كثيفاً أن يعتقد الناس هذه الدرجة الرفيعة لعباد الرحمن في قوم يبولون على ثيابهم وهم في غاية القذر والوسخ، ولا يركعون لله ركعة، وقد سلبوا كل نعمة إلا الحيوانية، وربما تكلم الشيطان على ألسنتهم بالكلمة يفتن بها أولئك الجاهلين، ولا حول ولا قوة إلا بالله. (الفقي).

وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد، ....

لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

قوله: (وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد - إلى آخره). هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، وإسناده ضعيف، ولفظه: **«رُبَّ مُعَلِّم حروف أبي جاد دارس في النجوم، ليس له عند الله خلاق يوم القيامة»**[١]، ورواه حميد بن زَنْجويه عنه بلفظ: **«رُبَّ ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق»**[٢].

قوله: «ما أرى» يجوز فتح الهمزة بمعنى: لا أعلم، ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن.

وكتابة «أبي جاد» وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف[٣] وهو الذي جاء فيه الوعيد، فأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثماً وعدواناً، ولا يصل إلى حد الشرك. ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من يسأل الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت ذلك عنه ﷺ وهي: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ الآية.

قوله: «يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم». الواو هنا ليست عطفاً، ولكنها للحال، يعني: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: «ما أرى من فعل ذلك». ويجوز بفتح الهمزة بمعنى: أعلم، وبالضم بمعنى: ما أظن.

وقوله: «أبا جاد». هي: أبجد هَوَّز حُطِّي كَلِمُن سَعفَص قرشت ثخذ ضظغ... وتَعَلُّم أبا جاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجُمّل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به، وما زال

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٩٨٠) بسند ضعيف جداً.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه البيهقي (٨/ ١٣٩) بسند صحيح.

(٣) وينسبه الدجالون المشركون إلى جعفر الصادق، ولهم في ذلك كلام كثير في منتهى الكفر، والظاهر أنه من وضع الرافضة الذين استجابوا لسلفهم اليهود فاعملوا في هدم الإسلام كل معول. (الفقي).

وينظرون فى النجوم: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق».

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

قوله: «**وينظرون فى النجوم**» أى ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتى فى باب التنجيم. وفيه من الفوائد: عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ (غافر: ٨٣).

أناس يستعملونها، حتى العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدى -رحمه الله- فى تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

جُدْ بالرِّضا واعط المنى	مَن ساعَدُوا فى ذَا البِنَا
تَاريخُه حينَ انْتَهى	قولُ المنيب اغْفر لَنا
والشَّهْر فى شَوّال يَا	رَبْ تقبَّل سَعْينا

فقوله: «**اغفر لنا**» لو عددناها حسب الجمل صارت ١٣٦٢ هـ.

وقد اعتنى بها العلماء فى العصور الوسطى، حتى فى القصائد الفقهية والنَّحوية وغيرها. ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يُرِد ابن عباس هذا القسم.

الثانى: مُحَرَّم، وهو كتابة «أبا جاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون فى النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث فى الأرض، إما على سبيل العموم، كالجدب والمرض والحرب وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص، كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس فى هذا وما أشبه ذلك، فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع فى الأرض.

وقوله: «**ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**».

قوله: «**خلاق**». أى: نصيب. ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم، لأن الذى ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفى النصيب مطلقاً عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عُذِّب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذى يجده عند الله.

ولم يبين المؤلف -رحمه الله- حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة فى الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم فى الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا، قتلوا

الثالثة: ذكر من تُكُهن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

كفاراً. وإن حكمنا بعدم كفرهم، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون، لأن المسألة فيها خلاف، فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتى وإن قلنا بعدم كفرهم، لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ (المائدة:٣٣)، فكل من أفسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم، فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة، فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور، أو أن لها شركاً، فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج عن الملة، ولكن يُسمى كفراً، لقول النبي ﷺ على إثر سماء كانت من الليل: **«هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»**.

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله.

الثاني: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس وما أشبهه، فهذا من الأمور المباحة، لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

باب ما جاء في النشرة (*)

عن جابر: «أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فقال: هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَان». رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

وفى البخارى عن قتادة قلت لابن المسيب: رجل به طِبٌّ أو يؤخَّذُ عن امرأته أيُحَلُّ

قوله: (باب ما جاء فى النشرة)

بضم النون، كما فى القاموس، قال أبو السعادات: النشرة: ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظن أن به مساً من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أى: يكشف ويزال.

قال الحسن: النُّشرة من السحر، وقد نشرت عنه تنشيراً، ومنه الحديث: «فلعل طباً أصابه، ثم نشره بـ قل أعوذ برب الناس» أى: رقاه.

وقال ابن الجوزى: النشرة: حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.

قوله: (عن جابر: **«أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشرَةِ؟ فقال: هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَان»**[1]. رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها؟ **فقال** ابن مسعود يكره هذا كله).

هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود فى سننه، والفضل بن زياد فى «كتاب المسائل» عن عبد الرزاق، عن عقيل بن معقل عن وهب بن منبه، عن جابر، فذكره، قال ابن مفلح: إسناد جيد، وحسن الحافظ إسناده.

قوله: «سئل عن النشرة» والألف واللام فى «النشرة» للعهد أى: النشرة المعهودة التى كان أهل الجاهلية يصنعونها **«هى من عمل الشيطان»**.

قوله: «وقال: سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله» أراد أحمد -رحمه الله- أن ابن مسعود يكره النشرة التى هى من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً.

قوله: (وفى البخارى عن قتادة، قلت لابن المسيب: **رجل به طِبٌّ أو يؤخَّذُ عن امرأته**

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٦٧).

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود (٣٨٦٨)، وعبد الرزاق (١٩٧٦٢)، والبيهقى (٩/ ٣٥١)، من طريق عقيل بن معقل عن وهب به.
وإسناده صحيح. وله شاهد؛ أخرجه الحاكم (٤/ ٤١٨) من طريق الحسن البصرى عن أنس.

عنه أو يُنَشَّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم يُنه عنه. انتهى.

وروى عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهى نوعان: حل بسحر مثله

أيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم يُنه عنه)[1].

قوله: «عن قتادة» هو ابن دعامة ـ بكسر الدال ـ الدوسى ثقة فقيه من أحفظ التابعين، قالوا: إنه ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: «رجل به طب» بكسر الطاء، أى: سحر، يقال: طُبَّ الرجل ـ بالضم ـ إذا سحر، ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما يقال للديغ: سليم.

وقال ابن الأنبارى: الطب من الأضداد، يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء يقال له: طب.

قوله: «يؤخذ» بفتح الواو مهموزة وتَشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة، أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها، والأَخَذة -بضم الهمزة- الكلام الذى يقوله الساحر.

قوله: «أيُحل» بضم الياء وفتح الحاء مبنى للمفعول.

قوله: «أو ينشَّر» بتشديد المعجمة.

قوله: «لا بأس به» يعنى: أن النشرة لا بأس بها، لأنهم يريدون بها الإصلاح، أى: إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر.

قوله: (وروى عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر). هذا الأثر ذكره ابن الجوزى فى «جامع المسانيد».

والحسن: هو ابن أبى الحسن، واسمه: يسار -بالتحتية والمهملة- البصرى الأنصارى مولاهم، ثقة فقيه، إمام من خيار التابعين، مات سنة عشر ومائة رحمه الله، وقد قارب التسعين.

قوله: **(قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهى نوعان: حل بسحر مثله وهو**

---

(١) ذكره البخارى تعليقاً فى كتاب «الطب» باب «هل يستخرج السحر» (١٠/ ١٩٠-١٩١) «فتح».
قال الحافظ: وصله أبو بكر الأثرم فى كتاب «السنن» من طريق: أبان العطار عن قتادة، ومثله من طريق هشام الدستوائى عن قتادة بلفظ: «يلتمس من يداويه، فقال: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع» وأخرج الطبرى فى «تهذيب» من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسًا إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه فقال: هو صلاح، قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع». **قلت:** أثر الأثرم، رواه ابن عبد البر فى «التمهيد» (٦/ ٢٤٣-٢٤٤) من طريق: حفص بن عمر النمرى، حدثنا هشام، عن قتادة فذكره.

وهو الذى من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور. والثانى ـ النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز.

فيه مسائل:

الأولى: النهى عن النشرة. **الثانية:** الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

الذى من عمل الشيطان ـ إلى آخره). ومما جاء فى صفة النشرة الجائزة ما رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال: بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ فى إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور[1]: الآية التى فى سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ٨١، ٨٢). وقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ١١٨ ـ ١٢١). وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩).

وقال ابن بطال فى كتاب وهب بن منبه: أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسى والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.[2]

قلت: قول العلامة ابن القيم: «والثانى: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز» يشير رحمه الله إلى مثل هذا، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء.

والحاصل أن ما كان منه بالسحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز. والله أعلم.

---

(١) مثل هذا لا يعمل فيه برأى ليث بن أبى سليم ولا برأى ابن القيم (*) ولا غيرهما، وإنما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يجئ عنه ﷺ شيء مما يقول ابن أبى سليم ولا ابن القيم. وما ينقل عن وهب بن منبه فعلى سنة الإسرائيليين لا على هدى خير المرسلين. ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر. وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يعض بالنواجذ على هدى رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ﵃، ويتجنب المحدثات وإن كانت عمن يكون، فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ. (الفقي).

(*) قوله: (مثل هذا لا يعمل فيه برأى ليث بن أبى سليم ولا برأى ابن القيم) إلخ. **أقول:** اعتراض الشيخ حامد على ما ذكره الشارح عن ابن أبى سليم ووهب بن منبه وابن القيم ليس فى محله، بل هو غلط من الشيخ حامد، لأن التداوى بالقرآن الكريم والسدر ونحوه من الأدوية المباحة ليس من باب البدع، بل هو من باب التداوي، وقد قال النبى ﷺ: **«عباد الله تداووا ولا تتداووا بحرام»**، وثبت فى «سنن أبى داود» فى كتاب (الطب) أن النبى ﷺ قرأ فى ماء فى إناء وصبه على المريض، وبهذا يعلم أن التداوى بالسدر وبالقراءة فى الماء وصبه على المريض ليس فيه محذور من جهة الشرع، إذا كانت القراءة سليمة وكان الدواء مباحاً، والله ولى التوفيق. (ابن باز).

(٢) انظر: «المصنف» لعبد الرزاق (١٩٧٦٣) (١١/ ١٣)، وتعليق الحافظ عليه فى «الفتح» (١٠/ ١٧٧).

باب ما جاء في التطير(*)

قوله: (باب ما جاء في التطير)

أي: من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تطَّير يتطير، و«الطِّيرة» بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن، اسم مصدر من تطير طِيرة، كما يقال: تخير خِيرة، ولم يجئ في المصادر على هذه الزنة غيرهما، وأصله: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر.

تعريف التطير: في اللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير، لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يميناً أو شمالاً أو ما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن، أقدم، أو فيها التشاؤم، أحجم.

أما في الاصطلاح، فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة، لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح، لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصها، مثل الصلاة لغةً: الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت، فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

بمرئي مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً. أو مسموع مثل: من هَمَّ بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب، فيتشاءم. أو معلوم، كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات، فهذه لا ترى ولا تسمع.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين: **الأول:** أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله. **الثاني:** أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد، لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٤)، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣).

فالطيرة محرمة، وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهَمّ وغَمّ يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله - عز وجل -، ولا تسيء الظن بالله - عز وجل -.

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٦٨).

وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٣١).

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (يس: ١٩).

قال المدائنى: «سألت رُؤْبة بن العجاج قلت: ما السانح؟ قال: ما ولاّك ميامنه، قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره، والذى يجئ من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذى يجئ من خلفك فهو القاعد والقعيد».

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافى لكمال التوحيد الواجب، لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته[١]، ذكرها المصنف رحمه الله فى «كتاب التوحيد»، تحذيراً مما ينافى كمال التوحيد الواجب.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ...﴾ الآية) ذكر تعالى هذه الآية فى سياق قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ...﴾ الآية (الأعراف: ١٣١). المعنى: أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة ـ أى الخِصْب والسعة والعافية، كما فسره مجاهد وغيره ـ قالوا: لنا هذه، أى: نحن الجديرون، والحقيقون به، ونحن أهله، وإن تصبهم سيئة -أى بلاء وقحط- تطيروا بموسى ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم[٢]، فقال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: «طائرهم: ما قضى عليهم وقدر لهم»[٣]، وفى رواية: «شؤمهم عند الله ومن قِبَله»[٤] أى: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

قوله: « ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ » أى: أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام، إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

قوله: (وقوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ...﴾ الآية). المعنى -والله أعلم- حظكم

---

(١) وذلك بتعلق القلب بها خوفاً وطمعاً، ومنافاتها للتوكل على الله الذى لا ينفع ولا يضر غيره، واعتقاد النفع والضر فى طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد، وإنما تذهب وتجيء فى ضرورة معايشها وشئونها. فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثراً فى جلب خير أو دفع ضر من سخف العقول وفساد الفطر، وتمكن الخرافات والجهل وعمى القلوب، وهذا اعتقاد المنجمين فى النجوم التى سخرها الله تعالى تجرى فى بروجها ومداراتها المستقر لها، اعتقدوا لها تأثيراً فى الكون وهو اعتقاد الصابئة الذين أرسل الله إليهم إبراهيم -عليه السلام-. (الفقى).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٤٩٩٢) (١٤٩٩٣) بإسناد حسن عنه.

(٣) أخرجه بنحوه ابن جرير (١٤٩٩٥) وفيه انقطاع.

(٤) أخرجه بنحوه ابن جرير (١٤٩٩٦)، وسنده صحيح لولا عنعنة ابن جريج.

وما نابكم من شر معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعدوانكم، فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله، كما قال تعالى: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (القلم: ٣٥، ٣٦). ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم، أي: راجع عليكم، فالتطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم، وهذا من باب القصاص فى الكلام، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**»[(١، ٢)] ذكره ابن القيم -رحمه الله-.

قوله تعالى: « ﴿**أَئِن ذُكِّرْتُم**﴾ » أى: من أجل أنَّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ﴿**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾ قال قتادة: أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟[(٣)]

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين، وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك، كما سيأتى فى أحاديث الباب.

قال: (عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ عَدوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَلاَ هَامَةَ وَلاَ صفر**»[(٤)] أخرجاه. زاد مسلم: «**ولا نوْء ولا غُول**»).

قال أبو السعادات: «**العدوى**» اسم من الإعداء، كالدعوى، يقال: أعداه الداء يعديه، إعداء: إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء.

وقال غيره: «**لا عدوى**» هو اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره، والمنفى نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة، والأول هو الظاهر.

وفى رواية لمسلم: أن أبا هريرة كان يحدث بحديث: «**لا عدوى**»، ويحدث عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يُورد مُمْرِض على مُصح**»[(٥)]، ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث:

---

(١) أخرجه البخارى (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣)، وأبو داود (٥٢٠٧)، والنسائى «عمل» (٣٨٦)، وأحمد (١١٩٤٨) (١٢١١٥) (١٢١٤١) (١٣١٩٣) (١٣٢١١) (١٣٥٣١)، وغيرهم عن أنس، وفى الباب عن ابن عمر وغيره.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه. (الفقي).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩٠٨٨) بسند صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٩١٦٥)، ومسلم (٢٢٢٠)، وأبو داود (٣٩١٢)، وابن حبان (٦١٣٣)، وابن أبى عاصم (٢٧٥)، والبغوى (٣٢٥٢). وأخرجه البخارى (٥٧٥٧) وغيره من غير الزيادة.

(٥) أخرجه البخارى (٥٧٧٠) (٥٧٧١) (٥٧٧٣) (٥٧٧٤)، ومسلم (٢٢٢١)، وأبو داود (٣٩١١)، وابن ماجه (٣٥٤١)، وأحمد (٩٢٦٣) (٩٦١٢)، وعبد الرزاق (١٩٥٠٧). (الفقي).

«**لا يورد ممرض على مصح**»، وأمسك عن حديث: «**لا عدوى**»، فراجعوه وقالوا: سمعناك تحدث به، فأبى أن يعترف به، قال أبو مسلمة - الراوى عن أبى هريرة -: فلا أدرى أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر؟.

وقد روى حديث «**لا عدوى**» جماعة من الصحابة: أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، والسائب بن يزيد، وابن عمر[١]، وغيرهم، وفى بعض روايات هذا الحديث: «**وفرّ من المجذوم كما تفر من الأسد**»[٢].

وقد اختلف العلماء فى ذلك، وأحسن ما قيل فيه قول البيهقى، وتبعه ابن الصلاح، وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح، وغيرهم: أن قوله: «**لا عدوى**» على الوجه الذى يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وإن هذه الأمور تعدى بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شئ من الأمراض سبباً لحدوث ذلك، ولهذا قال: «**فرّ من المجذوم كما تفر من الأسد**»، وقال: «**لا يورد ممرض على مصح**»، وقال فى الطاعون: «**من سمع به فى أرض فلا يقدم عليه**»[٣]، وكل ذلك بتقدير الله تعالى. ولأحمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً: «**لا يعدى شئ - قالها ثلاثاً - فقال أعرابى: يا رسول الله إن النُّقْبَة**[٤] **من الجرَب تكون بمشْفَر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتَجْرَب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: فمن أجرب الأولَ؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها**»[٥] فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره،

---

(١) **قلت:** روى العبادلة الأربعة هذا الحديث، والسائب، وجابر، وأنس.

حديث ابن عمر: أخرجه البخارى (٥٧٥٣) (٥٧٧٢)، ومسلم (٢٢٢٥)، وأحمد (٦٤٠٥)، والنسائى (٩٢٧٧).

حديث ابن مسعود مطولاً: أخرجه أحمد (٤١٩٨)، والترمذى (٢١٤٣)، وأبو يعلى (٥١٨٢)، والطحاوى «معانى» (٤/ ٣٠٨) وغيرهم.

حديث ابن عباس: أخرجه أحمد (٢٤٢٥)، وابن ماجه (٣٥٣٩)، والطبرانى (١١٦٠٥)، وغيرهم.

حديث ابن عمرو: أخرجه أحمد (٧٠٧٠) بسند ضعيف.

حديث جابر: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٢)، ومسلم (٢٢٢٢).

حديث السائب: أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٩)، ومسلم (٢٢٢٠).

حديث أنس: أخرجه أحمد (١٣٦٣٣)، ومسلم (٢٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٧٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى معلقاً (٥٧٠٧)، وعنه البغوى (٣٢٤٧)، ووصله ابن خزيمة كما فى «الفتح» وصححه الشيخ الألبانى فى «الصحيحة» (٧٨٣)، وفى «صحيح الجامع» (٧٥٣٠).

(٣) أخرجه البخارى (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة.

(٤) النقبة -بضم النون وسكون القاف والباء الموحدة- أول شيء يظهر من الجرب، وجمعها: نقب -بسكون القاف- لأنها تنقب الجلد أى تخرقه. (الفقي).

(٥) **إسناده ضعيف:** ولكنه يصح بشواهده، وانظر تخريجه فى الحديث السابق.

وَلاَ طِيَرَةَ ....

والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان فى عافية، فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه فى الماء وفى النار، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها، لاخالق غيره، ولا مقدر غيره. وأما إذا قوى التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب، اعتماداً على الله، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر، ففى هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لاسيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة، وعلى هذا يحمل الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى: **«أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه فى القصعة، ثم قال: كل بسم الله، ثقة بالله وتوكلاً عليه»**[(1)]، وقد أخذ به الإمام أحمد، وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان ﭫ ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد ﭬ أنه أكل السم، ومنه مَشْى سعد بن أبى وقاص وأبى مسلم الخولانى على متن البحر، قاله ابن رجب رحمه الله.

قوله: **«ولا طيرة»** قال ابن القيم رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً: أى: لا تطيروا، ولكن قوله فى الحديث: **«لا عدوى ولا صفر ولا هامة»** يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيها، والنفى فى هذا أبلغ من النهى، لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهى إنما يدل على المنع منه.

وفى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم: أنه قال لرسول الله ﷺ: **«ومنا أُناس يتطيرون، قال: ذلك شئ يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم»**[(2)]، فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو فى نفسه وعقيدته، لا فى المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذى **يطيره ويصده** لما رآه وسمعه، **فأوضح ﷺ** لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة، ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى حد وحدانيته تعالى التى أرسل بها

---

(1) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذى (١٨١٧)، وابن ماجه (٣٥٤٢)، وضعفه الشيخ فى «ضعيف أبى داود» (٨٤٧)، وضعيف الترمذى (٣٠٧)، وضعيف ابن ماجه (٧٧٦).

(2) أخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والدارمى (١٥٠٣)، والطيالسى (١١٥٠)، والنسائى (٣/ ١٤-١٨)، و«الكبرى» (١١٤١)، وابن خزيمة (٨٥٩)، وابن حبان (٢٢٤٧)، وأحمد (٥/ ٤٤٧)، وابن الجارود (٢١٢)، والطحاوى (١/ ٤٤٦)، والطبرانى (١٩) (٩٤٥) (٩٤٨)، وغيرهم فى حديث مطول.

رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم، لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها. قال عكرمة: كنا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر، فبادره بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره فى الخير والشر. وخرج طاوس مع صاحب له فى سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاوس: وأى خير عند هذا؟ لا تصحبنى. اهـ ملخصاً.

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، كقوله ﷺ: **«الشؤم فى ثلاث: فى المرأة، والدابة، والدار»**[1] ونحو هذا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إخباره ﷺ بالشؤم فى هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التى نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطى غيرهما ولداً مشئوماً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبدمن ولاية وغيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضى بسعادة من قاربها وحصول اليُمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأوراح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس، فكذلك فى الديار والنساء والخيل، فهذا لون والطيرة الشركية لون. انتهى.

(١) أخرجه البخارى (٢٨٥٨)، ومسلم (٢٢٢٥) من حديث ابن عمر، وقد سبق.

وَلاَ هَامةَ وَلاَ صفر» أخرجاه. زاد مسلم: «وَلاَ نَوءَ وَلاَ غُولَ».

. قوله: «ولا هامة» بتخفيف الميم على الصحيح، قال الفراء: الهامة: طير من طير الليل، كأنه يعنى البومة، قال ابن الأعرابى: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول: نَعَتْ إلى نفسى أو أحداً من أهل دارى، فجاء الحديث بنفى ذلك وإبطاله.

قوله: «ولا صفر» بفتح الفاء، روى أبو عبيدة فى «غريب الحديث» عن رؤبة أنه قال: هى حيّة تكون فى البطن تصيب الماشية والناس، وهى أعدى من الجرب عند العرب، وعلى هذا: فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى، وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخارى وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفى لما كان أهل الجاهلية يفعلونه فى النسئ، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهو قول مالك.

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعته يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل النبى ﷺ ذلك[1]، قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهى عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال فى النكاح فيه خاصة.

قوله: «ولا نوء» النوء واحد الأنواء، وسيأتى الكلام عليه فى بابه إن شاء الله تعالى.

قوله: «ولا غول» هو بالضم اسم، وجمعه أغوال وغيلان، وهو المراد هنا.

قال أبو السعادات: الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين، كانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلوناً فى صور شتى وتغولهم: أى تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبى ﷺ وأبطله.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٥) من طريق: محمد بن المصفى، ثنا بقية، قال: قلت لمحمد بن راشد - فذكره.
إسناده إليه صحيح. وله شاهد من قول مالك رحمه الله: أخرجه أبو داود (٣٩١٤) قرئ على الحارث ابن مسكين أخبركم أشهب قال: سئل مالك - فذكر نحوه.
والمرفوع من الأثر له أصل مرفوع سبق ذكرها.

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا عَدوَى ولاَ طِيَرَةَ**.........................

فإن قيل: ما معنى النفي، وقد قال النبي ﷺ : «**إذا تغولت لكم الغيلان فبادروا بالأذان**»[1،2].

أجيب عنه: بأن ذلك كان في الابتداء، ثم دفعها الله عن عباده، أو يقال: المنفي ليس وجود الغول، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه، أو يكون المعنى بقول «**لا غول**» أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه، ويشهد له الحديث الآخر «**لا غول ولكن السعالي سحرة الجن**»[3] أي: ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل، ومنه الحديث: «**إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان**» أي: ادفعوا شرها بذكر الله، وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها، ومنه حديث أبي أيوب: «**كان لي تمر في سَهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ**»[3].

قوله: (ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا عَدوَى ولاَ طِيَرَةَ ويُعجبُنِي الفَألُ. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكَلمَةُ الطَّيِّبَةُ** »[4]).

قوله: «لا عدوى» : العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ : «**لا يوردُ مُمرضٌ على مُصحٍّ**» أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى. وقوله ﷺ : «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**». والجُذام مرضٌ خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه، حتى قيل: إنه الطاعون، فالأمر بالفرار من المجذوم لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمراً حتمياً، بحيث تكون علة فاعلة، وأمر

---

(١) **إسناده ضعيف** : أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥، ٣٨٢)، وعبد الرزاق (٩٢٤٧)، وأبو داود (٢٥٧٠)، وابن ماجه (٣٣٧٢)، والنسائي «عمل» (٩٥٥)، وأبو يعلى (٢٢١٩)، وابن خزيمة (٢٥٤٩)، وابن السني في «عمل اليوم» (٥٢٣)، من طريق عن الحسن عن جابر مطولاً. وإسناد فيه انقطاع، لكن الحديث له شواهد.

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٩٧)، من طرق الحسن عن جابر، مختصراً على قصة الغيلان.

وأخرجه البزار (٣١٢٩) «كشف»، وابن عدى (٥/ ١٧٦٠) عن الحسن عن سعد بن أبي وقاص.

قال البزار: لا نعلمه يروى عن سعد إلا من هذا الوجه، ولا نعلم سمع الحسن من سعد شيئًا.

ويشهد له حديث أبي هريرة أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٣٦) من طريق عدى بن الفضل عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا.

قال الهيثمي (١٠/ ١٣٤) وفيه عدى بن الفضل وهو متروك. وضعفه الشيخ في «الضعيفة» (١١٤٠).

(٢) قال السيوطي في «الجامع الصغير»: رواه الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة، وهو ضعيف. (الفقي).

(٣) **إسناده ضعيف** : أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٣)، والترمذي (٢٨٨٠)، والطحاوي في «المشكل» (٧٨٧)، والطبراني (٤٠١١) (٤٠١٢) (٤٠١٣) (٤٠١٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١١٠٨) (١١١٠)، والحاكم (٣/ ٤٥٩)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٥٤٥)، من طرق عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي أيوب. وكلها لا يخلو منها الضعف.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤) وسبق تخريجه.

وَيُعجبُني الفَأْلُ. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكَلمَةُ الطَّيِّبةُ».

قوله: «ويعجبني الفأل» قال أبو السعادات: الفأل - مهموز - فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر، يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت، على التحقيق والقلب، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أمَّلوا فائدة الله، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر، وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء. والتفاؤل: أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالَّة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ مرضه ويجد ضالته، ومنه الحديث: «قيل: يا رسول الله، ما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة».

قوله: «قالوا: وما الفأل:؟ قال: الكلمة الطيبة» بين ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

النبي ﷺ بالفرار، وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سبباً للبلاء، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥)، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى. قال رجل: يا رسول الله! الإبل تكون صحيحة مثل الظّباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي ﷺ: فمن أعدى الأول؟» يعني أن المرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله -عز وجل- فكذلك إذا انتقل بالعدوى، فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فَجَرَبُ الأول ليس سببه معلوماً، إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجَرَبُ الذي بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله تعالى لم يَجرَب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون.

فعلى الإنسان أن يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وقد روى أن النبي ﷺ جاءه رجل مجذوم، فأخذ بيده وقال له: «كل -يعني من الطعام- الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ». لقوة توكله ﷺ فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي. وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث، وادعى بعضهم النسخ، فمنهم من قال: إن الناسخ قوله: «لا عدوى»، والمنسوخ قوله: «فر من المجذوم»، «ولا يورد ممرض على مصح»، وبعضهم عكس، والصحيح أنه لا نسخ، لأن من شروط النسخ تَعَذُّر الجمع، وإذا أمكن الجمع وجب الرجوع إليه، لأن في الجمع إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما، وإعمالهما أولى من إبطال أحدهما، لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه لا نسخ.

قال ابن القيم رحمـه الله تعالى: ليس فى الإعجاب بالفأل ومحـبته شىء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتـضى الطبيعة، ومـوجب الفطرة الإنسانية التى تميل إلى ما يوافـقها ويلائمهـا، كما أخـبرهم ﷺ أنه حبب إلـيه من الدنيا النسـاء والطيب[1]، وكان يحب الحلواء والعسل[2]، ويحب حسن الصوت بالقرآن، والأذان، ويستمع إليه، ويحب معالى الأخلاق ومكارم الشيم.

وبالجملة يحب كل كمال وخـير وما يفضى إليهما، والله سبحـانه قد جعل فى غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحـسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكـذلك جعل فيها الارتياح والاسـتبشار والسـرور باسم الفلاح والسلام والنجـاح والتهنئة والبشـرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا قـرعت هذه الأسماء الأسماع استبشـرت بها النفوس، وانشرح لها الصدر، وقوى بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفاً وطيـرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصـدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً فى الدنيا ونقصاً فى الإيمان ومقارفة الشرك.

وقـال الحليمى: وإنما كان ﷺ يعجبـه الفأل، لأن التشاؤم سوء ظـن بالله تعـالى بغير سبب محقق، والتفـاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعـالى على كل حال.

قوله: (ولأبى داود بسند صحيح عن عقبة بن عـامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: **«أَحسَنُهَا الفَألُ وَلاَ ترد مُسلماً، فَإِذَا رأَىَ أَحَدُكُم مَا يَكرَهُ فَليَقُل: اللَّهُمَّ لاَ يَأتِى بِالحَسَنَاتِ إِلاَّ أَنتَ، وَلاَ يَدفَعُ السيِّئَاتِ إِلاَّ أَنتَ، وَلاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ**[3]).

قوله: «عن عقبة بن عامر» هكذا وقع فى نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكى اختلف فى نسبه فقال أحمد: عن عروة ابن عامـر القرشى، وقـال غيره: الجـهنى، واختلف فى صـحبتـه، فقـال الباوردى: له صحبة، وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين، وقال المزى: لا صحبة له تصح.

---

(١) عن أنس مرفوعًا: «حُبِّبَ إِلىَّ من دُنياكم: النساء والطيبُ، وجعلت قرةُّ عينى فى الصلاة».
أخرجه أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى - انظر: «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

(٢) أخرج البـخارى ومـسلم والأربعة من حديث عـائشة: «كـان رسول الله ﷺ يحبُّ الحلواء والعسـل». انظر: «صحيح الجامع» (٤٩١٩).

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣٩١٩)، وضعفه الشيخ فى «الضعيف منه» (٨٤٣).

فقال : «أَحسَنُهَا الفَأْلُ وَلاَ ترد مُسلماً، فَإِذَا رأَىَ أَحَدُكُم مَا يَكرَهُ فَليَقُل: اللَّهُمَّ لاَ يَأتى بالحَسَنَات إلاَّ أَنتَ وَلاَ يَدفَعُ السَّيِّئَات إلاَّ أَنتَ...

قوله: «فقال: أحسنها الفأل» قد تقدم أن النبى ﷺ كان يعجبه الفأل، وروى الترمذى وصححه عن أنس رضي الله عنه **«أن النبى ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: يا نجيح، يا راشد»**[1]، وروى أبو داود عن بريدة: **«أن النبى ﷺ كان لا يتطير من شىء، وكان إذا بعث عاملاً سأله عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤى كراهية ذلك فى وجهه»**[2] وإسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة، لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما، ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقى بالشرك، وإذنه فى الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله: «ولا ترد مسلماً» قال الطيبى: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت» أى لا تأتى الطيرة

قوله: «لا يأتى بالحسنات إلا أنت». أى: لا يُقدِّرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافى أن تكون الحسنات بأسباب، لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله، صار الموجد حقيقةً هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن فى عينه. ويشمل ذلك الحسنات الشرعية، كالصلاة والزكاة وغيرها، لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية، كالمال والولد ونحوها، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ (التوبة: ٥٠)، وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (آل عمران: ١٢٠).

وقوله: «إلا أنت». فاعل يأتى، لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «ولا يدفع السيئات إلا أنت». السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (١٦١٦)، وصححه الشيخ فى «الصحيح منه» (١٣١٦).

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٥/٣٤٧-٣٤٨)، وأبو داود (٣٩٢٠)، وابن حبان (٥٨٢٧)، والبيهقى (٨/ ١٤٠)، وفى «الشعب» (١١٧٠)، والنسائى «كبرى» (٨٨٢٢)، وإسناده حسن.

ولاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بكَ».

بالحسنات، ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذى تأتى بالحسنات، وتدفع السيئات، و«الحسنات» هنا النعم، و«السيئات» المصائب، كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٨-٧٩). ففيه نفى تعليق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد، وهو دعاء مناسب لمن وقع فى قلبه شئ من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك» استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التى قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها، وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذى هو أقوى الأسباب فى جلب الخيرات ودفع المكروهات.

و**«الحول»** التحول والانتقال من حال إلى حال، و **«القوة»** على ذلك بالله وحده لا

ركبوا فى الفلك، وشاهدوا الغرق، دعوا الله مخلصين له الدين. ولا ينافى هذا أن يكون دفعها بأسباب، فمثلاً لو رأى رجلاً غريقاً، فأنقذه، فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه، فالسبب من الله. فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتى بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله، وبمقتضى هذه العقيدة، فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات، قال تعالى عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران: ٣٨)، وقال تعالى عن أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)، وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضاً.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك». فى معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله، فالباء بمعنى فى، يعنى: إلا فى الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة، لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة، فالحول الكامل والقوة الكاملة فى الله وحده.

الثانى: أنه لا يوجد لنا حول ولا قوة إلا بالله، فالباء للاستعانة أو للسببية، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودها فى مواضعها، إذ إننا لا نتحول من حال إلى حال، ولا نقوى على ذلك إلا بالله، فيكون فى هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله

شريك له، ففيه التبرى من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته، وهذا هو التوحيد فى الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذى هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

قوله: (وله من حديث ابن مسعود مرفوعاً: **«الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلاَّ. ولَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بالتَّوَكُّلِ»**[1] رواه أبو داود والترمذى وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود).

ورواه ابن ماجه وابن حبان، ولفظ أبى داود: **«الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثاً»** وهذا صريح فى تحريم الطيرة، وأنها من الشرك، لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى.

قال ابن حمدان: تكره الطيرة، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد.

قال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الاصطلاحية؟

قال فى «شرح السنن»: وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى.

قوله: «وما منا إلا» قال أبو القاسم الأصبهانى، والمنذرى: فى الحديث إضمار، التقدير: وما منا إلا وقد وقع فى قلبه شئ من ذلك. اهـ.

وقال الخلخالى: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا من أدب الكلام.

وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة. فإن صح الحديث، فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: **«اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»**.

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وأبو داود (٣٩١٠)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، والطحاوى «مشكل» (١/٣٥٨)، وأبو يعلى (٥٢١٩)، والشاشى (٦٥٥)، وابن حبان (٦١٢٢)، وأحمد (٣٦٨٧) (٤١٧١) (٤١٩٤)، والبيهقى فى «السنن» (٨/١٣٩).

قال الحافظ فى «الفتح» (١٠/٢١٣): قوله: «وما منا إلا» من كلام ابن مسعود أدرج فى الخبر، وقد بيَّنه سليمان ابن حرب شيخ البخارى فيما حكاه الترمذى عن البخارى عنه.

وَلَكِنَّ اللهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رواه أبو داود والترمذي وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «مَن رَدَّتهُ الطِّيَرَةُ عَن حَاجَتِهِ فَقَد أَشرَكَ. قالوا:

قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل» أي: لكن لما توكلنا على الله فى جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود» قال ابن القيم: وهو من الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك.

قال: (ولأحمد من حديث ابن عمرو: «مَن رَدَّتهُ الطِّيَرَةُ عَن حَاجَتِهِ فَقَد أَشرَكَ. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن يَقُولَ اللَّهُمَّ لاَ خَيرَ إلاَّ خَيرُكَ، ولاَ طَيرَ إلاَّ طَيرُكَ، وَلاَ إِلهَ غَيرُكَ»[1]).

هذا الحديث رواه أحمد والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفى إسناده ابن لهيعة[2]، وبقية رجاله ثقات.

قوله: «من حديث ابن عمرو» وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء، مات فى ذى الحجة ليالى الحرة -على الأصح- بالطائف.[3]

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» وذلك أن الطيرة هى التشاؤم بالشىء المرئى

قوله: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد اشرك...).

يستفاد من هذا الحديث:

١- أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالى بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة، فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره فى أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ، لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية، فلا تهتم بما حدث.

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٧٠٤٥)، وابن السنى فى «عمل اليوم» (٢٩٣)، وإسناده حسن. وله شواهد، ذكرتها فى تخريج «عمل اليوم» لابن السنى، يسر الله طبعه.

(٢) هو عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى قاضيها وعالمها ومسندها. قال الإمام أحمد: احترقت كتبه، وهو صحيح الكتاب. ومن كتب عنه قديماً فسماعه صحيح، مات سنة ١٧٤ هـ. (الفقي).

(٣) واقعة الحرة وفتنة الحرة. الموقعة التى كانت من أهل الشام فى أهل المدينة، حين بعث يزيد بن معاوية أهل الشام لقتال أهل المدينة حين امتنعوا عن بيعته، فغلبوا على أهلها واستباحوها ثلاثاً، وقتل خلق كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم، وكان ذلك سنة خمس وستين.(*) (الفقي).

(*) قوله: «وكان ذلك سنة خمس وستين» **أقول**: الصواب سنة ثلاث وستين. (ابن باز).

فما كفارة ذلك؟ قال: أن يَقُولَ اللّهُمَّ لاَ خَيرَ إلاَّ خَيرُكَ، وَلاَ طَيرَ إلاَّ طَيرُكَ، وَلاَ إلهَ غَيرُكَ» .

وله من حديث الفضل بن العباس:..

أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر. ونحوه، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤماً، فقد دخل في الشرك، كما تقدم، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه، فيكون للشيطان منه نصيب.

قوله: «فما كفارة ذلك؟» إلى آخره، فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه ولم يلتفت إليه، كفّر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء، لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه.

وتضمن الحديث: أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه، وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره، لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله، وأن الخير كله بيده، فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده، فما أصابه من ذلك فبذنبه، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩).

قوله: (وله من حديث الفضل بن العباس: **«إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمضَاكَ أَو رَدَّكَ»**[(١)]).

٢- أن الطيرة نوع من الشرك، لقوله: **«من ردته الطيرة عن حاجته، فقد أشرك»**.

٣- أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة، فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: **«وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل»**.

٤- أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

٥- انفراد الله بالألوهية، كما انفرد بالخلق والتدبير.

قوله في حديث الفضل: **«إنما الطيرة»**. هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصراً، أي: ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب ولم ترده ولم يلتفت لها، فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع، إذ الأمر كله بيد الله.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (١٨٢٤)، من طريق: حماد بن خالد، حدثنا ابن عُلاثة، عن مسلمة الجهني، قال سمعته يُحدثُ عن الفضل، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يومًا، فبرح ظبيٌ، فمال في شِقِّه فاحتضنته، فقلت: يا رسول الله، تطيرت؟ قال: فذكره. وإسناده ضعيف.

ابن عُلاثة وهو محمد بن عبد الله فيه نظر وضعف، ومسلمة الجهني فيه جهالة، ولم يدرك الفضل.

«إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمضَاكَ أَو رَدَّكَ».

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الثانية: نفى العدوى.

الثالثة: نفى الطيرة.

الرابعة: نفى الهامة.

الخامسة: نفى الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع فى القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً، فبرّح ظبى، فمال فى شقه فاحتضنته، فقلت: يا رسول الله، تطيرت، فقال: إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» وفى إسناده انقطاع، أى بين مسلمة راويه وبين الفضل، وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبى ﷺ. قال ابن معين: قتل يوم اليرموك، وقال غيره: قتل يوم مرج الصفّر سنة ثلاثة عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وقال أبو داود: قتل بدمشق، كان عليه درع رسول الله ﷺ.

قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» هذا حد الطيرة المنهى عنها، أنها ما يحمل الإنسان على المضى فيما أراده، ويمنعه من المضى فيه كذلك، وأما الفأل الذى كان يحبه النبى ﷺ ففيه نوع بشارة، فيسرّ به العبد ولا يعتمد عليه، بخلاف ما يمضيه أو يرده، فإن للقلب عليه نوع اعتماد، فافهم الفرق. والله أعلم.

باب ما جاء في التنجيم (*)

قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: ....

قوله: (باب ما جاء في التنجيم)

قال شيخ الإسلام رحمه الله: التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية، على الحوادث الأرضية.

وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجئ المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدّعون أن لها تأثيراً في السفليات، وهذا منهم تحكّم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

قوله: (قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: **«خَلَقَ اللهُ هَذه النُّجُومَ لثَلاث: زينَةً للسَّمَاء وَرُجُوماً للشَّياطين وَعَلاَمَات يُهتَدَى بهَا، فَمَن تَأَوَّلَ فيهَا غَيرَ ذَلكَ أَخطَأَ، وَأَضَاعَ نَصيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ علمَ لَهُ به»**[1]).

هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه، وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم، وأخرجه الخطيب في «كتاب النجوم» عن قتادة، ولفظه قال: «إنما

قوله: (التَّنجيم): مصدر نجّم بتشديد الجيم، أي: تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين: ١- علم التأثير. ٢- علم التسيير.

فالأول: علم التأثير. وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فهذا شرك أكبر، لأن من ادّعى أن مع الله خالقاً، فهو مشرك شركاً أكبر، فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مسخراً.

ب- أن يجعلها سبباً يدعى به علم الغيب، فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٦٩).

(١) ذكره البخاري معلقاً في كتاب «بدء الخلق» الباب الثالث - باب النجوم.

ووصله ابن جرير (٣٤٤٩٠) من طريق بشر ثنا يزيد ثنا سعيد عن قتادة فذكره. وأخرجه الأصبهاني في «العظمة» (٧٠٦) مطولاً.

....

جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف مالا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء». انتهى.[1]

سيكون كذا وكذا، لأن النجم الفلانى صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاءً، لأنه ولد فى النجم الفلانى، وهذا حياته ستكون سعيدة، لأنه ولد فى النجم الفلانى، فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلةً لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة، لأن الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)، وهذا من أقوى أنواع الحصر، لأنه بالنفى والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب، فقد كذَّب القرآن.

جـ- أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر، أى أنه إذا وقع شىء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه، فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبى ﷺ فى قوله فى الكسوف: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده»** فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار. والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يُسلَّم أن للكسوف تأثيراً فى الحوادث والعقوبات من الجدب والقحط والحروب، ولذلك قال النبى ﷺ: **«إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»** لا فى ما مضى ولا فى المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثانى: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً، فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به. لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً فى هذا، لأن الحديث لا يقتضيه، فالحديث ينص على التخويف، والمُخَوِّف هو الله تعالى، والمخوف عقوبته، ولا أثر للكسوف فى ذلك، وإنما هو علامة فقط.

---

(١) فى قرة العيون: وقول قتادة -رحمه الله تعالى- يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث فى عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به، وهذا العلم مما ينافى التوحيد ويوقع فى الشرك؛ لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته، كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾. (الفقي).

«خَلَقَ اللهُ هَذه النُّجُومَ لثَلاث: زينَةً للسَّمَاء ورُجُوماً للشَّيَاطين وعَلامَات يُهتَدَى بهَا، فَمَن تَأَوَّل فيهَا غيرَ ذَلكَ أخطَأَ، وأَضَاع نَصيبَهُ، وتَكَلَّفَ مَا لاَ علمَ لَهُ به» انتهى.

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات فى عصر التابعين، وما زال الشر يزداد فى كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية فى هذه الأعصار، وعمت به البلوى فى جميع الأمصار، فمقلّ ومستكثر، وعزّ فى الناس من ينكره، وعظمت المصيبة به فى الدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قوله: «خلق الله هذه النجوم لثلاث» قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: ٥). وقال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦).

وفيه إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا، كما روى ابن مَردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما السماء الدنيا: فإن الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وزينها بمصابيح، وجعلها رجوماً للشياطين، وحفظاً من كل شيطان رجيم»**[1].

قوله: «وعلامات» أى: دلالات على الجهات، **«يهتدى بها»** أى: يهتدى بها الناس فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٩٧).

الثانى: علم التسيير. وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية، فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة، فالنجم الفلانى يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلانى يكون ربع الليل قبلة، فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثانى: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية، فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات، كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدى وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا، فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦).

النوع الثانى: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر، فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون. والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلانى، فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذى يأتى بالبرد أو بالحر أو بالرياح.

والصحيح عدم الكراهة، كما سيأتى إن شاء الله.

---

(١) عزاه فى «الدر» (٤/ ٩٥) لابن مردويه من حديث ابن مسعود. وأخرجه بنحوه الطبرانى فى «الأحاديث الطوال» (٣)، والطبرى (٢٩٢٦٧)، وأبو الشيخ فى «العظمة» (٦٤٧)، وإسناده ضعيف جداً، عن ابن عباس.

أى: لتعرفوا بها جهة قصدكم. وليس المراد أنه يهتدى بها فى علم الغيب، كما يعتقده المنجمون، وقد تقدم وجه بطلانه، وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة: «**فمن تأول فيها غير ذلك**» أى: زعم فيها غير ما ذكر الله فى كتابه من هذه الثلاث «**فقد أخطأ**»، حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان، وأضاع نصيبه من كل خير، لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه، فإن قيل: المنجم قد يصدق؟ قيل: صدقه كصدق الكاهن، يصدق فى كلمة ويكذب فى مائة، وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدراً، فيكون فتنة فى حق مَن صدقه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله: ﴿**وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ**﴾ (النحل: ١٥، ١٦). فقوله: ﴿**وَعَلَامَاتٍ**﴾ معطوف على ما تقدم مما ذكره فى الأرض، ثم استأنف فقال: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه.

وقد جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ بإبطال علم التنجيم، كقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**».[١،٢]

وعن رجاء بن حَيَوة أن النبى ﷺ قال: «**إن مما أخاف على أمتى التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة**»[٣] رواه عبد بن حميد، وعن أبى محجن مرفوعاً: «**أخاف على أمتى ثلاثاً: حيف الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر**»[٤] رواه ابن عساكر، وحسنه السيوطى.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس. (الفقي).

(٣) **صحيح**: وهذا إسناده معضل ضعيف. أخرجه البخارى فى «تاريخه الكبير» (١/١٤٨) فى ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن عمرو رواى الحديث عن رجاء عن حيوة فذكره. ومحمد بن عبد الرحمن فيه جهالة. والحديث له شواهد. منها حديث جابر بن سمرة بنحوه؛ أخرجه أحمد (٥/٨٩-٩٠)، وأبو يعلى (٧٤٦٢) (٧٤٧٠)، والبزار (٢١٨١)، والطبرانى فى «الكبير» (١٨٥٣)، و«الأوسط» (١٨٧٣)، و«الصغير» (١١٢)، وابن أبى عاصم فى «السنة» (٣٢٤)، وإسناده واهٍ جداً.

وله شاهد من حديث أبى أمامة؛ أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨١١٣)، وإسناده ضعيف.

وشاهد من حديث أبى محجن؛ أخرجه ابن عساكر وابن عبد البر فى «جامع العلم» (٢/٣٩) وإسناده ضعيف.

وشاهد من حديث طلحة بن مصرف؛ أخرجه أبو عمرو الدانى فى «السنن الواردة فى الفتن» (٢٣/١-٢)، وآخر من حديث أبى الدرداء.

والحديث بطرقه وشواهده صححه علامة العصر الألبانى -رحمه الله- فى «الصحيحة» (١١٢٧).

(٤) **صحيح بشواهده**: انظر الحديث السابق.

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه.[1] ذكره حرب عنهما. ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أنس ﷺ مرفوعاً: «**أخاف على أمتى بعدى خصلتين: تكذيباً بالقدر، وإيماناً بالنجوم**»[2] رواه أبو يعلى وابن عدى والخطيب فى «كتاب النجوم»، وحسنه السيوطى أيضاً، والأحاديث فى ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة.

قوله: (وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما. ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق).

قال الخطابى: أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذى يعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهى عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة، فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة، ويشاهدها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين فى دينهم، ولا مقصرين فى معرفتهم. انتهى.[3]

وروى ابن المنذر عن مجاهد: «**أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر**»، وروى عن إبراهيم: «**أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به**»، قال ابن رجب: والمأذون فى تعلمه التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم، قليله وكثيره، وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج إليه من الاهتداء ومعرفة القبلة جائز عند الجمهور.

قوله: «ذكره حرب عنهما» هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرمانى

---

(١) خوفًا من أن يجر إلى التنجيم المحرم الذي هو علم التأثير. (الفقي).

(٢) صحيح : أخرجه أبو يعلى (٤١٣٥)، وابن عدى (٤/ ١٣٥٠)، وراجع الحديث السابق.

(٣) وحقيقة علم الفلك معرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها. وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومنظارات مقربة، ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئاً كثيراً جداً من العوالم العلوية، حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض. وكل ذلك لا يصح أن يختلف فيه مطلقاً، لأنه كعلم الحساب. أما أن ينسب إلى هذه النجوم والكواكب شيء من الحوادث على الأرض من موت أو حياة أو حرب أو سلم يكون فى المستقبل فهذا هو الذى لا شك فى كذبه وأنه ضلال. (الفقي).

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ، مُدمِنُ الخَمرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحرِ**» رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه».

الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد، روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين، وغيرهم، وله كتاب «المسائل» التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين. وأما إسحاق: فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه، روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم، قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضاً عن أحمد، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قال: (وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ، مُدمِنُ الخَمرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحرِ**»[1] رواه أحمد وابن حبان في صحيحه»).

هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال: صحيح، وأقرّه الذهبي، وتمامه: **«ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة: نهر يجري من فروج الموسات، يؤذي أهلَ النار ريح فروجهن»**.

قوله: (وعن أبي موسى) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار -بفتح المهملة وتشديد الضاد- أبي موسى الأشعري، صحابي جليل، مات سنة خمسين.

قوله: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة**» هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها،

قوله: «ومصدق بالسحر». هذا هو شاهد الباب. ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدَّق به، فقد صدَّق بنوع من السحر، فقد سبق: **«أن من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر»**. والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المُنجِّم: سيحدث كذا وكذا، وصدّق به، فإنه لا يدخل الجنة، لأنه صدّق بعلم الغيب لغير الله. قال تعالى: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ (النمل: ٦٥).

فإن قيل: لماذا لا يجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٩)، وأبو يعلى (٧٢٤٨)، وابن حبان (٥٣٤٦) (٦١٣٧)، والحاكم (٤/ ١٤٦) من طريق أبي حَرِيز عن أبي بُردة عن أبي موسى فذكره.

وإسناده ضعيف. أبو حريز واسمه عبد الله بن الحسين الأزدي ضعيف.

أما الجزء الأول منه وهو قوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة» صحيح لشواهده فله شاهد من حديث أبي سعيد، وابن عمر، وغيرهما.

وقالوا: أمروها كما جاءت، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم. وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته.

قوله: «مدمن الخمر» أي: المداوم على شربها.

قوله: «وقاطع الرحم» يعني القرابة، كما قال تعالى: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾** الآية (محمد: ٢٢).

قوله: «ومصدق بالسحر» أي: مطلقاً، ومنه التنجيم، لما تقدم من الحديث، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

أجيب: إن المصدِّق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً، فلا يلحقه هذا الوعيد، إذ لاشك أن للسحر تأثيراً، لكن تأثيره تخييل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصى كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصاً فيجعله يحب فلاناً ويبغض فلاناً. فهو مؤثر قال تعالى: **﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾** (البقرة: ١٠٢)، فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع. أما من صدَّق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهباً أو نحو ذلك، فلاشك في دخوله في الوعيد، لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله -عز وجل-.

وقوله: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة»**. هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟

الجواب: لا، لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء فهذا الحديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية. لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار، فيُجرُون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قلّ، فإنه لابد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: إن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة فى خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف فى تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشئ من السحر، ولو عرف أنه باطل.

قال الذهبى فى «الكبائر»: ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته، وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة، قال: وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه، ولا الوعيد عليه. اهـ.

أن من فى قلبه إيمان وإن قلّ، فلابد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب، لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً، فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: إن هذا من باب أحاديث الوعيد التى تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٩٣)، هذه الآية من نصوص الوعيد، فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى. ونقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد. وهذا مذهب كثير من السلف، كمالك وغيره، وهذا أبلغ فى الزجر.

القول الرابع: إن هذا نفى مطلق، والنفى المطلق يحمل على المقيد، فيقال: لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعنى لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يُصدق بعضها بعضاً، ويلائم بعضها بعضاً، وهذا أقرب إلى القواعد وأبيَن حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة، فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حَرِىٌّ أن يختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافراً، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه، وحينئذ لا يبقى فى المسألة إشكال، لأن من مات على الكفر، فلن يدخل الجنة، وهو مخلد فى النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: **«لا يزال المرء فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»**، فيكون هذا قولاً خامساً.

بـاب ما جـاء فى الاستسقـاء بالأنـواء (*)

قوله: (باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء)

أى: من الوعيد، والمراد نسبة السّقْيا ومجئ المطر إلى الأنواء، و«الأنواء» جمع «نَوْء» وهى منازل القمـر، قال أبو السعادات: وهى ثمـان وعشرون منزلة ينزل القـمر كل ليلة منزلة منها، ومنه قـوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ (يس:٣٩). يسقط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخـرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقـضى جميعـها مع انقضـاء السنة، وكانت العرب تزعم أن مع سـقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليـها، ويقولون: «مطرنا بنوء كذا وكذا»، وإنما سمى نَوْءًا، لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أى: نهض وطلع.

الاستسقـاء: طلب السُّقيا، كـالاستـغفار: طلب المغـفرة، والاسـتعانة: طلـب المعونة، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستهـداء: طلب الهداية، لأن مادة استفعل فى الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة فى الفعل، مثل: اسـتكبر، أى: بلغ فى الكبـر غايتـه، وليس المعنى طلب الكبـر، والاستـسـقاء بالأنواء، أى: أن تطلب منهـا أن تسقيك. والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نـوء كذا، اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر، لأنه دعا غير الله، ودعـاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون:١١٧)، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن:١٨)، وقال تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس:١٠٦).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهى عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هى الفـاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبـر فى الربوبية، والأول فى العبادة، لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك فى الربوبية، لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضى الحاجة.

القسم الثانى: شرك أصغـر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سبـباً مع اعتقـاده أن الله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله سبباً لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركاً أصغر.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٦٩).

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢).

قال: (وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾) روى الإمام أحمد والترمذى -وحسنه- وابن جرير وابن أبى حاتم والضياء فى «المختارة» عن على ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: « ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا»[1]، وهذا أولى ما فسرت به الآية، وروى ذلك عن على وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء والخراسانى وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾. أى: تُصيِّرون، وهى تنصب مفعولين: الأول (رزق)، والثانى: (أن)، وما دخلت عليه فى تأويل مصدر مفعول ثان، والتقدير: وتجعلون رزقكم كونكم تكذبون أو تكذيبكم. والمعنى: تكذبون أنه من عند الله، حيث تضيفون حصوله إلى غيره.

قوله: ﴿رِزْقَكُمْ﴾. الرِّزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر، فيشمل معنيين:

الأول: أن المراد به رزق العلم، لأن الله قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٧٥-٨٢)، أى: تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحى أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثانى: أن المراد بالرزق المطر. وقد روى فى ذلك حديث عن النبى ﷺ لكنه ضعيف، إلا أنه صح عن ابن عباس ﷺ فى تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً.

والقاعدة فى التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح. ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد، لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها، فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذى به حياة

(١) حسن: أخرجه أحمد (٦٧٧) (٨٤٩) (٨٥٠) (١٠٨٧)، والترمذى (٣٢٩٥)، والبزار (٥٩٣)، والخرائطى فى «المساوئ» (٧٨٤)، والطبرى (٢٧/ ٢٠٧-٢٠٨)، من طريق عبد الأعلى بن عامر الثعلبى عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على به. وإسناده ضعيف، لضعف عبد الأعلى.

لكن يشهد له حديث ابن عباس بنحوه. أخرجه مسلم (٧٣) مرفوعًا، والطبرى (٢٧/ ٢٠٨) موقوفاً.

قال ابـن القيم -رحـمه الله-: أى تجعـلون حظكم من هذا الرزق الذى به حيـاتكم: التكذيب به، يعنـى القرآن، قـال الحـسن: تجعلون حظـكم ونصيـبكم من القـرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب.

الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذى به حيـاة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق، فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء، ونحو ذلك.

والثانى: التكذيب بلسان الحال، بأن يُعظم الأنواء والنجوم معتقداً أنها السبب، ولهذا وعظ عمر بن عبد العـزيز الناس يوماً، فقال: **«أيها الناس! إن كنتم مصـدقين، فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين، فأنتم هلكى»** وهذا صحـيح، فالذى يُصدق ولا يعـمل أحمق، والمكذب هالك، فكل إنسان عـاص نقول له: الآن أنت بين أمرين: إما أنـك مصدق بما رُتب على هذه المعصـية، أو مكذب، فإن كنت مصدقاً، فـأنت أحمق، كيف لا تخاف فتستقـيم؟! وإن كنت غير مصدق، فالبلاء أكبر، فأنت هالك كافر.

قوله فى حديث أبى مالك **«أربع فى أمتى»**. الفائدة من قوله: **«أربع»** ليس الحصر، لأن هناك أشياء تشاركها فى المعنى، وإنما يقول النبى ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعـها بالتقسيم والعدد، لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ. قوله: **«أمتى»** أى أمة الإجابة.

قوله: **«من أمر الجاهلية»**. أمر هنا بمعنى شأن، أى: من شأن الجـاهلية، وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر، لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: **«من أمر الجاهلية»**. إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير، لأن كل إنسان يقال: فعلُك فـعل الجاهلية لاشك أنه يغضب، إذ إنه لا أحـد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية، فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١- التنفيـر.

٢- بيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسـان، إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتنى بهـا، فالذى يعتنى بها جـاهل. والمراد بالجاهلية هنا: مـا قبل البعثـة، لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يُسمَّون بالأميين، والأمى هو الذى لا يقرأ ولا يكتـب، نسبة إلى الأم، كـأن أمه ولدته الآن. لكن لما بُعث فيـهم هذا النبى الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

....

....

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، فهذه منة عظيمة أن بُعث فيهم النبى عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١- يتلو عليهم آيات الله.

٢- ويزكيهم، فيطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.

٣- ويعلمهم الكتاب.

٤- والحكمة. هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بيّن الحال من قبل، فقال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، و ﴿إِن﴾ هذه ليست نافية، بل مُؤكِّدة، فهى مخففة من الثقيلة، يعنى: وإنهم كانوا من قبل لفى ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة، لأن الناس كانوا فيها على جهلٍ عظيم. فجهلهم شامل للجهل فى حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم يُنصبون النُّصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكى لا يُعيّر بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر.

قوله: «**لا يتركونهن**». المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثانى عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام فى قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعاً، إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شيء من ذلك، لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير، لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء تقع وليس غرضه أن يؤخذ بها، كما قال ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»، أى: فاحذروا، وأخبر ﷺ: «**أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله**»، أى: بلا محرم، وهذا خبر عن أمر واقع وليس إقراراً له شرعاً.

قوله: «الفخر بالأحساب». الفخر: التعالى والتعاظم، والباء للسببية، أى: يفخر بسبب الحسب الذى هو عليه.

والحَسَبُ: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بنى هاشم فيفتخر بذلك أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية لأن الفخر فى الحقيقة يكون بتقوى الله الذى يمنع الإنسان من التعالى والتعاظم، والمتقى حقيقة هو الذى كلما ازدادت نِعمُ الله عليه ازداد تواضعاً للحق وللخلق. وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية، فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، واعلم أن كل ما ينسب إلى الجاهلية، فهو مذموم ومنهى عنه.

قوله: «**الطعن في الأنساب**». الطَّعن: العيب، لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سُمي العيب طعناً.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور -وهي شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء-.

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**». أي: نسبة المطر إلى النجوم، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله -عز وجل- أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

قوله: «**والنياحة على الميت**». هذا هو الرابع: والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصداً، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النَّوح، كنوح الحمام. والنَّدب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولابد أن تكون في هذه الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية. إما من الجهل الذي هو ضد العلم. أو من الجهالة التي هي السَّفه، وهي ضد الحكمة. وإنما كانت كذلك لأمور، هي:

١- أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢- أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.

٣- أنها تُهيِّج أحزان غيره. وقد ذُكر عن ابن عقيل رحمه الله -وهو من علمائنا الحنابلة- أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٧٨)، فقال له ابن عقيل-رحمه الله-: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

٤- أنه مع هذه المفاسد لا يَرُدُّ القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**»، أي: إن تابت قبل الموت، تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه، لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات، فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: «**تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**». أي: تقام من قبرها. والسربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران معروف، ويسمى «الزفت»، وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: **«ودرع من جرب»**. الجرب: مرض معروف يكون في الجلد، يؤرق الإنسان وربما يقتل الحيوان، والمعنى: إن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء، لأن الجرب اى شيء يمسه يتأثر به، فكيف ومعه قطران؟! والحكمة أنها لما لم تُغَطِّ المصيبة بالصبر غُطيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب، فكانت العقوبة من جنس العمل.

ويستفاد من الحديث:

١- ثبوت رسالته ﷺ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر.

٢- التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣- أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليها في الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة، فهو من الكبائر.

٤- أن كبائر الذنوب لا تُكفَّر بالعمل الصالح، لقوله: **«إذا لم تتب قبل موتها»**.

٥- أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت لقوله: **«إذا لم تتب قبل موتها»** ولقوله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** ﴾ (النساء: ١٨).

٦- أن الشرك الأصغر لا يُخرج من الملة، فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لابد أن يعاقب، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: ١١٦)، فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضي الله عنه: **«لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»**.

لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذباً من كبائر الذنوب، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧- ثبوت الجزاء والبعث.

٨- أن الجزاء من جنس العمل.

وعن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَربعٌ فى أُمَّتى من أَمرِ الجَاهليَّة لاَ يتركُونَهُنَّ: الفَخرُ بالأحسَابِ،........................

قوله: (وعن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أَربَعٌ فى أُمَّتى مِن أَمرِ الجَاهليَّة لاَ يَتركُونَهُنَّ: الفَخرُ بالأحسَاب، وَالطَّعنُ فى الأنسَاب، وَالاستسقَاءُ بالنُّجُوم، والنياحَة»، وقال: «النَّائحَةُ إذَا لَم تَتُبْ قَبلَ مَوتِهَا تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ وَعَلَيهَا سِربَالٌ مِن قَطِرَانٍ، ودرعٌ مِن جَرَب»[1] رواه مسلم).

قوله: «أبو مالك» اسمه الحارث بن الحارث الشامى، صحابى تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفى الصحابة أبو مالك الأشعرى اثنان غير هذا.

قوله: «أربع من أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن» ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة، والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث، سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية، فقد خالفهم رسول الله ﷺ فى كثير من أمورهم أو أكثرها، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة، ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية، بلغ مائة وعشرين مسألة.[2]

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه، وهذا يقتضى أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم فى دين الإسلام، وإلا لم يكن فى إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ (الأحزاب:٣٣). فإن ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة.

قوله: «الفخر بالأحساب» أى: التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٤٣-٣٤٤)، ومسلم (٩٣٤)، وأبو يعلى (١٥٧٧)، وابن حبان (٣١٤٣)، والطبرانى (٣٤٢٦)، والبيهقى (٤/٦٣)، والبغوى (١٥٣٤).

وفى الباب حديث أبى هريرة، وابن عباس عند البخارى (٣٨٥٠).

(٢) كتاب «مسائل الجاهلية» طبع فى المطبعة السلفية، وهو نفيس جداً ككل كتب شيخ الإسلام التى تفيض علماً ونوراً، -رحمه الله-. (الفقي).

وَالطَّعنُ فِى الأنسَابِ وَالاستِسقَاءُ بِالنُّجُوم،..

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ (سبأ: ٣٧).

ولأبى داود عن أبى هريرة مرفوعاً: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى، أو فاجر شقى، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لَيَدَعَنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعلان**»[١].

قوله: «والطعن فى الأنساب» أى الوقوع فيها بالعيب والتنقص، ولما عَيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه[٢]، قال له النبى ﷺ: «**أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**»[٣] متفق عليه. فدل على أن الطعن فى الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شىء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه، قاله شيخ الإسلام -رحمه الله-.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم» أى: نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم، كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أخاف على أمتى ثلاثاً: استسقاء بالنجوم، وحَيْف السلطان، وتكذيباً بالقدر**»[٤].

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فلا يخلو: إما أن يعتقد أن له تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا شرك وكفر، وهو الذى يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً، أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذى بعث الله رسوله ﷺ بالنهى عنه وقتال من فعله، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩). والفتنة الشرك. وإما أن يقول: مطرنا

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٨٧٣٦) (٨٧٩٢) (١٠٧٨١)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذى (٣٩٥٦)، والبيهقى فى «الشعب» (٥١٢٦) (٥١٢٧)، وفى «الأدب» (٤٢٢)، و«السنن» (١٠/ ٢٣٢)، والطحاوى «مشكل» (٣٤٥٨)، والخطيب فى «تاريخه» (٦/ ١٨٨)، وحسنه الشيخ فى «صحيح الجامع» (١٧٨٧)، و«غاية المرام» (٣١٢)، وله شاهد من حديث ابن عباس؛ أخرجه أحمد (٢٧٣٩) وإسناده صحيح.

(٢) وإنما عيّره بسوادها فقط. فقال له: يا بن السوداء. فكيف بالناس اليوم وقد أطلقوا لأقلامهم وألسنتهم العنان؟!(الفقي).

(٣) أخرجه البخارى (٣٠) (٢٥٤٥)، وفى «الأدب» (١٨٩)، ومسلم (١٦٦١)، وأبو عوانة (٦٠٧١) (٦٠٧٢)، وأحمد (٥/ ١٦١).

(٤) سبق تخريجه.

والنيـاحــة».

وقال: «النَّائحَةُ إذَا لَم تَتُبْ قَبلَ موتِهَا، تُقَـامُ يومَ القِيَامَةِ وعَليهَا سِربَالٌ من قَطِرَانٍ، ودرعٌ مِن جَرَبٍ» رواه مسلم.

بنوء كذا مثلاً، لكن مع اعتقـاده أن المؤثر هو الله وحده، ولكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سـقوط ذلك النجم، والصـحيح أنه يحرم نسـبة ذلـك إلى النجم ولو على طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح فى «الفروع»: بأنه يحرم قول: «مُطرنا بنوء كذا»، وجزم فى «الإنصاف» بتـحريمه ولو على طريق المجـاز، ولم يذكر خلافـاً، وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعـالى الذى لا يقدر عليه غيره إلى خلق مـسخر، لا ينفع ولا يضر، ولا قدرة له على شيء، فيكون ذلك شركاً أصغر. والله أعلم.

قوله: «والنياحة» أى: رفع الصوت بالندب على الميت[1]، لأنها تَسخُّـط بقضاء الله، وذلك ينافى الصبر الواجب، وهى من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة.

قوله: «النائحة إذا لم تتب قـبل موتها» فيه تنبيـه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم، هذا مجمع عليه فى الجـملة، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية، والمصـائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبـعض، وبالشفاعة بإذن الله، وعـفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شـيئاً، وفى الحديث عن ابن عمـر مرفوعاً: **«إن الله تعالى يقـبل توبة العبد ما لم يُغَـرْغِرْ»**[2] رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبانٍ.

قوله: «تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» قال القرطبى: السربال واحـد السرابـيل، وهى الثيـاب والقُـمُصُ، يعنى أنهن يُلَـطّخن بالقطران، فـيكون لهن كالقـمص، حتى يكون اشتـعال النار بأجسـادهن أعظم، ورائحتهـن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد، وروى عن ابن عباس: إن القطران هو النحاس المذاب.[3]

---

(١) وضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية. (الفقي).

(٢) حسـن: أخرجه أحـمد (٦١٦٠) (٦٤٠٨)، والترمذى (٣٥٣٧)، وابن حبان (٦٢٨)، وابن الجـعد فى «مسنده» (٣٥٢٩)، وابن عـدى (٤/١٥٩٢)، والبيـهقى فى «الشـعب» (٧٠٦٤)، وابن مـاجه (٤٢٥٣)، وأبو نعـيم فى «الحلية» (٥/١٩٠)، والحاكم (٤/٢٥٧)، والبغوى (١٣٠٦). وله شواهد يتقوى بها.
وانظر: «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

(٣) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وغيره عند تفسير قوله تعالي: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾. (الفقي).

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ **صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هَل**

قال: (ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «**صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هَل تَدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قَالَ: أَصبَحَ من عبَادى مُؤمنٌ بى وكَافرٌ، فَأمَّا مَن قَالَ: مُطرنَا بفَضلِ الله ورَحمَته، فَذَلكَ مُؤمنٌ بى كَافرٌ بالكَوكَب، وأَمَّا مَن قال: مُطرنَا بنَوء كَذَا، وكَذَا، فَذَلكَ كَافرٌ بى مُؤمنٌ بالكَوكَب**»[1]). زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «صلى لنا رسول الله ﷺ» أي بنا، فاللام بمعنى الباء، قال الحافظ: وفيه إطلاق ذلك مجازاً، وإنما الصلاة لله.

قوله: «بالحديبية» بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل.[2]

قوله: «على إثر سماء كانت من الليل» بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور، وهو ما يعقب الشيء.

قوله: «سماء» أي: مطر، لأنه ينزل من السحاب، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

قوله: «فلما انصرف»، أي: من صلاته، أي: التفت إلى المأمومين، كما يدل عليه قوله: **«أقبل على الناس»**، ويحتمل أنه أراد السلام.

قوله: «هل تدرون» لفظ استفهام، ومعناه التنبيه، وفي النسائي: **«ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟»**، وهذا من الأحاديث القدسية، وفيه: إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم.

قوله في حديث زيد بن خالد: «**صلى لنا**». أي: إماماً، لأن الإمام يصلى لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب، وقيل: إن اللام للتعليل، أي: صلى لأجلنا.

---

(١) أخرجه البخارى (٨٤٦) (١٠٣٨) (٤٠٤٧) (٧٥٠٣)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٧٦١)، و«المجتبى» (٣/ ١٦٤)، و«عمل اليوم» (٩٢٥)، وعبد الرزاق (٢١٠٠٣)، ومالك (١/ ١٩٢)، والشافعى (١/ ١٥)، والحميدى (٨١٣)، وأبو عوانة (١/ ٢٦-٢٧)، والطبرانى (٥٢١٤) (٥٢١٥) (٥٢١٦)، وابن منده فى «الإيمان» (٥٠٤) (٥٠٥) (٥٠٦)، وأحمد (٤/ ١١٥)، والبيهقى (٣/ ٣٥٧)، والبغوى (١١٦٩).

(٢) قرية على حدود الحرم، وتسمى الآن الشميسي، وكان فيها صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ والمشركين سنة ست من الهجرة، وكان هذا الصلح الفتح المبين. (الفقي).

تَدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قَالَ: أَصبَحَ من عِبَادى مُؤمنٌ بى وَكَافرٌ. فَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِفَضلِ الله وَرَحمَتِه،...............................

قوله: «قالوا: الله ورسوله أعلم» فيه: حسن الأدب للمسؤل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه، وذلك يجب.[1]

قوله: «أصبح من عبادى» الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ (التغابن: ٢).

قوله: «مؤمن بى وكافر» إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا كفر، لأنه أشرك فى الربوبية، والمشرك كافر، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر، لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء، وينزله إذا شاء.

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز، وأيضاً الباء تحتمل معانى، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة، لما عرفت من أن هذا باطل، ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة، لأن المطر قد يجىء فى هذا الوقت وقد لا يجىء فيه، وإنما يجىء المطر فى الوقت الذى أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله، فكل معنى تحمل عليه الباء فى هذا اللفظ المنهى عنه فاسد، فيظهر على هذا: تحريم هذه اللفظة مطلقاً لفساد المعنى[1]، وقد تقدم القطع بتحريمه فى كلام صاحب «الفروع» و«الإنصاف».

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التفطن للإيمان فى هذا الموضع) يشير إلى أنه الإخلاص.

قوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته» فالفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات، كالحياة والعلم، وصفات الأفعال، كالرحمة التى يرحم بها عباده، كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف.

---

(١) وردهم هذا إنما كان يصح حينما كان الرسول ﷺ فى حياته الدنيا حاضر المجلس، فإن الواجب رد العلم إلى الله ثم إليه. وأما بعد أن مات وفارق هذه الدنيا، فلا ينبغى رد العلم إلا إلى الله وحده، فمن الخطأ استعمال الناس هذه الجملة الآن وقولهم: «الله ورسوله أعلم». (الفقي).

(١) وكذلك مثلها مما يستعمله الجاهلون، كقولهم: يا ربنا بمحمد وبينته، ونحو ذلك من ألفاظ فى توسلاتهم ودعواتهم الجاهلية. (الفقي).

فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِى كَافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمَّا مَن قالَ: مُطِرنا بِنَوءِ كَذا، وكَذا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِى مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ».

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: «قال بعضهم: لَقَد صدق نَوء كَذا، وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ....

وفى هذا الحديث: أن نِعَم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذى يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا» إلى آخره، تقدم ما يتعلق بذلك.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه: التفطن للكفر فى هذا الموضع). يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من كفر النعم، لعدم نسبتها إلى الذى أنعم بها، ونسبتها إلى غيره، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ (النحل: ٨٣).

قال القرطبى فى شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب، نسبة إلى إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور فى الحديث، فنهى الشارع عن إطلاق ذلك، لئلا يعتقد ولا يتشبه بهم فى نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد ـ يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٣). فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذى أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير، والقرطبى فى شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور.

قوله: (ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: «قال بعضهم: لَقَد صدق نَوء كَذا، وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾).

وبلفظه عن ابن عباس قال: «مُطر الناس على عهد النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [(١)]».

هذا قسم من الله عز وجل، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء، وجواب القسم ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ فتكون «لا» صلة لتأكيد النفى، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر، أو كهانة، بل هو قرآن كريم، قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد، فقيل: ﴿أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ قال ابن عباس: يعنى نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد[(٢)]، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية، ومواقعها: نزولها شيئاً بعد شيء[(٣)]، وقال مجاهد: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ مطالعها ومشارقها[(٤)]، واختاره ابن جرير، وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدهما- أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل، فتلك هداية فى الظلمات الحسية، والقران هداية فى الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما فى النجوم من الزينة الظاهرة، وفى القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين، وفى القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس، والنجوم وآياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول، ذكره ابن القيم رحمه الله.

قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم، لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويُصدقون كلامه، فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به، فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ (البقرة: ١٤٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣) فقط، والطبرانى (١٢٨٨٢). وفى الباب حديث أبى هريرة بنحوه؛ أخرجه أحمد (٨٧٣٩)، ومسلم (٧٢)، والنسائى (٣/ ١٦٤)، وفى «عمل اليوم» (٩٢٣)، والبيهقى (٣/ ٣٥٨)، وبنحوه عن أبى سعيد الخدرى عند أحمد (٣/ ٧)، وابن حبان (٦١٣٠).

(٢) الآية تدل على أنه ما زال فى الكتاب المكنون حتى كان ينزل به جبريل منجماً. فكان ينزل مباشرة إلى النبى ﷺ، ولا مفهوم لما قاله بعض المفسرين أنه نزل إلى السماء الدنيا مرة، ثم كان ينزل بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ منها. (الفقي).

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٥٢٤)، والطبرانى (١٢٤٢٦)، من طريق شريك عن حكيم بن جبير عن سعيد عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف جداً. حكيم بن جبير متروك.

(٤) **إسناده ضعيف:** أخرجه ابن جرير (٣٣٥٢٧)، وسنده ضعيف، وفيه انقطاع.

وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * ....

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال ابن كثير: أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم، ولو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه.

وقوله: «﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن، أى: إنه وحى الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر أو كهانة، أو شعر، بل هو قرآن كريم، أى: عظيم كثير الخير، لأنه كلام الله.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فوصفه بما يقتضى حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم، وهو من كل شئ أحسنه وأفضله، والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف «الكريم» بالحسن.

قال الأزهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

أجيب: إن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربى لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربى مبين.

الثانى: أن المؤمن يزداد يقيناً من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التى تزيد فى يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكأنه يقيم فى هذا المُقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عِظَم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به، لأنه لا يقسم إلا بشىء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التى أقسم بها تنويهاً له بها وتنبيهاً على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. الله -سبحانه- يتحدث عن نفسه بضمير المفرد، لأنه يدل على الانفراد والتوحيد، فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع، لأنه يدل على العظمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)،

فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * ....

وقوله: «﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾» أى: فى كتاب معظم محفوظ موقر، قاله ابن كثير.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: اختلف المفسرون فى هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة، وهو المذكور فى قوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٣ - ١٦). ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه.

قوله: «﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾» قال ابن عباس ﷺ: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: «الكتاب الذى فى السماء»[1]، وفى رواية: «لايمسه إلا المطهرون يعنى الملائكة»[2]، وقال قتادة: «لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما فى الدنيا فإنه يمسه المجوسى النجس والمنافق الرجس»[3]، واختار هذا القول كثيرون، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه، وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢). قال ابن كثير: هذا قول جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله، وقال البخارى رحمه الله تعالى فى «صحيحه» فى هذه الآية: «لا يجد طعمه إلا من آمن به».

قال ابن القيم رحمه الله: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقًا، وأنزله على رسوله وحياً، لا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ أى: من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، واحتجوا على ذلك بما رواه مالك فى «الموطأ» عن عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم: «إن فى الكتاب

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس: ١٢) الآية، ولا يتحدث عن نفسه بالمثنى، لأن المثنى محصور باثنين. والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع. واختلف فى النجوم، فقيل: إنها النجوم المعروفة، فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

---

(١) **إسناده ضعيف جداً**: أخرجه ابن جرير (٣٣٥٣٣)، من طريق حكيم بن جبير عن سعيد عن ابن عباس وحكيم متروك.

(٢) **سنده ضعيف جداً**: أخرجه ابن جرير (٣٣٥٣٧) وفيه ضعاف، وانقطاع.

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى «تفسيره» (٣١٤٨) بسند صحيح. وأخرجه ابن جرير (٣٣٥٤٨)، من طريق آخر عن معمر عن قتادة بسند صحيح. وأخرجه (٣٣٥٤٩) بسند ضعيف.

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

(الواقعة: ٧٥-٨٢).

الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: أن لا يمس القرآن إلا طاهر»[١،٢].

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن كثير: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذى لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع، وفى هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم رحمه الله: ونظيره ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ (السجدة: ١٣). وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (النحل: ١٠٢). هو إثبات علو الله تعالى على خلقه، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشئ من أعلى إلى أسفل، ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر: ٦). لأنا نقول: إن الذى أنزلها فوق سماواته، فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم رحمه الله: وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق له مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدى، ويدعهم هَمَلاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ قال مجاهد: أتريدون أن تمالؤوهم فيه، وتركنوا إليهم؟

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ثم وبخهم على وضعهم الادهان فى غير موضعه، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: ورواه أبو داود فى «المراسيل» من حديث الزهري. قال: قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إلخ. قال: ومثل هذا لا ينبغى الأخذ به. وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله ابن عمر وعثمان بن أبى العاص. وفى إسناد كل منهما نظر. وقال الحافظ فى «التلخيص الحبير»: وقد ضعف النووى وابن كثير فى «الإرشاد» وابن حزم حديث حكيم بن حزام وحديث عمرو بن حزم جميعاً. والضمير فى الآية يعود على الكتاب المكنون، فهى صريحة فى أنهم الملائكة. والمقصود بالآية ما قال ابن زيد - الرد على قريش زعمها أنه تنزلت به الشياطين، فليس فى الآية دليل ولا شبه دليل لمن لا يقول إن المصحف لا يمسه إلا طاهر. (الفقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق «تفسير» (٣١٤٩)، ومالك (ص ١٤١)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والدارقطنى (١/ ١٢٢)، والحاكم (١/ ٣٩٥)، والبيهقى (١/ ٨٧)، وجماعة، وقد خرجه وحققه أحسن تحقيق، ورجح تصحيحه علامة العصر الشيخ الألبانى -رحمه الله- فى «الإرواء» (١٢٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة. **الثانية:** ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر فى بعضها. **الرابعة:** أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة.

الخامسة: قوله: «أَصْبَحَ من عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان فى هذا الموضع. **السابعة:** التفطن للكفر فى هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا، وَكَذَا».

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟».

العاشرة: وعيد النائحة.

الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق؟ والمداهنة إنما تكون فى باطل قوى لا تمكن إزالته، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن به؟

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقدم الكلام عليها أول الباب، والله تعالى أعلم.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر» بسبب نزول النعمة. أى: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً، مثال ذلك: رجل غرق فى ماء، وكان عنده رجل قوى، فنزل وأنقذه، فإنه يجب على هذا الذى نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمراً قدرياً وأمراً شرعياً أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض، أما إن غرق ويسر الله له فخرج، فقال: إن الولى الفلانى أنقذنى، فهذا شرك أكبر، لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه، لأن اعتقاد أنه سبب وهو فى قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى، فيقعون فى الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون ثم قد يفتنون، فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به، لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم: لقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر: ١٤) وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأحقاف: ٥).

بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

قوله: (بـــاب

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾).

لما كانت محبته سبحانه هى أصل دين الإسلام الذى يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة .

قـوله تعـالى: « ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ ـ الآية». قال فـى «شرح المنازل»[1]: أخبـر تعالى أن من أحب من دون الله شيـئاً كمـا يحب الله تعالى فـهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهـذا ند فى المحبة لا فى الخلق والربوبيـة، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخـلاف ند المحبة، فإن أكثـر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً فى الحب والتعظيم. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفى تقدير الآية قولان: أحدهمـا ـ والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحـاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها ويعظمونها من دون الله.

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾. جعل المؤلف -رحمه الله- تعالى الآية هى الترجمة، ويمكن أن يُعنى بهذه الترجـمة باب المحبة. وأصل الأعمال كلها هو المحبة، فـالإنسان لا يعمل إلا لما يحب، إما لجلب منفعـة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شـيئاً، فلأنه يحبه إما لذاته كـالطعام، أو لغيره كالدواء. وعبادة الله مبنية على المحبـة، بل هى حقيقة العبادة، إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشراً لا روح فيها، فإذا كان الإنسان فى قلبه مـحبـة لله وللوصـول إلى جنته، فـسـوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك. ولهـذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة، وهى التى توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبـوب وتعظيمه ما يقـتضى أن يمتثل أمـره ويجتنب نهيه، وهذه خاصـة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة، فهو مشرك شركاً أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٦٩).

(١) مدارج السالكين أول الجزء الثالث من طبعة المنار. (الفقي).

....

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من الكفار لأوثانهم[1]، ثم روى عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركين أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله، والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم آلهتهم.[2] انتهى.

والثاني ـ والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فإن فيها قولين أيضاً: أحدهما ـ يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم، والثاني ـ أن المعنى: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يرجح القول الأول ويقول: إنما ذموا بأن شرّكوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له، وهذه

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة في ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله، أي: كون الشيء محبوباً لله تعالى من أشخاص: كالأنبياء، والرسل، والصديقين، والشهداء، والصالحين. أو أعمال: كالصلاة، والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك. وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله.

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء، والمرضى.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة، كمحبة الإنسان لوالده، ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن. وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح، إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة، فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة. وكذلك المحبة الطبيعية،

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤١٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٤١٨) بسند صحيح.

التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار، أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٩٧، ٩٨). ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية[1]، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١). به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١). وهذه تسمى آية المحبة.

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله تعال آية المحبة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة، ولهذا «حُبِّب للنبي ﷺ النساء والطيب» من هذه الدنيا، فحُبب إليه النساء، لأن ذلك مقتضى الطبيعة ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحبب إليه الطيب، لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر، ولأن الطيبات للطيبين، والله طيب لا يقبل إلا طيباً. فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة، قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». وقال العلماء: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد، وهذا أمر متفق عليه. وقد ذكر المؤلف -رحمه الله- في هذا الباب آيتين:

الأولى التي ترجم بها وهي قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾. ﴿مِنَ﴾ تبعيضية، هي ومجرورها خبر مقدم، و ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ مبتدأ مؤخر.

قوله: ﴿أَندَادًا﴾. جمع ند، وهو الشبيه والنظير.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. أي: في كيفيته ونوعه، فالنوع أن يحب غير الله محبة عبادة. والكيفية: أن يحبه كمحبة الله أو أشد، حتى إن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر مما

(١) في قرة العيون: وقد وقع الشرك في الربوبية أيضاً في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة، فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفاً في الكون ونحو ذلك. (الفقي).

....

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤).

ذكر لهم أربعَ علامات:

إحداها - أنهم أذلة على المؤمنين، قيل: معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم، فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على»، قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩).

العلامة الثالثة[1] - الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

يعظم الله ويغار له، فلو قيل: احلف بالله، لحلف، وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل: احلف بالند، لم يحلف، وهو كاذب، وهذا شرك أكبر. وقوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾. للمفسرين فيها قولان:

الأول: أنها على ظاهرها، وأنها مضافة إلى مفعولها، أي: يحبونهم كحبهم الله، والمعنى يحبون هذه الأنداد كمحبة الله، فيجعلونها شركاء لله في المحبة، لكن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله، وهذا هو الصواب.

الثاني: أن المعنى كحب الله الصادر من المؤمنين. أي: كحب المؤمنين لله، فيحبون هذه الأنداد كما يحب المؤمنون الله -عز وجل-، وهذا وإن احتمله اللفظ، لكن السياق يأباه، لأنه لو كان المعنى ذلك، لكان مناقضاً لقوله تعالى فيما بعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وكانت محبة المؤمنين لله أشد، لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك، فمحبة المؤمنين أشد من حب هؤلاء لله.

فإن قيل: قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد نظراً لقوله: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فما الجواب؟

أجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئين وأحدهما خال منه تماماً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٤)، مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٥٩) والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة، ولكنها من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

---

(١) لم يذكر الثانية. ولعله اكتفى بما في كلام عطاء من الإشارة إليها بقوله: «وعلى الكافرين...» إلخ. (الفقي).

العلامة الرابعة - أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة، وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (الإسراء: ٥٧). فذكر المقامات الثلاثة - الحب، وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء، والخوف - يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا فى قرب من يحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شئ، فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شئ، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يحب، فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته

مناسبة الآية لباب المحبة:

منع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله، لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة.

وهذا يوجد فى بعض العُبَّاد وبعض الخدم، فبعض العباد يُعظِّمون ويحبون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله، ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٦٧-٦٨).

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾. ﴿آبَاؤُكُمْ﴾. اسم كان، وباقى الآية مرفوع معطوف عليه، وخبر كان ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والخطاب فى قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ والمخاطب فى قوله: ﴿آبَاؤُكُمْ﴾ الأمة. والأمر فى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يراد به التهديد.

أى: انتظروا عقاب الله. ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله وجهاد فى سبيله. فدلت الآية على أن محبة هؤلاء -وإن كانت من غير محبة العبادة- إذا فُضلت على محبة الله صارت سبباً للعقوبة. ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده، فهو يحب أباه أكثر من ربه. وما فى القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد فى الجوارح، ولذا يروى عن الحسن رحمه الله أنه قال: **«ما أسرَّ أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه»**، فالجوارح مرآة القلب.

ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التى هم أحق بها وأهلها، وحسب ذى البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده. والله المستعان.

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: لا تُحَد المحبة بحدٍّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء، فحدها وجودها، ولا توصف بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، وأجمع ما قيل فى ذلك: ما ذكره أبو بكر الكتانى عن الجنيد، قال أبو بكر: «جرت مسألة فى المحبة بمكة -أعزها الله- فى أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقى، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شرابه من كأس مودته، وانكشف له الحياء من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو لله، وبالله، ومع الله، فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين».

فإن قيل: المحبة فى القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها. ولهذا يروى عن النبى ﷺ أنه قال: «**اللهم إن هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما لا أملك**». وكيف للإنسان أن يحب شيئاً وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكناً؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة. فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة، كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه. وقال عمر رضي الله عنه للنبى ﷺ: «**إنك لأحب إلىَّ من كل شيء إلا من نفسى**». قال النبى ﷺ: «**لا والذى نفسى بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى**» فقال النبى ﷺ: «**الآن يا عمر**» فقد ازدادت محبة عمر رضي الله عنه للنبى ﷺ. وأقره النبى ﷺ على أن الحب قد يتغير.

وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب، فتعود محبتك إياه.

وقـوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى قـوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٢٤).

وذكر رحمه الله تعالى: أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدها- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانية وما أريد به.

الثانى- التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث- دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع- إيثار محابه على محابِّك عند غلبات الهوى.

الخامس- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس- مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع- وهو أعجبها: انكسار القلب بين يديه.

الثامن- الخلوة وقت النزول الإلهى[1] وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع- مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

قوله: (قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾).

أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثرها، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التى يحبها الله تعالى ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك.

---

(١) وذلك إذا مضى ثلثا الليل كما فى حديث النزول. (الفقي).

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن وَلَدِه وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ**» أخرجاه.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: أى إن كانت هذه الأشياء ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا**﴾ أى: انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه، روى الإمام أحمد وأبو داود -واللفظ له- من حديث أبى عبد الرحمن الخراسانى، عن عطاء الخراسانى، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم**»[1].

فلابد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه، ويوالى فيه ويعادى فيه، ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم فى آية المحبة ونظائرها.

قوله: (عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن وَلَدِه وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ**»[2] أخرجاه). أى: البخارى ومسلم.

قوله: «**لا يؤمن أحدكم**» أى: الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن

قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه...».

يستفاد من هذا الحديث ما يلى:

١- وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة النفس.

٢- فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال، لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والدولابى فى «الكنى» (٢/ ٦٥)، وابن عدى فى «الكامل» (٥/ ١٩٩٨)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٥/ ٢٠٨)، والبيهقى (٥/ ٣١٦) من طريق حيوة بن شريح عن إسحاق أبى عبد الرحمن عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر به.
وأخرجه أحمد (٤٨٢٥)، وأبو يعلى (٥٦٥٩)، والطبرانى (١٣٥٨٣) (١٣٥٨٥)، والبيهقى فى «الشعب» (٤٢٢٤) (١٠٨٧١)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٣١٣) (٣/ ٣١٨)، من طرق عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر به، وأخرجه أحمد (٥٠٠٧) (٥٥٦٢)، من طريق أبى جناب: يحيى بن أبى حيّة عن شهر بن حوشب عن ابن عمر فذكره. وإسناده ضعيف لضعف يحيى بن أبى حيّة وشيخه، والحديث له طرق أخرى وشواهد، وصححه علامة العصر الشيخ الألبانى -رحمه الله- فى «الصحيحة» (١١)، و«صحيح الجامع» (٦٧٥).

(٢) أخرجه البخارى (١٥)، ومسلم (٤٤)، وعبد بن حميد (١١٧٥)، والدارمى (٢٧٤١)، والنسائى (٨/ ١١٤)، وأبو يعلى (٣٠٤٩) (٣٢٥٨) (٣٨٩٥)، وأحمد (٣/ ٢٠٧، ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٨)، وابن حبان (١٧٩)، وابن منده (٢٨٥) (٢٨٦)، والبيهقى فى «الشعب» (١٣٧٤) (١٣٧٥)، والبغوى (٢٢).

يكون الرسول أحب إليه من نفسه، كما في الحديث: «**أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي، فقال: والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: فإنك الآن أحبُّ إليّ من نفسي، فقال: الآن يا عمر**»[1] رواه البخاري.

فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تركه ويعرّض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ. قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب، كما قال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ (النور: ٤٧). فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كل مسلم يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق، لأن ذلك لايحصل إلا لخواص المؤمنين.

٣- أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته، لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ (الكوثر: ٣)، أي: مبغضك، قالوا: وكذلك من أبغض شريعته ﷺ، فهو مقطوع لا خير فيه.

٤- جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم، لقوله ﷺ: «**أحب إليه من ولده ووالده..**» فأثبت أصل المحبة، وهذا أمرٌ طبيعي لا ينكره أحد.

٥- وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس، لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدماً على كل أحد من الناس، حتى على نفسك، فمثلاً: أنت تقول شيئاً وتهواه وتفعله، فيأتي إليك رجل ويقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك، فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك، وتردّ على نفسك بقول الرسول ﷺ فتدع ما تهواه من أجل طاعة الرسول ﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس، ولهذا قال بعضهم:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه	هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إن المحب لمن يحب مطيع

---

(١) البخاري (٣٦٩٤) (٦٢٦٤) (٦٦٣٢)، وأحمد (٤/ ٢٣٣) (٥/ ٢٩٣)، وابن قانع (٥٢٨)، والحاكم (٣/ ٤٥٦)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة» (١/ ٣٤٥)، من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً، إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد، ولو شككوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، فهؤلاء إن عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب، وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. انتهى.

وفي هذا الحديث: أن الأعمال من الإيمان، لأن المحبة عمل القلب.

وفيه: أن محبة الرسول ﷺ واجبة، تابعة لمحبة الله، لازمة لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها، وكل من كان محباً لله فإنما يحب في الله ولأجله، كما يحب الإيمان والعمل الصالح، وهذه المحبة ليس فيها

إذاً يؤخذ من هذا الحديث: وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الاحزاب: ٣٦). لكن إذا وجدنا حديثاً يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفاً لقول أهل العلم وجمهور الأمة، فالواجب التثبت والتأني في الأمر، لأن اتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ. ولهذا إذا رأيت حديثاً يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي كالجبال في رسوها، فلا تتعجل في قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع في سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين، فإنه لا بأس أن يُخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة، فالمهم التثبت في الأمر، وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التي ظهرت أخيراً، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس، فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله، لكانت منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد، فإنه يعود محرماً، فإن هذا الحديث وإن كان ظاهر سنده الصحة، لكنه ضعيف وشاذ، ولهذا لم يُذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا، فالأمة على خلافه، فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولا نقول: إنها لا يمكن أن تكون صحيحة.

شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه فى حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه، وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله، لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة فى الله ولأجله، التى هى من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التى هى محبة الأنداد من دون الله، لما يتعلق فى قلوب المشركين من الإلهية التى لا تجوز إلا لله وحده.

قوله: (ولهما عنه ـ أي البخارى ومسلم عن أنس ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حَلاوَةَ الإيمَان، أن يَكُونَ الله ورَسُولُهُ أحَبَّ إلَيه ممَّا سواهُمَا وأَن يُحبَّ المرءَ لاَ يُحبُّهُ إلاَّ لله، وأَن يكرَهَ أَن يَعُودَ فى الكُفر بَعدَ إذ أَنقَذَهُ الله منهُ كَمَا يكرَهُ أَن يُقذَفَ فِى النَّار»**[1] وفى رواية: **«لاَ يجدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإيمَان حَتَّى يحب المرء لا يحبه إلا لله .... إلخ)**.

قوله: «ثلاث» أى: ثلاث خصال.

قوله: «من كنَّ فيه» أى: وجدت فيه تامة.

قوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان» الحلاوة هنا: هى التى يعبر عنها بالذوق، لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه، وهى شيء محسوس يجده أهل الإيمان فى قلوبهم.

قال السيوطى -رحمه الله- فى «التوشيح»: «وجد حلاوة الإيمان» فيه استعارة تخييلية، شبه رغبة المؤمن فى الإيمان بشئ حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء، وأضافه إليه.

مناسبة هذا الحديث للباب: مناسبة هذا الحديث ظاهرة، إذ محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين، فمحبة الله أولى وأعظم.

قوله فى حديث أنس الثانى: «ثلاث من كن فيه». أى: ثلاث خصال، و«كن» بمعنى وجدن فيه. وإعراب «ثلاث»: مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ... ما لم تفد ....

---

(1) أخرجه البخارى (16) (6941)، ومسلم (43)، والترمذى (2624)، وأبو يعلى (2813)، وابن حبان (238)، وابن منده فى «الإيمان» (281)، والبيهقى فى «الشعب» (405)، وأحمد (12002) (12122) (12765) (12783).

.وقال النووى: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ .

قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب فى الله: أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء.

قوله: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» يعنى بالسوى: ما يحبه الإنسان بطبعه، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوهما، فتكون «أحب» هنا على بابها.

وقال الخطابى: المراد بالمحبة هنا: حب الاختيار لا حب الطبع، كذا قال.

وأما المحبة الشركية التى قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله، وفى بعض الأحاديث: «**أحبوا الله بكل قلوبكم**»[1]، فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته عل ماسواه، ويسعى فى مرضاته ما استطاع، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه، كما قال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠). فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه فذلك عَلَم على عدم محبته لله ورسوله، فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه، ومن لا فلا، كما فى آية المحبة ونظائرها، والله المستعان.

الخصلة الأولى من الخصال الواردة فى الحديث:

قوله: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**». الرسول محمد ﷺ وكذا جميع الرسل تجب محبتهم.

قوله: «**أحبَّ إليه مما سواهما**». أى: أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولده ووالده وزوجه وكل شىء سواهما، **فإن** قيل: لماذا جاء الحديث بالواو «**الله ورسوله**» وجاء الخبر لهما جميعاً «**أحب إليه مما سواهما**»؟.

فالجواب: لأن محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولهذا جُعل قوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ركناً واحداً، لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التى جاءت عن طريق النبى ﷺ .

---

(١) **مرسل إسناده حسن**: أخرجه ابن إسحاق فى «السيرة» (٢/ ١٠٨) معلقاً أو بلاغاً، ووصله البيهقى فى «الدلائل» (٢/ ٥٢٤-٥٢٥) من طريق ابن إسحاق حدثنى المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن. فذكره، وهو مرسل إسناده حسن فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر النبى ﷺ **أن هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان**، لأن وجود الحلاوة للشئ يتبع المحبة له، فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى، قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريغها، ودفع ضدها، فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قلت: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه، والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولابد.

الخصلة الثانية:

قوله: «وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله».

قوله: «وأن يحب المرء» يشمل الرجل والمرأة.

قوله: «لا يحبه إلا لله»: اللام للتعليل، أى: من أجل الله، لأنه قائم بطاعة الله -عز وجل-.

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا، ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع، ويحب من أحسن إليه، لكن إذا أحببت هذا المرء لله، فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

الخصلة الثالثة:

قوله: «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».

هذه الصورة فى كافر أسلم، فهو يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف فى النار، وإنما ذكر هذه الصورة، لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً، فربما يرجع إليه، بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً. فمن كره العَود فى الكفر كما يكره القذف فى النار، فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

قوله: «وفى رواية: لا يجد أحد حلاوة الإيمان». أتى المؤلف بهذه الرواية، لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم.

قوله فى أثر ابن عباس رضي الله عنهما: **«من أحب فى الله»**. (مَن) : شرطية، وفعل الشرط (أحب)،

وأن يُحبَّ المرءَ لاَ يُحبُّهُ إلاَّ لله، وأن يكرهَ أن يعُودَ في الكفرِ بعدَ إذ أنقذَهُ اللهُ منهُ

ومن لوازم محبة الله أيضاً: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده، فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان، كما فى حديث ابن عباس الآتى.

قال: وتفريغها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، قال: ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف فى النار.

قوله: «أحب إليه مما سواهما» فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ وفيه قولان:

أحدهما. أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية، وأمر بالإفراد فى حديث الخطيب[1] إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل بإلزام الغواية، إذ العطف فى تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين فى الحكم.

الثانى. حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى، وهذا على الجواز.

وجواب ثالث: هو أن هذا ورد على أصل، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح.

وجوابه جملة: **«فإنما تنال ولاية الله بذلك»**. و **«فى»**: يحتمل أن تكون للظرفية، لأن الأصل فيها الظرفية، ويحتمل أن تكون للسببية، لأن **«فى»** تأتى أحياناً للسببية، كما فى قوله ﷺ: **«دخلت امرأة النار فى هرة»** أى: بسبب هرة. وقوله: **«فى الله»**. أى: من أجله، إذا قلنا: إن (فى) للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية، فالمعنى: من أحب فى ذات الله، أى: فى دينه وشرعه لا لعرض الدنيا. قوله: **«وأبغض فى الله»**. البُغض الكُره، أى: أبغض فى ذات الله فإذا رأى من يعصى الله كرهه. وفرق بين **«فى»** التى للسببية و **«فى»** التى للظرفية، فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله، والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو فى ذات الله -عز وجل-، فيبغض من أبغضه الله، ويحب من أحبه.

---

(١) وذلك ما رواه مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عدى بن حاتم: **«أن خطيباً خطب عند النبى ﷺ فقال: من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال له ﷺ: بئس الخطيب أنت. قل: من يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى»**.

قال النووي: سبب الإنكار عليه أن الخطبة شأنها البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز. قال ولهذا ثبت أن رسول الله كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم عنه، قال وإنما ثنى الضمير فى قوله: **«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»** لأنه ليس خطبة وإنما هو تعليم حكم، فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف الخطبة. اهـ.

أقول: ولعلها حادثة حال لها ظروفها التى اقتضت أن يقول رسول الله ﷺ ذلك، والله أعلم. (الفقي).

كَمَا يكرهُ أن يُقذَفَ في النَّار».

وفى رواية: «لاَ يجدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإيمَان حَتَّى... » إلى آخره.

وعن ابن عباس قال: «مَنَ أَحَبَّ فِي الله...

قوله: «كما يكره أن يقذف فى النار» أى: يستوى عنده الأمران، وفيه: رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً، وإن تاب منه.

والصواب: أنه إن لم يكن يتب كان نقصاً، وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار ﷺ أفضل هذه الأمة مع كونهم فى الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الإسلام، والإسلام يمحو ما قبله وكذلك الهجرة، كما صح الحديث بذلك.

قوله: «وفى رواية: لا يجد أحد»[١] هذا الرواية أخرجها البخارى فى الأدب من صحيحه، ولفظها: **«لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**. وقد تقدم أن الحلاوة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال والهيبة ولوازم ذلك، قال الشاعر:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة ... عليَّ، ولكن ملء عين حبيبها

قوله: (وعن ابن عباس قال: **«مَنَ أَحَبَّ فِي الله، وَ أَبغَضَ فِي الله، وَوَالَى فِي الله، وَعَادَى فِي الله، فَإِنَّمَا تَنَالَ وَلاَيَةَ الله بذَلكَ، وَلَن يَجدَ عَبدٌ طَعمَ الإيمَان، وَإن كَثُرَت صَلاَتُهُ وَصَومُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلكَ، وَقَد صَارَت عَامَّةُ مُؤَاخَاةَ النَّاسِ عَلَى أَمرِ الدُّنيَا، وَذَلكَ لاَ يُجدى عَلَى أهله شَيئاً»**[٢] رواه ابن جرير). وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم الجملة الأولى منه فقط.

قوله: «من أحب فى الله» أى: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

---

(١) هى برقم (٦٠٤١)، وراجع التخريج السابق.

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن المبارك فى «الزهد» (٣٥٣)، وابن أبى شيبة (١٣/٣٦٨)، من طريق سفيان عن الليث عن مجاهد عن ابن عباس فذكره وإسناده ضعيف، الليث بن أبى سُليم مجمع على ضعفه. وربما اضطرب فيه، فرواه الطبرانى فى «الكبير» (١٣٥٣٧)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/٣١٢)، من طريق أبى نعيم عن سفيان عن الليث عن مجاهد عن ابن عمر فذكره فمرة يرويه سفيان عن الليث، فجعله من حديث ابن عمر، ومرة من حديث ابن عباس، وربما سمعه مجاهد مرتين عن ابن عمر، وابن عباس لكن الليث لا يجعل هذا الاحتمال قائمًا لسوء حفظه واضطرابه. لكن الجزء الأول منه له شواهد يصح بها فراجع الحديث رقم (٣٨٠) من السلسلة الصحيحة للشيخ الألبانى. وشاهد من قول كعب. أخرجه هناد فى «الزهد» (٤٦٨)، ووكيع (٣٣٥) فى الزهد، وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/٣١) بسند صحيح عنه.

وَأَبْغَضَ فِى اللهِ وَوَالَى فِى اللهِ، وَعَادَى فِى اللهِ، فَإِنَّمَا تَنَالُ وَلَايَةَ اللهِ بِذَلِكَ، ....

قوله: «وأبغض فى الله» أى: أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه، كما قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية (المجادلة: ٢٢).

قوله: «ووالى فى الله» هذا والذى قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى، فمن أحب الله تعالى أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه، ونصر أنصاره، وكلما قويت محبة العبد لله فى قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكاملها يكمل توحيد العبد، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه، فمقلّ ومستكثر ومحروم.

قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك» أى: توليه لعبده، و«ولاية» بفتح الواو لا غير، أى: الأخوة[1] والمحبة، والنصرة، وبالكسر الإمارة، والمراد هنا الأول.

قوله: «بذلك». الباء للسببية، والمشار إليه الحب فى الله والبغض فيه، والموالاة فيه والمعاداة فيه. وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنى المرفوع، لأن ترتيب الجزاء على العمل لا يكون إلا بتوقيف، إلا أن الأثر ضعيف. فمعنى الحديث: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يوالى أعداء الله، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يواليهم ويحبهم؟! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله، فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءً بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءً ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أتُحبّ أعداء الحبيب وتَدَّعى ... حُبـاً له ما ذاك فى إمكان

وقال الإمام أحمد رحمه الله: **«إذا رأيت النصرانى أغمض عينى، كراهة أن أرى بعينى عدو الله»**.

هذا الذى يجد طعم الإيمان، أما -والعياذ بالله- الذى يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضى ومقبول عند الله بعد بعثة النبى ﷺ فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، ولكثرة اليهود والنصارى والوثنيين صار فى هذه المسألة خطر على المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر، ولا يدرى أن غير المسلم عدو لله -عز وجل-، بل هو عدو له أيضاً، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (الممتحنة: ١).

---

(١) لعل كلمة «الأخوة» زائدة أو مبدلة عن كلمة أخرى تناسب المقام. (الفقي).

ولن يجد عبدٌ طعمَ الإيمانِ، ....

ولأحمد والطبرانى عن النبى ﷺ قال: «**لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله، فقد استحق الولاية لله**»[1]، وفى حديث آخر «**أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله عز وجل**»[2] رواه الطبرانى.

قوله: «ولن يجد عبد طعم الإيمان» إلى آخره، أى: لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره **«وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك»**، أى: حتى يحب فى الله، ويبغض فى الله، ويعادى فى الله، ويوالى فيه.

فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (المائدة: ٥١). فالآن أصبحنا فى محنة وخطر عظيم، لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم ويحبوهم، ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم، فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً**»، وقال: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»، وقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»، وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر على الناس ويختلط أولياء الله بأعدائه.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٠) من طريق رشدين بن سعد عن عبد الله بن الوليد عن أبى منصور مولى الأنصار عن عمرو بن الجموح مرفوعًا بلفظ: «لا يحقّ العبدُ حقّ صريح الإيمان» الحديث. وإسناده ضعيف جداً. رشدين ضعيف، وأبو منصور لم يلق عمرو بن الجموح ففيه انقطاع.

(٢) **حسن**: أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١٥٣٧) من طريق حنش عن عكرمة عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ لأبى ذر: «أى عرى الإيمان أوثق؟» فذكره. وإسناده ضعيف، لضعف حنش الرحبى.

وله شاهد من حديث ابن مسعود؛ أخرجه الطيالسى (٣٧٨)، والطبرانى (١٠٥٣١)، وفى «الأوسط» (٤٤٧٦)، وفى «الصغير» (٦٢٤)، والحاكم (٢/ ٤٨٠)، وابن عبد البر فى «التمهيد» (١٧/ ٤٣٠)، وبنحوه الطبرانى فى «الكبير» (١٠٣٥٧).

وشاهد آخر من حديث البراء بن عازب قال: كنا جلوساً عند النبى ﷺ فقال: «أى عُرى الإسلام أوثق؟» قالوا: الصلاة، قال: «حسنةٌ وما هى بها»، قالوا: الزكاة - الحديث وفيه: «إن أوثق عُرى الإيمان...» فذكره. أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦)، والطيالسى (٧٤٧)، والبيهقى فى «الشعب» (١٤)، وابن عبد البر فى «التمهيد» (١٧/ ٤٣١)، من طريق الليث بن أبى سُليم عن عمرو بن مُرة عن معاوية بن سويد عن البراء به. وإسناده ضعيف، لضعف الليث بن أبى سليم.

وشاهد ثالث من حديث أبى ذر؛ أخرجه أحمد (٥/ ١٤٦)، من طريق يزيد بن عطاء عن يزيد بن زياد عن مجاهد عن رجل عن أبى ذر به. وإسناده ضعيف: يزيد بن عطاء وشيخه ضعيفان، وإبهام الرجل.

وأخرجه أبو داود (٤٥٩٩)، من طريق خالد بن عبد الله الطحان عن يزيد بن زياد بهذا الإسناد.

وشاهد رابع من حديث معاذ الجهنى؛ أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٧)، والطبرانى (٢٠) (٤٢٦) من طريق رشدين بن سعد عن زبّان بن فائدة عن سهل عن أبيه عن معاذ به. ورشدين وشيخه ضعيفان.

والحديث بهذه الشواهد يتقوى ويصبح حسنًا أو صحيحاً وراجع الصحيحة (١٧٢٧)، وصحيح الجامع (٢٥٣٩).

وَإِن كَثُرَت صَلاَتُهُ وَصَومُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلكَ، وَقَد صَارَت عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمرِ الدُّنيَا، وَذَلكَ لاَ يُجدِي عَلَى أَهله شَيئاً» رواه ابن جرير.

وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً: **«من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»**[1] رواه أبو داود.

قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» أي: لا ينفعهم بل يضرهم، كما قال تعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ (الزخرف:٦٧). فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان، وقد وقع ما أخبر به ﷺ بقوله: **«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»**[2،3]. وقد كان الصحابة ﷺ من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم ﷺ وعهد أبي بكر وعمر ﷺ يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة في الله وتقرباً إليه، كما قال تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ (الحشر:٩).

قوله: **«وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»**.

قوله: **«عامة»**. أي: أغلبية.

وقوله: **«مؤاخاة الناس»**. أي: مودتهم ومصاحبتهم. أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس، وهو بعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه، فما بالك بالناس اليوم؟ فقد صارت مؤاخاة الناس -إلا النادر- على أمر الدنيا، بل صار أعظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (الأنفال:٢٧)، ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ (الأنفال:٢٨).

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني (٧٧٣٧)، وصححه الشيخ في «الصحيحة» (٣٨٠) و«صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٧٨٤)، والترمذي (٢٦٢٩)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، والدارمي (٢/ ٣١١)، والطحاوي «مشكل» (١/ ٢٩٧)، والطبراني (١٠٠٨١)، وأبو يعلى (٤٩٧٥)، والشاشي (٧٢٩)، والبيهقي في «الزهد» (٢٠٦) من حديث ابن مسعود، وهو صحيح.
وأخرجه مسلم (١٤٦) عن ابن عمر، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٨٧)، والطحاوي (١/ ٢٩٨) عن أنس، وأخرجه الترمذي (٢٦٣٠) عن عمرو بن عوف، وأخرجه أحمد (١٦٠٤)، وأبو يعلى (٧٥٦) عن سعد بن أبي وقاص، وأخرجه أحمد (٤/ ٧٣-٧٤) عن عبد الرحمن بن سنة، وفي الباب أحاديث أخرى.

(٣) رواه مسلم (١٤٦)، وابن ماجه عن أبي هريرة. والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود. وقد شرحه الحافظ ابن رجب شرحاً نفيساً سماه «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» طبع مراراً. (الفقي).

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (البقرة:١٦٦). قال: المودة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد رأيتُنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحدٌ يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم»(١) رواه ابن ماجه.

قوله: (وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال: «المودة»). هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه.(٢)

قوله: «قال: «المودّة»» أى: التى كانت بينهم فى الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٥).

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما: أن لله تعالى أولياء، وهو ثابت بنص القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة:٢٥٧)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة:٥٥)، فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦٢-٦٣). قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً»، والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة. والولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة:٢٥٧)، ومن الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة:٥٦). والولاية التى من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هى الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق، فالله هو الذى يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام: ٦٢).

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٥٥٦٢) من طريق أبى جناب يحيى بن أبى حيّة عن شهر بن حوشب عن ابن عمر فذكره. وإسناده ضعيف لضعف يحيى بن أبى حية وشيخه.

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٢٤٣١)، وابن أبى حاتم (١٤٩٢)، والحاكم (٢/ ٢٧٢) من طريق عيسى عن قيس بن سعد عن عطاء عن ابن عباس به. وعيسى قال عنه ابن أبى حاتم هو ابن ميمون، وقال الحاكم: هو عيسى بن أبى عيسى، وأظنه هو أبو جعفر الرازى وهو سيئ الحفظ ومما يدل على أنه هو أن ابن جرير رواه (٢٤٢٨)، من طريق عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فذكره.

والراوى فى الإسنادين عن عيسى هو أبو عاصم، فلعل عيسى من سوء حفظه رواه مرة عن مجاهد، وأخرى عن ابن عباس، وربما يكون قد سمعه مرة من قيس ومرة من ابن أبى نجيح وهذا بعيد، والله أعلم.

وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبى.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

الرابعة: أن نفى الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

قال العلامة ابن القيم فى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الآيتين (البقرة: ١٦٦، ١٦٧): فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى، وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكين غير طريقهم، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرأون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله، وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء، يوالى لهم، ويعادى لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله، وقطع تلك الأسباب، فينقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودّة كانت لغير الله، ولايبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها: من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسول الله ﷺ تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره، فضلا عن تقديم قول غيره عليه، فهذا السبب هو الذى لا ينقطع بصاحبه، وهذه هى النسبة بين العبد وربه، وهى نسبة العبودية المحضة، وهى آخيته التى يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة:٢٥٧)، وقال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٢-٦٣).

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التى لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابى للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانية[1] أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣). فهذه هى الأعمال التى كانت فى الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباء منثوراً، لا ينتفع منها صاحبها بشئ أصلاً، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه ضائعاً، وقد سعد أهل السعى النافع بسعيهم. انتهى ملخصاً.

---

(١) هى الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن. (الفقي).

بـــاب (*)

قول الله تـعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥).

قوله: (بـــاب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾).

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨). وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠). وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦). وقال تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (النحل: ٥١). وقال تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٤٤). وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام: **أحدها-** خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم

مناسبة الباب لما قبله: أن المؤلف -رحمه الله- أعقب بباب المحبة باب الخوف، لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف. فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهى، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس. فلو سألت من لا يزنى لماذا؟ لقال: خوفاً من الله. ولو سألت الذى يصلى، لقال: طمعاً فى ثواب الله ومحبة له. وكل منهما ملازم للآخر، فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته. وهل الأفضل للإنسان أن يُغلِّب جانب الخوف أو يُغلب جانب الرجاء؟ اختلف فى ذلك: فقيل: ينبغى أن يغلب جانب الخوف، ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة. وقيل: يغلب جانب الرجاء، ليكون متفائلاً، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل.

وقيل فى فعل الطاعة: يغلب جانب الرجاء، فالذى منَّ عليه بفعل هذه الطاعة سيَمنُّ عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء، فانتظر الإجابة، لأن الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، وفى فعل المعصية يغلب جانب الخوف، لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب. وهذا أقرب شيء، ولكن ليس بذاك القرب الكامل، لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، أى:

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٠).

قالوا له: ﴿إن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ (هود: ٥٤، ٥٥). وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (الزمر: ٣٦). وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني - أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفاً من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول هذه الآية، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٣-١٧٥).

وفي الحديث: «إن الله يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذا رأيت المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: رب خشية الناس، فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى»[١، ٢].

يخافون أن لا يقبل منهم، لكن قد يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى، كقوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربه: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني».

وقيل: في حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف، فهذه أربعة أقوال.

وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيهما غلب هلك صاحبه، أي: يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط.

وخوف الله تعالى درجات، فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من يفرط، ومنهم من يعتدل في خوفه. والخوف العدل هو الذي يَرُدّ عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا، فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله. ومن الناس من يفرط في خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه.

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (١١٢١٤)، والحميدي (٧٣٩)، وعبد بن حميد (٩٧٤)، وابن ماجه (٤٠١٧)، وأبو يعلى (١٠٨٩) (١٣٤٤)، وابن حبان (٧٣٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٧٤) (٧٥٧٥)، وحسنه الشيخ في «الصحيحة» (٩٢٩).

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد بلفظ: «لا يحقر أحدكم نفسه، قالوا يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا: كذا وكذا؟ فيقول: خشيت الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى» ذكره ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآيات. (الفقي).

الثالث. الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك، فهذا لا يذم، كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ...﴾ الآية (القصص: ٢١).

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾. أي: يخوفكم أولياءه ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله، فلا يخافون إلا إياه، وهذا هو الإخلاص الذى أمر الله به عباده ورضيه منهم، فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ الآية (الزمر: ٣٦).

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه، قال قتادة: يعظمهم في صدوركم، فكلما قوى إيمان العبد

والخوف أقسام: الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر. وهذا لا يصلح إلا لله -سبحانه- فمن أشرك فيه مع الله غيره، فهو مشرك شركاً أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم، كما يفعله بعض عُبَّاد القبور: يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله.

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلِّي، فهذا في الأصل مباح، لقوله تعالى عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وقوله عنه أيضاً: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ لكن إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم، فهو محرم، وإن استلزم شيئاً مباحاً كان مباحاً، فمثلاً من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف على ترك صلاة الجماعة مع وجوبها، فهذا الخوف محرم، والواجب عليه أن لا يتأثر به. وإن هدده إنسان علي فعل محرم، فخافه وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به، فهذا خوف محرم لأنه يؤدى إلى فعل محرم بلا عذر، وإن رأى ناراً ثم هرب منها ونجا بنفسه، فهذا خوف مباح، وقد يكون واجباً إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه. وهناك ما يسمى بالوهم وليس بخوف، مثل أن يرى ظل شجرة تهتز، فيظن أن هذا عدو يتهدده فهذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك، بل يطارد هذه الأوهام، لأنه لا حقيقة لها، وإذا لم تطاردها، فإنها تُهلكك.

مناسبة الخوف للتوحيد: أن من أقسام الخوف ما يكون شركاً منافياً للتوحيد.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨).

زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم، فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ - الآية (التوبة: ١٨)).

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين، لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (النور: ٣٩). أو ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم: ١٨). وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذى معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل فى مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغى أن يخشى فى ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

وقال ابن القيم رحمه الله: الخوف عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «يقول: إن أولئك هم المهتدون، وكل «عسى» فى القرآن فهى واجبة»[(١)، (٢)].

---

(١) **إسناده فيه انقطاع:** أخرجه ابن جرير (١٦٥٦٩)، من طريق معاوية عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس به مطولاً وفيه محل الشاهد. وعلى بن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير: قال ابن عباس: «كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهى الشفاعة. وقال محمد بن إسحاق بن يسار: «وعسى» في القرآن من الله حق». (الفقي).

ساقطة من الأصل



قوله: (وعن أبى سعيد ﷺ مرفوعاً: «**إِنَّ من ضَعف اليقين، أَن تُرضِيَ النَّاسَ بِسَخَط الله، وأن تحمَدَهُم على رزق الله، وأَن تَذُمَّهُم عَلَى مَالَم يُؤتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزقَ الله لاَ يَجُرُّهُ حِرصُ حريص، ولاَ يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**»[١]).

هذا الحديث رواه أبو نعيم فى «الحلية»، والبيهقى، وأعله بمحمد بن مروان السدى، وقال: ضعيف، وفيه أيضاً عطية العوفى، ذكره الذهبى فى «الضعفاء والمتروكين»، ومعنى الحديث صحيح، وتمامه: «وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط».

قوله: «**إن من ضعف اليقين**» الضعف يضم ويحرك، ضد القوة، ضَعُف ككرم ونصر، ضعفاً، وضعفه، وضعافية، فهو ضعيف، وضعوف، وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعَفَى وضعافى، أو الضَّعف - بالفتح - فى الرأى، وبالضم فى البدن، فهى ضعيفة وضعوف، و «اليقين» كمال الإيمان، قال ابن مسعود: «**اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان**» رواه أبو نعيم فى «الحلية»، والبيهقى فى «الزهد» من حديثه مرفوعاً[٢]، قال: ويدخل فى ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق، كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً: «**فإن استطعت أن تعمل بالرضى فى اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**»[٣]، وفى رواية: «**قلت: يا رسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»[٤].

---

(١) **إسناده ضعيف جداً**: أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٥/ ١٠٦)، والبيهقى فى «الشعب» (٢٠٣) وإسناده فيه مجاهيل وضعفاء.

(٢) **إسناده ضعيف واهٍ**: أخرجه البيهقى فى «الزهد» (٩٨٤)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٥/ ٣٤)، والخطيب فى «تاريخه» (١٣/ ٢٢٦)، واللالكائى فى «السنة»، وابن الجوزى فى «العلل» (٢/ ٨١٥ رقم ١٣٦٤)، عن ابن مسعود مرفوعًا.
وردّه العراقى فى «الإحياء» (١/ ٧٢)، والحافظ فى «الفتح» (١/ ٤٨)، وقال: لا يثبت رفعه.
وقال فى «لسان الميزان» (٥/ ١٥٢)، بعد أن ساقه إليه بالسند قال: حديث منكر لا أصل له من حديث زبيد ولا من حديث الثورى. وقد صح موقوفًا.
قال الحافظ: والموقوف علقه البخارى فى «كتاب الإيمان» أسنده الطبرانى فى «الكبير» (٨٥٤٤) بسند صحيح.
قلت: وقد رواه موقوفًا الحاكم (٢/ ٤٤٦)، ووكيع فى «الزهد» (٢٠٣)، والبيهقى فى «الزهد» (٩٨٥)، وفى «الشعب» (٤٧)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى، والعراقى أيضاً والحافظ فى «الفتح» (١/ ٤٨)، وفى «تغليق التعليق».

(٣) **إسناده ضعيف جداً**: أخرجه الحاكم (٣/ ٥٤١) وفيه راوٍ متروك، مع ما فيه من انقطاع. وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٣١٤) من طريق آخر أشد ضعفًا.

(٤) **إسناده ضعيف**: أخرجه الآجرى فى «الشريعة» (٤١٢) من طريق الوليد بن عبد الملك حدثنا محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم عن أبى عبد السلام الشامى عن يزيد بن أبى حبيب عن حنش الصنعانى عن ابن عباس مرفوعًا: «**يا غلام احفظ الله يحفظك**» الحديث وفيه الزيادة المذكورة. والحديث صحيح فقد تابع عبد السلام الشامى وهو مجهول عليه غير واحد، لكنه تفرد بهذه الزيادة، ولم أجدها فى رواية غيره فيما أعلم. لكن أصل الحديث (صحيح) فله طرق وشواهد راجعها فى جامع العلوم والحكم (ص ١٧٤).

أَن تُرضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَن تَحمَدَهُم عَلَى رِزقِ اللهِ، وَأَن تَذُمَّهُم عَلَى مَالَم يُؤتِكَ اللهُ،...

قوله: «أن ترضى الناس بسخط الله» أى: تؤثر رضاهم على رضى الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذى يتصرف فى القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل فى نوع من الشرك، لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافى كماله، ومعرفة توحيده فى ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق.

قوله: «وأن تحمدهم على زرق الله» أى: على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، فإن المتفضل فى الحقيقة هو الله وحده الذى قدره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمراً قيَّض له أسباباً، ولا ينافى هذا حديث: **«من لا يشكر الناس لا يشكر الله»**(1، 2)، لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم، لكون الله ساقه على أيديهم، فتدعو لهم أو تكافئهم، لحديث: **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**(3، 4)، فإضافة الصيغة إليهم لكونهم صاوروا سبباً فى إيصال المعروف إليك، والذى قدره وساقه هو الله وحده.

قوله: «وأن تذمهم على مالم يؤتك الله» لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدره لك لساقته المقادير إليك، فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطيالسى (٢٤٩١)، والبخارى فى «الأدب المفرد» (٢١٨)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذى (١٩٥٤)، وابن حبان (٣٤٠٧)، وأحمد (٧٥٠٤) (٧٩٣٩) (٨٠١٩) (٩٠٣٤) (٩٩٤٤)، وأبو الشيخ فى «الأمثال» (١١٠)، وأبو نعيم (٨/ ٣٨٩)، والقضاعى (٨٢٩)، والبيهقى (٦/ ١٨٢)، وفى «الشعب» (٩١١٧)، والبغوى (٣٦١٠) عن أبى هريرة. وله شواهد من حديث أبى سعيد، والنعمان بن بشير، والأشعث بن قيس.

(٢) رواه أبو داد والترمذي -وقال: حسن صحيح- وابن حبان عن أبي هريرة ﷺ. (الفقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه الطيالسى (١٨٩٥)، والبخارى فى «الأدب» (٢١٦)، وأبو داود (٥١٠٩)، والنسائى (٥/ ٨٢)، و«الكبرى» (٢٣٤٨)، وأحمد (٥٣٦٥) (٥٧٠٣) (٥٧٤٣) (٦١٠٦)، والحاكم (١/ ٤١٢)، وأبو نعيم (٩/ ٥٦)، والقضاعى (٤٢١)، والبيهقى (٤/ ١٩٩)، وابن حبان (٣٤٠٨)، عن ابن عمر بلفظ: **«من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن آتى إليكم معروفًا فكافئوه»** الحديث.

(٤) رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح. كذا في «كشف الخفاء» (الفقي).

إنَّ رزقَ الله لاَ يَجرُّهُ حرصُ حريص، ولاَ يردُّهُ كراهيةُ كارهٍ» .

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال:..

الذى يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقاً على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه فى أمر دينه ودنياه، وقد قرر النبى هذا المعنى بقوله فى الحديث: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»،كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر: ٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك"، إما ميل إلى ما فى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم، وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر فى ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، فإذا ذممتهم على مالم يقدّر كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم، ولما قال بعض وفد بنى تميم: أى محمد أعطنى، فإن حمدى زَيْن وَذَمِّى شَيْن. قال النبى ﷺ: «ذاك الله»[1]. ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

قوله: (وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن التَمَسَ رضَى الله بسَخط النَّاس رضي الله عنه وأَرضَى عَنهُ النَّاسَ، وَمَن التمَسَ رضَى النَّاسِ بسَخط الله سَخطَ اللهُ عَلَيهِ وَأَسخطَ عَلَيهِ النَّاسَ»[2]. رواه ابن حبان فى «صحيحه»).

(١) صحيح : أخرجه الترمذى (٣٢٦٧)، والنسائى فى «الكبرى» (١١٥١٥)، وابن جرير (٢٦/ ١٢١)، وأبى نعيم فى «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٩٦) من حديث البراء بن عازب.
وله شاهد من حديث الأقرع بن حابس بنحوه؛ أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٨)، والطبرانى (٨٧٨)، وأبو نعيم فى «المعرفة» (١٠٣٣)، وابن الأثير فى «الأسد» (١/ ١٣٠) وفيه انقطاع. وصحح الحديث الشيخ الألبانى -رحمه الله- فى «صحيح الترمذى» (٢٦٠٥).

(٢) صحيح : أخرجه ابن المبارك فى «الزهد» (١٩٩)، ومن طريقه الترمذى (٢٤١٤)، والقضاعى فى «مسند الشهاب» (٤٩٩) (٥٠٠)، وابن حبان (٢٧٦) (٢٧٧)، والبغوى (٤٢١٣)، وعبد بن حميد (١٥٢٤)، عنها مرفوعًا.
وأخرجه أحمد فى «الزهد» (ص ١٦٤)، وابن المبارك (٢٠٠)، والحميدى (٢٦٦) من طرق عنها موقوفًا.
وقد صحح المرفوع الشيخ فى «الصحيحة» (٢٣١١)، و«صحيح الجامع» (٦٠١٠).

«مَن التَمَسَ رِضَى الله بِسَخطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَأَرضَى عَنهُ النَّاسَ، وَمَن التمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخطِ الله سَخِطَ اللهُ عَلَيهِ وَأَسخَطَ عَلَيهِ النَّاسَ». رواه ابن حبان فى «صحيحه».

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذى عن رجل من أهل المدينة قال: «كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه، ولا تكثرى علىَّ، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: سلام الله عليك، أما بعد: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكَلَه الله إلى الناس، والسلام عليك» رواه أبو نعيم فى الحلية.

قوله: «من التمس» أى: طلب.

قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروى أنها رفعته: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً»، وهذا من أعظم الفقه فى الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبده ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢، ٣). والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب.

وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا

مناسبة الحديث للترجمة: قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله»، أى: خوفاً منهم حتى يرضوا عنه، فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى.

فيستفاد من الحديث ما يلى:

١- وجوب طلب ما يرضى الله وإن سخط الناس، لأن الله هو الذى ينفع ويضر.

٢- أنه لا يجوز أن يلتمس ما يُسخِط الله من أجل إرضاء الناس كائناً من كان.

٣- إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل، فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يليق بالله، وهذا خطأ، لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق، فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:

فالمنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله -عز وجل- كغضب المخلوقين.

ساقط من الأصل



بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية (المائدة: ٢٣).

قـولـه: (بـاب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾).

قال أبو السعادات: يقال: توكل بالأمر، إذا ضمن القيام به، ووكلت أمرى إلى فلان، إذا اعتمدت عليه، ووكّل فـلان فلاناً، إذا استكفاه أمره ثقة بكفايتـه، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه. اهـ.

وأراد المصنف رحمه الله بهـذه الترجمة بالآية: بيان أن التوكل فـريضة يجب إخلاصه لله تعالى، فإن تقديم المعـمول يفيد الحصر، أى: وعلى الله فتوكلوا لا علـى غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها، لما ينشأ عنه من الأعـمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل من سواه، صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى، فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه

مناسبة هذا الباب لما قبله:

هى أن الإنسان إذا أفرد الله -سبحانه- بالتوكل، فإنه يعتمد عليه فى حصول مطلوبه وزوال مكروهه، ولا يعتمد على غيره. والتوكل: هو الاعتماد على الله -سبحانه وتعالى- فى حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثـقة به وفعل الأسـبـاب المأذون فيـها، وهذا أقـرب تعريف له، ولابد من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً.

الثانى: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب، نقص توكله على الله، ويكون قادحاً فى كفاية الله، فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيـما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه. ومن جعل اعتـماده على الله ملغياً للأسـباب، فقد طعن فى حكمـة الله، لأن الله جعل لكل شىء سبباً، فمن اعتمد على الله اعتـماداً مجرداً، كان قادحاً فى حكمة الله، لأن الله حكيم، يربط الأسباب بمُسَبَّباتها، كـمن يعتمد على الله فى حصول الولد وهو لا يتزوج. والنبى ﷺ أعظم المتوكلين، ومـع ذلك كان يأخذ بالأسـباب، فكان يأخذ الزاد فـى السفر، ولما خـرج إلى أُحُد ظاهر بين درعين، أى: لبس درعين اثنين، ولما خرج مـهاجراً أخذ من يدله الطريق، ولم يقل

(*) انظر «القول السـديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧١).

الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله، كما فى الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤). وقوله: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (المزمل: ٩). والآيات فى الأمر به كثيرة جداً، قال الإمام أحمد رحمه الله: «التوكل عمل القلب».

وقال ابن القيم فى معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على الله شرطاً فى الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفى الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤). فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولابد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.

سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله، ولن أصطحب معى من يدلنى الطريق، وكان ﷺ يتقى الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله. ويذكر عن عمر رضي الله عنه أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجىء بهم إلى عمر، فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله. فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون. والتوكل نصف الدين، ولهذا نقول فى صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، فنطلب من الله العون اعتماداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته. وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣)، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨). ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل، لأن الإنسان لو وُكل إلى نفسه وُكل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة، فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه فى أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد فى الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك، فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نُوفَّق إلى حصول المقصود كما هو الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها، أو عوارض توجب نقصها.

....

. قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).

قال الشارح رحمه الله تعالى: قلت: لكن التوكل على الله قسمان:

احدهما. التوكل فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت فى رجاء مطلوبهم، من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثانى. التوكل فى الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر. والوكالة الجائزة: هى توكيل الإنسان فى فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه فى حصول ما وُكل فيه، بل يتوكل على الله فى تيسير أمره الذى يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التى يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المُسبِّب الذى أوجد السبب والمُسبَّب.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر، فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً، مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله فهو مشرك شركاً أكبر، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً فى الكون، فيعتمد عليهم فى جلب المنافع ودفع المضار.

الثانى: الاعتماد على شخص فى رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفى، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته فى حصول رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار، فتجد فى نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فُوِّض إليه التصرف فيه، كما لو وكَّلت شخصاً فى بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه، لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه، لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكَّل النبى ﷺ على بن أبى طالب أن يذبح ما بقى من هديه، ووكل أبا هريرة على الصدقة، ووكل عروة بن الجعد أن يشترى له أضحية، وهذا بخلاف القسم الثانى، لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المُتوكَّل عليه اعتماد افتقار. ومما سبق يتبين أن

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية (الأنفال: ٢).

قال: (وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآيات).

قال ابن عباس في الآية: «المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، و لا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبرهم الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه»[١،٢] رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وَوَجَلُ القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، قال السدي: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يَهمّ بمعصية، فيقال له: اتق الله، اتق الله، فَيَجِل قلبه[٣]. رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.[٤]

التوكل من أعلى المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له في جميع شؤونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية»، لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه. وكذلك القدرية، لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد. ومن ثَمَّ نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين. وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أربع آيات، أولها ما جعله ترجمة للباب، وهي:

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ وتقديم المعمول يدل على الحصر، أي: على الله لا على غيره. ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ أي: اعتمدوا. والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة، لأن في الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين، فتكون لتحسين اللفظ، كقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ والتقدير: «بل الله اعبد».

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن جرير (١٥٦٩٦)، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وعلي لم يسمع منه.

(٢) تمامه عند ابن جرير ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقاً. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره». (الفقي).

(٣) عند ابن جرير: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية، أحسبه قال: فينزع عنه. (الفقي).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥٧٠٢) بسند فيه انقطاع.

وأخرجه ابن المبارك في «زيادات الزهد» (١٣٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٣) بسند رجاله ثقات.

وله شاهد من كلام مجاهد بنحوه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أخرجه الطبري (٢٧/ ١٤٥)، وابن المبارك في «الزوائد» (١٣٦)، والبيهقي (٧٢٥) بسند صحيح إليه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٤).

قوله: «﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾» استدل الصحابة ﷺ والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي: «إن الإيمان يزيد وينقص»، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: «إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا، فذلك نقصانه»[1] رواه ابن سعد.

وقال مجاهد: «الإيمان يزيد وينقص، وهو قول وعمل» رواه ابن أبي حاتم.[2]

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قوله: « ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ » أي: يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده لا شريك له. وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة، مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها، وأدى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

قال: (وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾) قال ابن القيم -رحمه الله-: أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم -رحمه الله-: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٨١) من طريق حماد عن أبي جعفر الخطمي عن أبيه عن جده عمير بن حبيب به.

وإسناده رجاله ثقات خلا يزيد بن عمير والد عمير بن يزيد - أبو جعفر فلم أعثر له على ترجمة.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٩) وإسناده ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣).

يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٢). ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣). ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (التوبة: ٥٩). فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: ٨). فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. انتهى.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وَكَلَهُ الله إلى من التفت إليه، كما في الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه»[1].

قال: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾).

قال ابن القيم رحمه الله وغيره: أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لابد منه، كالحر والبرد، والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء، وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه. قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافيَ عبدَه المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومَن فيهن، لجعلَ الله له مخرجاً، وكفاه رزقه ونصره. انتهى.

وفي أثر رواه أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه قال: «قال الله عز وجل في بعض

---

(١) سبق تخريجه.

وعن ابن عباس قال: « ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، ....

كتبه: بعزتى، إنه من اعتصم بى فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن، فإنى أجعل له من ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بى، فإنى أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله فى الهواء ثم أكِلُه إلى نفسه، كفى بى لعبدى مآلاً، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أن يسألنى، وأستجيب له قبل أن يدعونى، فأنا أعلم بحاجته التى ترفق به منه».[1]

وفى الآية: دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار، لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه، لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْباً له.

وفيها: تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، لأنه تعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة:١١). فجعل التوكل مع التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغى للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لا يتم المقصود إلا بها كلها، ذكره ابن القيم بمعناه.

قال: **(وعن ابن عباس قال: « ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**»[2] رواه البخارى والنسائى).

قوله: «﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾» أى: كافينا، فلا نتوكل إلا عليه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر:٣٦). قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أى: نعم الموكول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨). ومخصوص «نعم» محذوف تقديره «هو».

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٢٥-٢٦).

(٢) أخرجه البخارى (٤٥٦٣) (٤٥٦٤)، والنسائى «كبرى» (١١٠٨١).

وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» رواه البخاري والنسائي.

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض. **الثانية:** أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال. **الرابعة:** تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عِظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد.

قال ابن القيم رحمه الله: هو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُؤَمِّن خوف الخائف، ويُجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع.

قوله: «قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار» قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨- ٧٠).

قوله: «وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أُحُد، بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكَرَّة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، فرجع إلى مكة بمن معه، ومرّ به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: فهل أنتم مبلغون محمداً عني رسالة؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال لهم أبو سفيان، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل». ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام في الشدائد، وجاء في الحديث: «**إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**»[1].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن مردويه، عن أبي هريرة، انظر: «ضعيف الجامع» (٨٢٩).

بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩).

قوله: (باب

قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾)

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافى كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بيّن أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٧-٩٩).

أى: الهالكون، وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنِّعَم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً.

هذا الباب اشتمل على موضوعين:

الأول: الأمن من مكر الله. **والثانى:** القنوط من رحمة الله. وكلاهما طرفا نقيض.

واستدل المؤلف للأول بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ الضمير يعود على أهل القرى، لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٧-٩٩).

فقوله: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم فى بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يدل أيضاً على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق، لأنه لو كان عندهم ضيق فى العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا فى الضحى -فى رابعة النهار- يلعبون. والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون وفى رغد، ومقيمون على معاصى الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم غافلون عن ذكر خالقهم، فهم فى الليل نَوْم، وفى النهار لعب، فبين الله -عز وجل- أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال:

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٢).

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦).

قال الحسن رحمه الله: «من وسَّع الله عليه فلم يَرَ أنه يمكر به فلا رأى له».

وقال قتادة: «بَغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم، فلا تغتروا بالله».

وفى الحديث: «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»[1] رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم.

وقال إسماعيل بن رافع: «من الأمن من مكر الله: إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة» رواه ابن أبى حاتم. وهذا هو تفسير المكر فى قول بعض السلف: «يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملى لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر» وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه.

قال: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾)

القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم، وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التى قبلها تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفاً راجياً، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته، ويرجو رحمته، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزمر: ٩). وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٨). فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فالذى يَمُنُّ الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو فى الحقيقة خاسر. فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عرى، فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر، لأن هذا من مكر الله بك.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، وفى «الزهد» (ص ١٢)، والطبرى (٧/ ١٩٥)، والدولابى فى «الكنى» (١/ ١١١)، والطبرانى «أوسط» (٩٢٦٨)، وابن أبى الدنيا فى «الشكر» (٣٢)، وابن عبد الحكم فى «فتوح مصر» (ص ٢٩٣)، والبيهقى فى «الأسماء» (ص ٤٨٨)، و«الشعب» (٤٥٤٠) عن عقبة بن عامر. وصححه الشيخ فى «الصحيحة» (٤١٤)، و«صحيح الجامع» (٥٦١).

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سُئلَ عَن الكَبَائر فقال: «**الشِّرْكُ بِالله، وَاليَأْسُ مِن رَوْحِ الله**،...

الشيطان، ليوقع العبد فى المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله تعالى وهرباً من عقابه، وطمعاً فى المغفرة، ورجاء لثوابه.

والمعنى: أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام، لما بشَّرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿**قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ**﴾ (الحجر: ٥٤). لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منهما، والله على كل شئ قدير، فقالت الملائكة: ﴿**بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ (الحجر: ٥٥). الذى لا ريب فيه، فإن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ**﴾ أى: من الآيسين، فقال عليه السلام: ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**﴾ (الحجر: ٥٦). فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه -والله أعلم- قال ذلك على وجه التعجب.

قوله: ﴿**إِلَّا الضَّالُّونَ**﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون، كقوله: ﴿**إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ (يوسف: ٨٧).

قوله: (وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سُئلَ عَن الكَبَائر فقال: «**الشِّرْكُ بِالله، وَاليَأْسُ مِن رَوْحِ الله، وَالأَمْنُ مِن مَكرِ الله**»[١]).

هذا الحديث رواه البزار وابن أبى حاتم من طريق شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس، ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر، فقال ابن معين: ثقة، ولَيَّنه أبو حاتم، وقال ابن كثير: فى إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً.

قوله: «**الشرك بالله**» هو أكبر الكبائر، قال ابن القيم رحمه الله: الشرك بالله هضمٌ للربوبية، وتَنَقُّصٌ للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى. ولقد صدق ونصح.

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ (الأنعام: ١). وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (لقمان: ١٣). ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: «**واليأس من روح الله**» أى: قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

(١) **حسن**: أخرجه البزار كشف (١٠٦)، وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» (٢٠٥١)، و«صحيح الجامع» (٤٦٠٣).

وَالأَمنُ من مكرِ الله».

وعن ابن مسعود قال: **«أكبرُ الكبَائر: الإشراكُ بالله، وَالأَمنُ مِن مكرِ الله، وَالقُنوطُ مِن رَحمَةِ الله، وَ اليَأسُ مِن رَوحِ الله»** رواه عبد الرزاق.

قوله: «والأمنُ من مكر الله» أى: من استدراجـه للعبد، وسلبه مـا أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك، وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حَصْرَ الكبائر الثـلاثة، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبـائر المذكورة فى الكتاب والسنة، وضابطهـا: ما قاله المحقـقون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بـنار أو لعنة أو غضب أو عذاب، زاد شيخ الإسلام ابن تيمـية رحمه الله: أو نفى الإيمان.

قلت: ومن برئ منه رسول الله ﷺ، أو قال: «ليس منا من فعل كذا وكذا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: **«هى إلى سبعمائة أقرب مـنها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»**.[١]

قوله: (وعن ابن مسعود قال: **«أكبرُ الكبَائر: الإشراكُ بالله، وَالأَمنُ مِن مكرِ الله، وَ القُنوطُ مِن رَحمَةِ الله، وَ اليَأسُ مِن رَوحِ الله»**[٢] رواه عبد الرزاق).

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قوله: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله» أى: فى ربوبيته أو عبادته، وهذا بالإجماع.

قوله: «والقنوط من رحمة الله» قال أبو السعادات: هو أشد اليأس.

وفيه: التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه عبد الرزاق (١٩٧٠١)، وعنه الطبرانى (٨٧٨٤)، والطبرى (٥/ ٤٠)، من طريق معمر عن أبى إسحاق عن وبرة عن عامر عن أبى الطفيل عن ابن مسعود موقوفاً.
وإسناده رجاله ثقات، ولكنى أخشى تدليس أبى إسحاق فقد عنعن.
قال الهيثمى فى «المجمع» (١/ ١٠٤): وإسناده صحيح.
قلت: وقد توبع فصح السند.
أخرجه الطبرانى (٨٧٨٣) من طريق مسعر عن وبرة عن عبد الملك بن ميسرة عن أبى الطفيل به.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد فى القنوط.

وكان السلف يستحبون أن يقوى فى الصحة الخوف، وفى المرض الرجاء، وهذه طريقة أبى سليمان الدارانى وغيره، قال: وينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك:١٢). وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور:٣٧). وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠، ٦١). وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ..﴾ الآية (الزمر:٩). قدم الحذر على الرجاء فى هذه الآية.

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله (*)

قوله: (باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله)

قال الإمام أحمد: ذكر الله تعالى الصبر فى تسعين موضعاً من كتابه. وفى الحديث الصحيح: **«الصبر ضياء»**[1] رواه أحمد ومسلم، وللبخارى ومسلم مرفوعاً: **«ما أُعْطِىَ أحد عطاء خيراً وأوسع مِن الصبر»**[2]، قال عمر ﷺ: **«وجدنا خير عيشنا بالصبر»**[3] رواه البخارى.

«الصبر»: فى اللغة: الحَبْس، ومنه قولهم: «قتل صبراً» أى: محبوساً مأسوراً.

وفى الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء، وهو ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ (الإنسان: ٢٣-٢٤)، وهذا من الصبر على الأوامر، لأنه إنما نزل عليه القرآن ليُبلِّغَه، فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: ٢٨)، وهذا صبر على طاعة الله.

الثانى: الصبر عن معصية الله، كصبر يوسف -عليه السلام- عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها فى مكانة لها فيها العزة والقوة والسلطان عليه، ومع ذلك صبر وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣)، فهذا صبر عن معصية الله.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٣).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٢-٣٤٣)، ومسلم (٢٢٣)، والترمذى (٣٥١٧)، والدارمى (٦٥٣)، والنسائى «عمل» (١٦٨)، والطبرانى (٣٤٢٣)، والمروزى فى «تعظيم قدر الصلاة» (٤٣٥) (٤٣٦)، واللالكائى «شرح السنة» (١٦١٩)، والبيهقى (١/ ٤٢)، من حديث أبى مالك الأشعرى وأوله «الطهور شطر الإيمان».

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٩٧)، وعنه البخارى (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، وأبو داود (١٦٤٤)، والترمذى (٢٠٢٤)، والنسائى (٥/ ٩٥-٩٦)، والدارمى (١/ ٣٨٧)، وابن أبى الدنيا «مكارم الأخلاق» (٤٠٣)، وابن حبان (٣٤٠٠)، والبيهقى فى «الشعب» (٣٥٠٣)، وأحمد (٣/ ٩٣)، والبغوى (١٦١٣)، من حديث أبى سعيد.

(٣) أخرجه البخارى معلقاً (١١/ ٣٠٣) مجزومًا به، ووصله أحمد فى «الزهد» (ص ١٤٦)، وأبو نعيم من طريق أبى معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال: قال عمر فذكره وسنده صحيح، وأخرجه ابن المبارك فى «الزهد» (٢٢٢)، ووكيع فى «الزهد» (١٩٨)، عن سفيان عن منصور عن مجاهد، وأخرجه ابن أبى الدنيا فى «الصبر» (٦) من طريق الليث عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن أبيه عن عمر بنحوه.
وإسناده فيه انقطاع، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه.
وأخرجه الحاكم من رواية مجاهد عن سعيد بن المسيب عن عمر، وإسناده صحيح.
وأخرجه أبو نعيم فى «أخبار أصبهان» (٢/ ١٩٥) عن الليث عن عمرو بن الحارث عن عمر، وفيه انقطاع.
وقد ذكر الحافظ رواية أحمد وقال: «بسند صحيح».

قال على رضي الله عنه: **«إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ـ ثم رفع صوته ـ فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له»**[1].

الثالث: الصبر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ (الإنسان: ٢٤)، فيدخل فى هذه الآية حكم الله القدرى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: **«مرها، فلتصبر ولتحتسب»**. إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا، فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فُتن الإنسان مثلاً بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها فى مكان خال لا يطّلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة، فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلى الإنسان مئة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة، فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جداً، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذى يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر، إذ بعض المعاصى يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق، فنقول: نحن نذكر المراتب، من حيث هى بقطع النظر عن الصابر. وكان الصبر على الطاعة أعلى، لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلى، والصوم فتصوم، والحج

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبى الدنيا فى «الصبر» (٨) من طريق عمر بن على بن عطاء عن السّرى بن إسماعيل عن الشعبى عن مسروق عن على به.

وإسناده ضعيف جداً. السرى بن إسماعيل متروك الحديث فاصل وأخرجه ابن أبى شيبة فى «الإيمان» (١٣٠) والبيهقى فى «الشعب» (٤٠)، من طريق عمرو بن قيس عن أبى إسحاق قال: قال على فذكره.

وإسناده فيه انقطاع، أبو إسحاق السبيعى مدلس ولم يسمع من على.

وأخرجه وكيع فى «الزهد» (١٩٩) من طريق رجل يقال له عمر، عن محمد بن على قال على: ... وإسناده ضعيف وفيه انقطاع.

وأخرجه أبو نعيم (١/ ٧٥-٧٦) عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن عكرمة بن خالد عن على.

ووقع فيه خلاف، فرواه ابن عبد البر فى «جامع العلم» (١/١٠٨)، والبيهقى فى «الشعب» من طريق معمر عن الحكم بن أبان عن على وفيه انقطاع وضعف واضطراب.

وبالجملة فلم أجد سندًا صحيحاً قريباً من ذلك لهذا الأثر والله أعلم.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١).

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع، والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما، ذكره ابن القيم -رحمه الله-.

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدّره من المصائب.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾).

وأول الآية: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وإرادته وحكمته، كما قال في الآية الآخرى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢). وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧).

فتحج... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية لأن فيه كفاً فقط، أي: إلزاماً للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار، فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلاً ولا تركاً، وإنما هو من قدر الله المحض.

وخص المؤلف -رحمه الله- في هذا الباب الصبر على أقدار الله، لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية، لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: «**على أقدار الله**»: جمع قَدَر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدِّر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المقدر، فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور، فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا. مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به، لأنه من تمام الرضا بالله رباً. وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة، فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح. والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة، فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور، أما من حيث كونها قدر الله، فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فَلِذاكَ نَرضَى بالقضاءِ ونَسْخَطُ ... المَقْضِيَّ حينَ يكونُ بالعصيانِ

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم».

قوله: «﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾» قال ابن عباس فى قوله: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ «إلا بأمر **الله**» يعنى عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى: من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه.

قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضا.

قوله: (قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»). هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.[1]

وعلقمة: هو ابن قيس بن عبد الله النخعى الكوفى، ولد فى حياة النبى ﷺ، وسمع من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم ﷺ، وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين.

قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة ـ الخ» هذا الأثر رواه الأعمش عن أبى ظبيان، قال: «كنا عند علقمة فقرئ عليه هذه الآية ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ قال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم» هذا سياق ابن جرير.

وفى هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان، قال سعيد بن جبير ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعنى: يسترجع، يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفى الآية: بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب، وأنها من ثواب الصابرين.

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية، فعليه الرضا لأن الله هو الذى قدر هذا، وله الحكمة فى تقديره، وإذا نظر إلى فعله، فلا يجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن جرير بأسانيد بعضها صحيح (٣٤١٩٤) (٣٤١٩٥) (٣٤١٩٦) (٣٤١٩٧).

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**اثْنَتَان فِى النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفرٌ: الطَّعنُ فِى النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيتِ**».

قوله: (وفى صحيح مسلم، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**اثْنَتَان فِى النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفرٌ: الطَّعنُ فِى النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيتِ**»[1]).

أى: هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى، ورزقه علماً وإيماناً يستضئ به، ولكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً كالكفر المطلق، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق، وفرق بين الكفر المعرف باللام ـ كما فى قوله: «**ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة**»[2،3] ـ وبين كفر مُنكّر فى الإثبات.

قوله: «**الطعن فى النسب**» أى: عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: «**والنياحة على الميت**» أى: رفع الصوت بالندب، وتعداد فضائل الميت، لما فيه من

قوله: «**النياحة على الميت**»: أى: أن يبكى الإنسان على الميت بكاء على صفة نَوْح الحمام، لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هى الشاهد للباب، والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدى إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج: ١١)، وقد يكون باللسان، كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح، كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانى: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨٩٠) (٩٦٩٠) (١٠٤٣٤)، ومسلم (٩٧)، والترمذى (١٠٠١)، وابن منده فى «الإيمان» (٦٦٠)، والبيهقى (١٠/٢٤٦)، وفى «الشعب» (٦٦٧٣) من حديث أبى هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٩٧٩)، وابن أبى شيبة (١١/٣٤)، ومسلم (٨٢)، وعبد بن حميد (١٠٣٢)، والترمذى (٢٦١٨) (٢٦١٩)، والمروزى فى «تعظيم قدر الصلاة» (٨٨٦) (٨٨٩) (٨٩٢)، وأبو يعلى (١٩٥٣) (٢١٠٢) (٢١٩١)، والطحاوى «مشكل» (٣١٧٥)، وابن حبان (١٤٥٣)، والطبرانى «صغير» (٧٩٩)، والبيهقى (٣/٣٦٦) من حديث جابر بن عبد الله.

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن جابر بن عبد الله بألفاظ متقاربة. (الفقي).

ولهمـا عن ابن مسعود مـرفوعاً: «لَيسَ مِنَّا مَن ضَـرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُـيُوبَ، وَدَعَا بِدَعوى الجَاهلِيَّةِ».

التسخط على القدر المنافى للصبر، كـقول النائحة: وا عضداه، وا ناصراه، ونحو ذلك. وفيه: دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

قوله: (ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «لَيسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعَوى الجَاهلِيَّةِ»[1]).

هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيـان الثورى وأحمد كراهية تأويلها، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ فى الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافى كمال الإيمان الواجب.

قوله: «من ضرب الخدود» وقال الحافظ: خُص الخد لكونه الغـالب، وإلا فضربْ بقية الوجه مثله.

قوله: «وشق الجيوب» هو الذى يدخل فـيه الرأس من الثوب، وذلـك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هو ندب الميت. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال ابن القيم رحمه الله: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالى عليه ويعادى، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

الصَّـبرُ مِـثلُ اسـمـه مُـرٌّ مَـذَاقَـتُـهُ   لكـنْ عـواقـبُـهُ أحلـى منَ العَـسَلِ

فيـرى الإنسان أن هذا الشيء ثقـيل عليه ويكرهه، لكنه يتـحمله ويتصـبر، وليس وقـوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالـنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة، لأنه رجل يسبح فى القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جـبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها، فالكل

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٥٨) (٤١١١) (٤٢١٥) (٣٤٦١) (٤٤٣٠)، والبخارى (١٢٩٤) (١٢٩٧) (١٢٩٨) (٣٥١٩)، ومسلم (١٠٣)، والترمذى (٩٩٩)، والنسائى (٤/ ٢٠-٢١)، و«الكبرى» (١٩٨٩)، وابن مـاجه (١٥٨٤)، وابن الجارود (٥١٦)، وأبو يعلى (٥٢٥٢)، وابن حـبان (٣١٤٩)، والدولابى (٢/ ١٤٩)، والطحاوى (٢/ ١٣٤)، والشاشى (٣٨٤)، وأبو نعيم (٥/ ٣٩)، والبيهقى (٤/ ٦٣-٦٤)، وفى «الشعب» (١٠١٥٦).

....

وعن ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة: **«أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور»**[(١)].

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يعفى عن الشئ اليسير من ذلك إذا كان صدقاً، وليس على وجه النوح والتسخط، نص عليه أحمد رحمه الله، لما وقع لأبى بكر وفاطمة رضي الله عنهما لما توفى رسول الله ﷺ.

وليس فى هذه الأحاديث ما يدل على النهى عن البكاء، لما فى الصحيح أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: **«تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»**[(٢،٣)]. وفى «الصحيحين» عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: **«أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته**[(٤)] **ولها صبى فى الموت، فرُفع إليه ونفسه تَقَعْقَع كأنها شَنّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**[(٥)].

عنده سواء، لا لأن قلبه ميت، بل لتمام رضاه بربه -سبحانه وتعالى- يتقلب فى تصرفات الرب -عز وجل-، ولكنها عنده سواء، إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون فى عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك، قال النبى ﷺ: **«ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شىء إلا كفر له بها، حتى الشوكة يشاكها»**. كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١٥٨٥)، وابن حبان (٣١٥٦)، وصححه الشيخ -رحمه الله- فى «الصحيحة» (٢١٤٧)، وفى «صحيح ابن ماجه» (١٢٨٩).

(٢) أخرجه البخارى (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس.

(٣) رواه البخاري وغيره. (الفقي).

(٤) هي زينب كما في «صحيح البخاري». (الفقي).

(٥) أخرجه البخارى (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «**إذا أَرادَ اللهُ بِعَبـدِهِ الخَيـر عَـجلَ لَهُ بالعُقُوبَةِ فِي الدُّنيَا**...

قوله: (وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِه الخَير عَجلَ لَهُ بالعُقُوبَةِ فِى الدُّنيَا، وإذَا أَرَادَ بِعَبدِه الشرَ أَمسَكَ عَنهُ بِذَنبه حتَّى يُوَافِى به يَومَ القيَامَةِ**»[1]).

هذا الحديث رواه الترمذى والحاكم، وحسنه التـرمذى، وأخرجه الطبرانى والحاكم عن عبد الله بن مغفل، وأخرجه ابن عَدى عن أبى هريرة، والطبرانى عن عمار بن ياسر.

قوله: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا**» أى: يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة.

قوله: «**عجل له بالعقوبة فى الدنيا**»: العقوبة: مـؤاخذة المجرم بذنبه، وسـميت بذلك، لأنها تعقب الذنب، ولكنها لا تقـال إلا فى المؤاخذة على الشر. وقوله «**عجل له بالعقوبة فى الدنيا**»: كان ذلك خيراً من تأخيرها للآخرة، لأنه يزول وينتهى، ولهذا قال النبى ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**». وهناك خير أولى من ذلك وهـو العفو عن الذنب، وهذا أعلى، لأن الله إذا لم يعاقبه فى الدنيا ولا فى الآخرة، فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيراً باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد، كما قال تعالى: ﴿**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ**﴾ (طه: ١٢٧).

والعقوبة أنواع كثيرة: منها: ما يتـعلق بالدِّين، وهى أشدها، لأن العقوبات الحسـية قد يتنبه لها الإنسـان، أما هذه، فلا يتنبه لها إلا من وفّـقه الله، وذلك كما لو خفّت المعـصية فى نظر العاصى، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمـات الله، وعدم القيـام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾ (المائدة: ٤٩). ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسـية. ومنها: العقوبة بالأهل، كفقدانهم، أو أمراض تصيـبهم. ومنها: العقـوبة بالمال، كنقصه أو تلفه وغـير ذلك. قوله: «**وإذا أراد بعبده**

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٩٦)، والحاكم (٤/٦٠٨)، والبيهقى فى «الأسماء» (ص ١٥٤)، وله شاهد من حديث عبد الله بن مغفل أطول من هذا وفيه محل الشاهد.

أخرجه أحمد (١٦٨٠٦)، وابن حبـان (٢٩١١)، والحاكم (١/٣٤٩) (٤/٣٧٦)، والبيهقى فى «الشعب» (٩٨١٧)، وفى «الأسماء» (ص ١٥٣-١٥٤)، وفى «الأدب» (٨٩٩)، وإسناده حسن.

وشاهد من حديث عمار. انظر: «صحيح الجامع» (٣٠٨)، والصحيحة (١٢٢٠).

وإذَا أَرَادَ بِعَبدِهِ الشرَ أَمسَكَ عَنهُ بِذَنبِه حَتَّى يُوَافِيَ بِه يَومَ القِيَامَةِ».

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: المصائب نعمة، لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها، وتقتضى الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة، فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا، وهذا من أعظم النعم، فالمصائب رحمة ونعمة فى حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها فى معاصى أعظم، مما كان قبل ذلك فيكون شراً عليه من جهة ما أصابه فى دينه، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر فى دينه، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة، كانت فى حقه نعمة دينية، فهى بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة فى دينه، وحصل له بعد ما كفّر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة:١٥٧). وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك. انتهى ملخصاً.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه» أى: أخّر عنه العقوبة بذنبه **«حتى يوافى به يوم القيامة»** وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى للفاعل، قال العزيزى: أى لا يجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجئ فى الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفى ما يستحقه

الشر، أمسك عنه بذنبه»: «أمسك عنه»، أى: ترك عقوبته. والإمساك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، بل هو لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد، لكنه يمسك عن الفعل فى شىء ما لحكمة بالغة، ففعله حكمة، وإمساكه حكمة.

قوله: **«حتى يوافى به يوم القيامة»**: أى: يوافيه الله به: أى: يجازيه به يوم القيامة، وهو الذى يقوم فيه الناس من قبورهم لله رب العالمين. وسمى بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١- قيام الناس من قبورهم، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:٦).

٢- قيام الأشهاد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١).

٣- قيام العدل، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأنبياء:٤٧). والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع، فإن ذلك قد

من العقـاب، وهذه الجملة هى آخـر الحديث. فأمـا قوله: (وقال النبى ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجزَاءَ مَعَ عِظَمِ البَلاَء» إلى آخره) فهو أول حديث آخـر، لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد وصحابى واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه: التنبيه على حـسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيـه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

يكون خيـراً، وعذاب الدنيا أهون مـن عذاب الآخرة، فيـحمد اللـه أنه لم يؤخر عقـوبته إلى الآخرة. وعلى فرض أن أحـداً لم يأت بخطيئة وأصابـته مصيبـة، فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته بـاحتساب الأجر، لكن لا يجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطئ أن يقول: أنا لم أخطئ، فـهذه تزكية، فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصـيب بمصيبة، فـإن هذه المصيبة لا تلاقى ذنبـاً تكفره لكنها تلاقى قلبـاً تمحصه، فيبتلى الـله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر أو لا؟ ولهذا كـان أخشى الناس لله -عز وجل- وأتقاهم محمد ﷺ، يوعك كما يوعك رجلان منا، وذلك لينال أعلى درجـات الصبر فينال مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع، ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبد الرحمن بن أبى بكر وهو يستاك، فأمده بصره (يعنى: ينظر إليه) فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السوالك وقضمتـه وألانته للرسول ﷺ فأعطته إيَّاه، فـاستن به، قالت عائشة: مـا رأيته استن استناناً أحسن منه، ثم رفع يده وقال: «فى الرفيق الأعلى».

فانظر إلى هذا الثـبات واليقين والصـبر العظيم مع هذه الشدة العظيـمة، كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين، صبر لله، وصـبر بالله، وصبر فى الله حتى نال أعلى الدرجات فمن أصيب بمصيبة، فحدثته نفـسه أن مصائبه أعظم من معائبه، فإنه يُدل على ربه بعمله ويمن عليه به، فليحذر هذا.

ومـن ذلـك يتضـح لنـا أمـران:

١- أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيراً لسيـئاته وتعجيلاً للعقوبة فى الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له فى الآخرة.

٢- قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصـل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجزاءَ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوماً ابتلاَهُم،**

قوله: (وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجزاءَ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وإِنَّ اللهَ تَعَالَى إذا أَحَبَّ قَوماً ابتَلاَهُم فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخَطُ**»[1] حسنه الترمذي). قال الترمذي: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد ابن سنان، عن أنس، فذكر الحديث السابق، ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عظم الجزاء ـ الحديث» ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه ابن ماجه، وروى أحمد عن محمود بن لبيد رفعه: «**إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع**»[2] قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: «**إن عظم الجزاء**» بكسر العين وفتح الظاء فيها، ويجوز ضمها مع سكون الظاء، أي: من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «**وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم**» ولهذا ورد في حديث سعد: «**سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان**

قوله: (قال النبي ﷺ: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء...»).

ويستفاد من الحديث: إثبات المحبة والسخط والرضا لله -عز وجل-، وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى، لأن (إذا) في قوله: «**إذا أحب قوماً**» للمستقبل، فالحب يحدث، فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا، فقد يكون هذا الشخص في يوم من الأيام محبوباً إلى الله وفي آخر مُبْغَضاً إلى الله، لأن الحكم يدور مع علته، وأما الأعمال، فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٥/٤٢٧) (٤٢٨) (٤٢٩)، وذكره المنذري (٤/٢٨٣)، وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات. وله شاهد من حديث أنس عند ابن ماجه (٤٠٣١)، والترمذي بإثر الحديث رقم (٢٣٩٦)، وصححه الشيخ في «الصحيحة» (١٤٦)، و«صحيح الجامع» (٢٨٥).

في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[١] رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه.

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكون لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: «من رضي فله الرضا» أي: من الله تعالى، والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (البينة: ٨). ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر. والرضا: هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً، محبة لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[٢].

وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيؤولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضي النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله -عز وجل- على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل، ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران:

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (١٤٨١، ١٤٩٤)، والطيالسي (٢١٥)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٣)، والبزار (١١٥٥)، وابن حبان (٢٩٠٠) (٢٩٢١)، والحاكم (١/ ٤١)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٣٧٢)، وفي «الشعب» (٩٧٧٥).

(٢) **إسناده فيه انقطاع**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (٣٠٥) موقوفاً بسند فيه انقطاع. وأخرج نحوه الطبراني (١٠٥١٤)، وأبو نعيم (٤/ ١٢١) (٧/ ١٣٠) بإسناد ضعيف عنه مرفوعاً. وأخرجه أبو نعيم (١٠/ ٤١) (٥/ ١٠٦)، والبيهقي (٢٠٣) عن أبي سعيد بنحوه له شاهدًا، لكن إسناده ضعيف جداً.

وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ» حسنه الترمذي.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن. **الثانية:** أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير. **السادسة:** علامة إرادة الله بعبده الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد. **الثامنة:** تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

قوله: «ومن سخط» وهو بكسر الخاء، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشئ وعدم الرضا به، أي: من سخط على الله فيما دبره فله السخط، أي: من الله، وكفى بذلك عقوبة، وقد يستدل به على وجوب الرضا، وهو اختيار ابن عقيل، واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه، قال: وأما ما يروى: «من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًا سوائي»[1]. فهذا إسرائيلي، لم يصح عن النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك -أي من الرضا- أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها. اهـ. والله أعلم.

١- إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢- الحذر من التمثيل أو التكييف.

---

(١) **ضعيف جداً**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٢٠/ ٨٠٧)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٢٧)، والخطيب في «التلخيص» (٢/ ٣٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٧/ ١١٥/ ١) (١٢/ ٢٦٧/ ١)، عن أبي هند الداري مرفوعًا. قال في «المجمع» (٧/ ٢٠٧)، وفيه سعيد بن زياد بن هند وهو متروك.
وقال الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٢١٢) وفيه ضعيفان.
وأخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٤٨)، وعنه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٢٢٨)، وعنه الخطيب في «تاريخه» (٢/ ٢٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٦)، عن أنس راجع الضعيفة (٥٠٦).

بـاب مـا جـاء في الريـاء (*)

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الآية (الكهف: ١١٠).

قوله: (باب ما جاء في الرياء)

أي: من النهي والتحذير، قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها، والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يُرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾).

أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إليّ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أي: يخافه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

قوله: «﴿ أَحَدًا ﴾» نكرة في سياق النهي تعم، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: أما اللقاء: فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة، وذكر الأدلة على ذلك.

المؤلف -رحمه الله تعالى- أطلق الترجمة، فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه.

تعريف الرياء: مصدر راءى يرائي، أي: عمل عملاً ليراه الناس، ويقال مراءاة كما يقال: جاهد جهاداً ومجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مسمع، وفي الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال: «**من راءى راءى الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به**». والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: ١٤٢). والرياء يُبحث في مقامين:

المقام الأول: في حكمه. فنقول: الرياء من الشرك الأصغر، لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر، فقال: «مثل يسير الرياء»، وهذا يدل على أن الرياء الكثير قد يصل إلى الأكبر.

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٧٣).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى الآية: أى كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيدُ بالسنة.

وفى الآية دليل على أن أصل الدين الذى بعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥). والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع الله فى ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك فى التوحيد، أهو حق، أم يجوز أن يجعل لله شريك فى عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قَبلهم، لما اشتدت غُرْبَةُ الدين ونسى العلم بدين المرسلين.

المقام الثانى: فى حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلى من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله، فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثانى: أن يكون مشاركاً للعبادة فى أثنائها، بمعنى أن يكون الحامل له فى أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء فى أثناء العبادة. فإن كانت العبادة لا ينبنى آخرها على أولها، فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها، مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصاً وراءى فى الخمسين الباقية، فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة. أما إذا كانت العبادة ينبنى آخرها على أولها، فهى على حالين:

أ- أن يدافع الرياء، ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه، فإنه لا يؤثر عليه شيئاً، لقول النبى ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم».

مثال ذلك: رجل قام يصلى ركعتين مخلصاً لله، وفى الركعة الثانية أحسَّ بالرياء فصار يدافعه، فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئاً.

ب- أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه، فحينئذ تبطل جميع العبادة، لأن آخرها مبنى على أولها ومرتبط به. مثال ذلك: رجل قام يصلى ركعتين مخلصاً لله، وفى الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليه، فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

وعن أبى هريرة مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشرَكَ مَعِي فِيهِ غَيرِى تَرَكْتُهُ وَشِركَهُ» رواه مسلم.

قوله: (عن أبى هريرة مرفوعاً: «**قال الله تعالى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشركَ مَعِي فِيهِ غَيرِى تَرَكْتُهُ وَشِركَهُ**»[1] رواه مسلم).

قوله: «**من عمل عملاً أشرك فيه غيرى**» أى: من قصد بعمله غيرى من المخلوقين تركته وشركه، ولابن ماجه: «**فأنا منه برئ وهو للذى أشرك**» قال الطيبى: الضمير المنصوب فى قوله: «**تركته**» يجوز أن يرجع إلى العمل.

قال ابن رجب رحمه الله[2]: واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (النساء: ١٤٢). وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن فى فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر فى الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التى يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، وذكر أحاديث تدل على ذلك، منها: هذا الحديث، وحديث شدّاد بن أوس مرفوعاً: «**من صلى يُرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك، وإن الله عز وجل يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بى، فمن أشرك بى شيئاً فإن حشده عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، وأنا عنه غنى**»[3] رواه أحمد، وذكر أحاديث فى

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة، فإنه لا يؤثر عليها شيئاً، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان، كالمَنِّ والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ (البقرة: ٢٦٤). وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته، لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة. وليس

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فى شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» من جامع العلوم والحكم. (الفقي).

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥)، والطبرانى (٧١٣٩)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٢٦٨-٢٦٩)، والبيهقى فى «الشعب» (٦٨٤٤)، وإسناده ضعيف.

المعنى، ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شئ من الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد رحمه الله: التاجر والمستأجر والمكرى أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم فى غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضاً فيمن يأخذ جُعل الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس، كأنه خرج لدينه إن أعطى شيئاً أخذه. وروى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك، وأما إن كان أحدكم إن أعطى دراهم غزا، وإن لم يعط لم يغز، فلا خير فى ذلك»، وروى عن مجاهد رحمه الله أنه قال فى حج الجمّال، وحج الأجير، وحج التاجر: «هو تام لا ينقص من أجرهم شئ» أى: لأن قصدهم الأصلى كان هو الحج، دون التكسب. قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا، فيجازى على أصل نيته؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجَازى بنيته الأولى، وهو مروى عن الحسن وغيره، وفى هذا المعنى جاء حديث أبى ذرّ عن النبى ﷺ: **«أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن»**[1] رواه مسلم. انتهى ملخصاً.

قلت: وتمام هذا المقام يتبين فى شرح حديث أبى سعيد إن شاء الله تعالى.

من الرياء أيضاً أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة فى نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبى ﷺ: **«من سَرَّته حسناته وساءته سيئاته، فذلك المؤمن»**، وقد سئل النبى ﷺ عن ذلك، فقال: **«تلك عاجل بشرى المؤمن»**.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٥٦-١٥٧، ١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٢)، والطيالسى (٤٥٥)، وابن ماجه (٤٢٢٥)، وابن حبان (٣٦٦) عن أبى ذر الغفارى.

وعن أبى سعيد مرفوعاً: «**أَلاَ أُخبرُكُم بِمَا هُوَ أَخوَفُ عَلَيكُم عندى منَ المَسيحِ الدَّجَّال؟ قالوا: بلى، قال: الشِّركُ الخَفِىُّ يَقُومُ الرَّجُلَ فَيُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ، لِمَا يرى مِن نَظَرِ رَجُلٍ**». رواه أحمد.

قوله: (وعن أبى سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «**أَلاَ أُخبِرُكُم بِمَا هُوَ أَخوَفُ عَلَيكُم عندى منَ المَسيحِ الدَّجَّال؟ قالوا: بلى، قال: الشِّركُ الخَفِىُّ يَقُومُ الرَّجُلَ فَيُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ، لِمَا يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ**»[1]. رواه أحمد).

وروى ابن خزيمة فى «صحيحه» عن محمود بن لَبيد قال: «**خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إياكم وشِرْك السرائر، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شِرْك السرائر**»[2].

قوله: «عن أبى سعيد» الخدرى وتقدم.

قوله: «الشرك الخفى» سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله، وعن شداد بن أوس قال: «**كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر**»[3] رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب «الإخلاص»، وابن جرير فى «التهذيب»، والطبرانى، والحاكم وصححه.

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك،

---

(١) **إسناده ضعيف وهو حسن**: أخرجه أحمد (١١٢٥٢)، والبزار (٢٤٤٧) «زوائد»، والطحاوى «مشكل» (١٧٨١)، وابن عدى (٣/ ١٠٣٤)، وابن ماجه (٤٢٠٤) من طريق كثير بن زيد عن رُبيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه عن جده به. وإسناده ضعيف.
كثير بن زيد ضعيف، وكذلك ربيح بن عبد الرحمن.
وأخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٩) من طريق دراج أبى السمح عن أبى الهيثم العتوارى عن كثير به.
ودرّاج ضعيف فى روايته عن أبى الهيثم غير أنه منكر الحديث.
ومع هذا قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى!
ولكن يشهد له الحديث الآتى وغيره، وبه حسن الشيخ الألبانى الحديث فى «صحيح الترغيب» (٢٧).

(٢) **حسن**: أخرجه ابن خزيمة (٩٣٧)، والبيهقى (٢/ ٢٩٠)، وحسنه الشيخ فى «صحيح الترغيب» (٢٨).

(٣) **صحيح**: أخرجه الطبرانى (٧١٦٠)، والبزار «بحر» (٣٤٨١)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، والبيهقى، وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبى وقال الألبانى: وهو كما قالا انظر صحيح الترغيب (٣٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم فى رد العمل الصالح إذا دخله شىء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.

الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبى ﷺ على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن المرء يصلى لله لكن يُزينها لما يرى من نظر رجل.

ومالى إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى.

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك: ٢). قال: «أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة».[1]

وفى الحديث من الفوائد: شفقة النبى ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، فإذا كان النبى ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك، أصغره وأكبره.

---

(١) أخرجه أبو نعيم «الحلية» (٤/ ٩٥).

بـاب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا (*)

وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا

قوله: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)

فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس، والتصنع لهم، والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين، وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام، ويفارقه الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً، أراد به عرضاً من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً، كما في حديث: «**تعس عبدُ الدينار**»[1]، أو يجاهد للمغنم، أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس ﷺ، وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها: أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا.

وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب، لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعاً مستقلاً عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر، لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة، فيقال: هو عابد، ولا يريد النفع المادي. وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصاً له، ولكنه يريد شيئاً من الدنيا، كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه. وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعاً في الدنيا، غافلاً عن ثواب الآخرة.

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٧٣).

(١) سيأتي بتمامه.

لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٥، ١٦).

قال: (وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: ثوابها، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أى: مالها، ﴿نُوَفِّ﴾ أى: نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور فى المال والأهل والولد، ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون، ثم نسختها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ﴾ الآيتين (الإسراء: ١٨، ١٩)» رواه النحاس فى «ناسخه».[١]

قوله: «ثم نسختها» أى قيدتها، فلم تبق الآية على إطلاقها.[٢]

وقال قتادة: «من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة» ذكره ابن جرير بسنده[٣]، ثم ساق حديث أبى هريرة عن ابن

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

١- أن يريد المال، كمن أَذَّنَ ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.

٢- أن يريد المرتبة، كمن تعلم فى كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣- أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه، كمن تعبد لله كى يجزيه الله بهذا فى الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤- أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير. وهناك أمثلة كثيرة.

---

(١) لم يعزُ هذا الأثر أيضًا إلا لابن النحاس، السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤).

(٢) من العجيب جداً دعوى النسخ (*). فإن الآيتين فى معنى واحد. وتفسير النسخ بتقييد مطلقها -يعنى بالمشيئة- كذلك غير واضح، والظاهر أنها لا تثبت رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الفقي).

(*) قوله: (من العجيب جداً دعوى النسخ) إلخ. **أقول**: ليس فى ذلك ما يتعجب منه لأن معنى النسخ عند السلف أوسع من معناه عند الفقهاء لأن السلف يطلقون النسخ على تقييد المطلق وتخصيص العام لكونهما غير المعنى المفهوم من النص المطلق والنص العام، ومعلوم أن آية هود مطلقة ظاهرها أن مريد الدنيا بأعماله يعطى مراده، وآية الإسراء بينت أنه لا يعطى من ذلك إلا ما شاء الله وأن ذلك أيضاً لا يحصل إلا لمن أراده الله، فاتضح من ذلك أن طالب الدنيا بأعماله قد يعطى مراده إذا شاء الله ذلك، وقد يعمل ولا يحصل له ما أراد لأن الله سبحانه لم يشأ ذلك. وهذا واضح جداً، والله أعلم. (ابن باز).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٨٠٣٣) عن سعيد عن قتادة بسند صحيح.

المبارك، عن حَيوة بن شريح، قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان، أن عُقبة ابن مسلم حدثه، أن شُفَيًّ بن ماتع الأصبحي حدثه: «أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: أنشُدك بحقٍّ وبحقٍّ لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عَقَلْتَه وعلمته، قال: فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره، ثم نَشَغَ(١) أبو هريرة نَشْغة، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره، ثم نَشَغَ أبو هريرة نَشْغَةَ أخرى، ثم مال خارًّا على وجهه، واشتد به طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: **«إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضي بينهم، وكلُّ أمّة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجلٌ قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقولُ الله تبارك وتعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئٌ، فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسّع عليك حتى لم أدَعْك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق،**

تنبيه: فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

فالجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً، فنقول لهم:

أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق، لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة. **ثانياً:** أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلاّ في الكليات، فيدخل الكلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة، فإنها لا تهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين -حسني الدنيا وحسني الآخرة- فلا شيء عليه لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣)، فرغّبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب.

---

(١) نشغ بفتح النون والشين المعجمة وبعدها غين معجمة، أي شهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً وخوفاً. (الفقي).

....

فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقال له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أُمرتُ بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جرىء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة»(١، ٢).

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية، فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذى يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله، من صدقة، وصلاة، وصلة، وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك، مما يفعله الإنسان أو

فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً، فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم، بل قصد أمراً مادياً، فإخلاصه ليس كاملاً لأن فيه شركاً، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك، بل أراد شيئاً دنيئاً غيره. ولا مانع أن يدعو الإنسان فى صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لا يصلى من أجل هذا الشىء فهذه مرتبة دنيئة. أما طلب الخير فى الدنيا بأسبابه الدنيوية، كالبيع، والشراء، والزراعة، فهذا لا شىء فيه، والأصل أن لا نجعل فى العبادات نصيباً من الدنيا، وقد سبق البحث فى حكم العبادة إذا خالطها الرياء فى باب الرياء.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٨٢)، وابن خزيمة (٢٤٨٢)، وابن حبان (٤٠٨)، وابن جرير (١٨٠٤٢)، والحاكم (٤١٨/١)، والبيهقى فى «الشعب»، والبغوى (٤١٤٣) من هذا الطريق، وسنده صحيح.
وأخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائى (٢٣/٦)، والبيهقى (١٦٨/٩)، عن ابن جريج عن يونس بن يوسف عن سليمان بن يسار عن ناتل أهل الشام (وهو ابن قيس) عن أبى هريرة.

(٢) تمام الحديث عند ابن جرير وغيره: «قال أبو عثمان الوليد: فأخبرنى عقبة أن شفيّا هو الذى دخل على معاوية فأخبره بهذا. قال أبو عثمان وحدثنى العلاء بن أبى حكيم: أنه كان سيافاً لمعاوية - قال: فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبى هريرة، فقال معاوية: وقد فعل بهؤلاء هذا؟ فكيف بمن بقى من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننا أنه هلك. وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، فقال: صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال المنذري، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه. (الفقي).

يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه فى الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له فى طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله فى الدنيا وليس له فى الآخرة من نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثانى ـ وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذى ذكره مجاهد فى الآية أنها نزلت فيه: وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث ـ أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أن يحج لمال يأخذه، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً.

النوع الرابع ـ أن يعمل بطاعة الله مخلصاً فى ذلك لله وحده لا شريك له، ولكنه على عمل يكفّره كفراً يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله فى الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضاً قد ذكر فى هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧).

ثم قال: بقى أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالباً ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما، وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله .اهـ.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَعسَ عَبدُ الدِّينَار، تَعسَ عَبدُ الدِّرهَم، تَعسَ عَبدُ الخَمِيصَة، تَعسَ عَبدُ الخَمِيلَة، إن أُعطِيَ رَضِيَ، وإن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانتَكَسَ**، ....

قوله: (وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تَعسَ عَبدُ الدِّينَار، تَعسَ عَبدُ الدِّرهَم، تَعسَ عَبدُ الخَمِيصَة، تَعسَ عَبدُ الخَمِيلَة، إن أُعطِيَ رَضِيَ، وإن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعسَ وَانتَكَسَ، وَإذَا شِيكَ فَلاَ انتَقَشَ، طُوبَى لِعَبد آخذ بِعِنَانِ فَرَسه فِي سَبِيلِ الله، أَشعَثَ رَأسُهُ، مُغبَرَّةٌ قَدَمَاهُ، إن كَانَ فِي الحِرَاسَة كَانَ فِي الحِرَاسَة، وَإنْ كَانَ فِي السَّاقَة كَانَ فِي السَّاقَة، إن استَأذَنَ لَم يُؤذَن لَهُ، وَإن شَفَعَ لَم يُشفَّع**»[1]).

قوله: **«في الصحيح»** أي: صحيح البخاري.

قوله: **«تعس»** هو بكسر العين ويجوز الفتح، أي: سقط، والمراد هنا: هلك، قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سَعد: أي: شقي، وقال أبو السعادات: يقال تعس يتعس: إذا عَثَر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله: **«عبد الدينار»** هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قوله: **«تعس عبد الدرهم»** وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزناً، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخُمسا حبة، سماه عبداً له، لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكاً له في عبوديته، كما هو حال الأكثر.

قوله: **«تعس عبد الخميصة»** قال أبو السعادات: هي ثوب خَزٍّ أو صوف معلَّم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلَّمة، وتُجمع على خمائص، والخميلة - بفتح الخاء المعجمة - وقال أبو السعادات: ذات الخمل - ثياب لها خَمل من أي شئ كان.

قوله: **«تعس وانتكس»** قال الحافظ: هو بالمهملة، أي عاوده المرض، وقال أبو السعادات: أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة، قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه، لأنه إذا تعس انكبّ على وجهه، وإذا انتُكِس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) (٢٨٨٧) (٦٤٣٥)، وابن ماجه (٤١٣٥)، وابن حبان (٣٢١٨)، والبيهقي (١٠/٢٤٥)، والبغوي (٤٠٥٩).

وإذا شيك فلا انتقش ....

قوله: «وإذا شيك» أي: أصابته شوكة **«فلا انتقش»** أي: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش، قاله أبو السعادات.

والمراد: أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه فى العواقب، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات فى الوقوع فيما يضره فى عاجل دنياه وآجل أخراه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فسماه النبى ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله: **«تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»** وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: **«إن أعطى رضى، وإن منع سخط»**، كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ (التوبة: ٥٨). فرضاؤهم لغير الله وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رقُّ القلب وعبوديته، فما استرقَ القلب واستعبده فهو عبده. إلى أن قال: وهكذا أيضاً طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله وى رغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذى يركبه، وبساطه الذى يجلس عليه، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً.

ومنها: مالا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغى أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»**، وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضى، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله،

ويسخطه ما يسخط الله، ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، ويوالى أولياء الله، ويعادى أعداء الله، فهذا الذى استكمل الإيمان. انتهى ملخصاً.

قوله: «طوبى لعبد» قال أبو السعادات: «طوبى» اسم الجنة، وقيل: هى شجرة فيها، ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبى سعيد قال: قال رجل: يا رسول الله، وما طوبى؟ قال: «**شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**». ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لهيعة، حدثنا دَرَّاج أبو السمح، أن أبا الهيثم[1] حدثه، عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ: «**أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن رآنى وآمن بى، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**»[2]، وله شواهد فى «الصحيحين» وغيرهما.

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب رحمه الله: «**إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، زَهْرها رياط، وورقها بُرود[3]، وقضبانها عَنْبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، وَوَحْلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهى مجلس لأهل الجنة، بينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُباً مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسنها، ووبَرها كخزِّ المرعِزَّى من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا**

---

(١) ابن لهيعة وأبو الهيثم ضعيفان. كما صرح بذلك الإمامان أحمد وأبو داود. وقد روى البخارى ومسلم من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها**». (الفقي).

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٧١)، وأبو يعلى (١٣٧٤) من طريق حسن بن موسى به. وأخرجه الخطيب فى «تاريخه» (٤/ ٩١) من طريق أسد بن موسى به. وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة ودراج عن أبى الهيثم. لكن تابع ابن لهيعة عمرو بن الحارث. فرواه ابن حبان (٧٢٣٠) (٧٤١٣)، والطبرى (١٣/ ١٤٩) من طريقه عن درّاج به.
ورواية درّاج عن أبى الهيثم ضعيفة كما أشرنا لذلك غير مرة. نعم، الحديث شطره الأول له شواهد تقويه، ويبقى الشطر الآخر بلا شواهد من تفرد درّاج عن أبى الهيثم والله أعلم.

(٣) الرياط: جمع ريطة – بفتح الراء المهملة– ثوب كالملاءة. و قيل: كل ثوب رقيق لين. والبرد: كالعباءة (*). (الفقي).

(*) قوله: (والبُرد كالعباءة) فيه نظر، والصواب أن البرد لا يشبه العباءة بل هو نوع آخر، قال فى القاموس ما نصه: (البرد بالضم: ثوب مخطط جمعه أبراد وأبرد وبرود، وأكسيه يلتحف بها الواحدة بالهاء) انتهى. (ابن باز).

....

أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه، قال: فيركبونها، قال: فهى أسرع من الطائر، وأوطأ من الفرش، خبّاً من غير مهنة، يسير الراكبُ إلى جنب أخيه، وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أُذن راحلة منها أُذن صاحبتها، ولا برك راحلة بَرك صاحبتها، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه، قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم، حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك: أنا السلام ومنى السلام، وعليكم حقت رحمتى ومحبتى، ومرحباً بعبادى الذين خشونى بالغيب وأطاعوا أمرى، قال: فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك، فائذن لنا بالسجود قدامك، قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإنى قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلونى ما شئتم، بأن لكل رجل منكم أمنيته، فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: ربى، تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني من كل شئ كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قَصَّرت بك اليوم أمنيتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك منى وسأتحفك بمنزلتى، لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قصَر يَدٍ، قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادى مالم تبلغ أمانيهم[1] ولم يخطر لهم على بال، قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقرَّنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة، فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة، فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيب إلا قد عَبَق بهما، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى لهما مثل ذلك، ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك، ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً فى الجنة، حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته إلتى أعدت له».

---

(١) فى ابن جرير: «حتى يقضوهم أمانيهم» وفى ابن كثير: «حتى تقصر بهم أمانيهم». (الفقي).

....

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد: «فانظروا إلى مواهب ربكم الذى وهب لكم، فإذا بقباب فى الرفيق الأعلى، وغرف مبنية بالدر والمرجان، أبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضئ، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مُسَخَّر إذاً لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مُبَوَّبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشُرَفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح، تحتها الولدان المخلدون، بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم، فينظرون رياض الجنة، فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعدوا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات فى الخيام، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم. وربنا، قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عنا، قال: فبرضائى عنكم أحللتكم دارى ونظرتم إلى وجهى، فعند ذلك قالوا: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾[1] (فاطر: ٣٤، ٣٥).

---

(١) خبر إسرائيلى، إسناده حسن إلى وهب. أخرجه ابن جرير (٢٠٣٨٩) من طريق الفضل بن الصباح حدثنا إسماعيل ابن عبد الكريم الصنعانى حدثنى عبد الصمد بن معقل عن وهب به.
وجاء مرفوعًا. أخرجه ابن أبى الدنيا فى «وصف الجنة» (٥٤)، وأبو نعيم فى «وصف الجنة» (٤١١) من طريق أبى إياس عن محمد بن على بن الحسين مرفوعًا. وهو معضل، ومع إعضاله ضعيف جداً.
فإن أبا إياس وهو إدريس بن سنان متروك، كما قال الدارقطنى وغيره.
وأخرجه ابن أبى حاتم من وجه آخر عن وهب بن منبه عن محمد بن على بن الحسين بن فاطمة قال: قال رسول الله ﷺ فذكره. وهذا معضل إسناده ضعيف.

آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة،...

وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد في الصحيحين.[1]

وقال خالد بن مَعدان: «إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، ضُروع كلها، ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سَقْط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة» رواه ابن أبي حاتم.[2]

قوله: «آخذ بعنان فرسه في سبيل الله» أي: في جهاد المشركين.

قوله: «أشعث» مجرور بالفتحة لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، و«**رأسه**» مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، شغَله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر.

قوله: «مغبرة قدماه» هو بالجر صفة ثانية لعبد.

قوله: «إن كان في الحراسة كان في الحراسة» هو بكسر الحاء أي حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

قوله: «كان في الحراسة» أي: غير مقصر فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: **«إن كان في الحراسة، فهو في الحراسة، وإن كان في الساقة، فهو في الساقة»**: الحراسة والساقة ليست من مُقَدَّم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون في مؤخرته، وللجملتين معنيان:

أحدهما: أنه لا يبالي أين وضع، إن قيل له: احرس، حرس، وإن قيل له: كن في الساقة، كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

الثاني: إن كان في الحراسة أدى حقها، وكذا إن كان في الساقة، والحديث صالح للمعنيين، فيحمل عليهما جميعاً إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا.

---

(١) روى هذا الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ وقال فيه ابن كثير: إنه سياق غريب وأثر عجيب اهـ. وظاهر عليه صبغة الإسرائيليات الملفقة، وكم لوهب بن منبه وكعب الأحبار من هذه الخرافات والآثار السخيفة التي تمجها الفطر السليمة ،وقد فتن الناس بهذه الإسرائيليات وفسدت بها عقائد كثير منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. (الفقي).

(٢) قال في «الدر» (٤/ ١١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العزاء» وابن أبي حاتم.

وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

قوله: «وإن كان فى الساقة كان فى الساقة» أى: فى مؤخرة الجيش، يقلب نفسه فى مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم به إن كان ليلاً أو نهاراً، رغبة فى ثواب الله وطلباً لمرضاته ومحبة لطاعته.

قال ابن الجوزى رحمه الله: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

وقال الخلخالى: المعنى: ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم، لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة. انتهى. وفيه فضل الحراسة فى سبيل الله.

قوله: «إن استأذن لم يؤذن له» أى: إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له، لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة، لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

قوله: «وإن شفع» بفتح أوله وثانيه **«لم يشفّع»** بفتح الفاء مشددة، يعنى لو ألجأته الحال إلى أن يشفع فى أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

قوله: **«إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»**، أى: هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، حتى إنه إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة، فإن شفع لم يُشَفَّع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل فى سبيله.

والشفاعة: هى التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء. والحديث قسم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له هم إلاَّ الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثانى: أكبر هَمِّه الآخرة، فهو يسعى لها فى أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد فى سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

١- أن الناس قسمان كما سبق.

٢- أن الذى ليس له هم إلاَّ الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهى الشوكة، بخلاف الحازم الذى لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قَدَّره الله له.

٣- أنه ينبغى لمن جاهد فى سبيل الله ألا تكون همه المراتب، بل يكون همه القيام بما يجب عليه، إما فى الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا: **«رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرّه»**[(١)].

قال الحافظ: فيه ترك حب الرياسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع. انتهى.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان رضي الله عنه -وهو يخطب على منبره-: إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«حرسُ ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها»**[(٢)].

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك[(٣)]: قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطَرسوس وواعده الخروج، وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة، قال:

٤- أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله -عز وجل-، فهذا الرجل الذي إن شفع لم يُشَفَّع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول ﷺ: **«طوبى له»**، ولم يقل: إن سأل لم يعط، بل لا تهمه الدنيا حتى يسأل عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) (٢٨٤٦)، وابن حبان (٦٤٨٣)، والطحاوي «مشكل» (١/ ٢٩٢)، والحاكم (٤/ ٣٢٨).

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (٤٣٣)، وإسناده ضعيف. وفيه انقطاع.

مصعب بن ثابت ضعفه أحمد وابن معين وغيرهما، غير أنه لم يسمع من عثمان، بل ولد بعد مقتله بخمسين عاماً.

وأخرجه ابن أبي عاصم (١٥٠)، والطبراني (١٤٥)، والحاكم (٢/ ٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٢٣٤)، وابن ماجه (٢٧٦٦) من طرق عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير عن عثمان به. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٧٠٣).

(٣) انظر: «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٤٩)، والسير (٨/ ٤١٠). وقد خرجته في «البكاء».

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «تَعِسَ وَ انتَكَسَ».

السادسة: قوله: «وإذا شيك فلا انتقش».

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا	رَهَج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بكتابه فى المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم، قال لى: اكتب هذا الحديث، وأملى علىّ الفضيلُ بن عياض: حدثنا منصور بن معتمر، عن أبى صالح، عن أبى هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال: **«هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟»** فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ: **«فوالذى نفسى بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين فى سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد لَيَسْتَنّ فى طِوَله فيكتب له بذلك حسنات؟»**(١، ٢).

---

(١) أخرجه البخارى (٢٧٨٥)، والنسائى (٦/ ١٩)، وابن منده فى «الإيمان» (٢٤١)، والبيهقى (٩/ ١٥٧)، والشعب (٤٢١٦) (٤٢١٧)، وأحمد (٨٥٤٠) (٩٤٨١) (٩٦٤٨).

(٢) روى البخارى حديث سؤال الرجل هذا عن أبى هريرة. وفيه: فقال أبو هريرة: «فإن فرس المجاهد ليستن يمرح فى طوله فيكتب له حسنات» والطول: الحبل. والاستنان: العدو، وروى مسلم مثله قريباً منه في فضل الجهاد فى سيل الله. (الفقي).

بـاب من أطـاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله (*)

وقال ابن عـباس: «يُوشكُ أن تنزل عليكم حجـارة من السمـاء، أقول: قـال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟».

قوله: (باب من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله)

لقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١). وتقدم تفسير هذا فى أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدى ابن حاتم رضي الله عنه.

قوله: (وقال ابن عباس: **«يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»**[1]).

قوله: «يوشك» بضم أوله وكسر الشين المعجمة: أى يقرب ويسرع.

قوله: **«من أطاع العلماء»: «من»** يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: **«فقد اتخذهم»**، لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة، أى: **«باب الذى أطاع العلماء»**.

وقوله: **«فقد اتخذهم»**: خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء، لأن الاسم الموصول كالشـرط فى العموم، وعلى الأول تقرأ «باب» بالتنوين، وعلى الثانى بدون تنوين، والأول أحسن. والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المُنفذون له، وهذان الصنفان هما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، فجعل الله طاعتـه مستقلة، وطاعة رسوله مـستقلة، وطاعـة أولى الأمر تابعة، ولهـذا لم يكرر الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء، لأنه يستند إليهم فى أمر الشرع والعلم به، والأمراء، لأنه يستند إليهم فى تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا اسـتقام العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور، لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٥).

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٢٢٧٧) (٢٦٦٤) (٢٩٧٦) (٣١٢١) وغيره. وأصل الحديث صحيح، فإن لبعض طرقه قوة، ولكن هذه الزيادة من تفرد شريك بن عبد الله عن الأعمش، وهو سيىء الحفظ، فالإسناد ضعيف. وهى عند أحمد برقم (٣١٢١)، وقد أخطأ من صحح هذا الإسناد.

....

وهذا القول من ابن عباس ﷺ جواب لمن قال له: إن أبا بكر وعمر ﷺ لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ما هو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: «إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى»، لحديث سُراقة بن مالك حين أمرهم النبى ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلُّوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: **«يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: بل للأبد»**[1] والحديث فى الصحيحين، وحينئذ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر فى مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك، كما قال تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ (النساء: ٥٩).

وللبخارى ومسلم وغيرهما، أن النبى ﷺ قال: **«لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معى الهدى لأحللت»**[٢،٣] هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة ﷺ، ولفظه فى حديث جابر: **«افعلوا ما أمرتكم به، فلولا أنى سُقتُ الهدْى لفعلت مثل الذى أمرتكم»**[٤]، فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

قوله: **«فى تحريم ما أحل الله»**: أى: فى جعله حراماً، أى: عقيدة أو عملاً. **«أو تحليل ما حرم الله»**: أى: فى جعله حلالاً عقيدة أو عملاً، فتحريم ما أحل الله لا ينقص درجة فى الإثم عن تحليل ما حرم الله، وكثير من ذوى الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك، فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال، لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبنى على الأصل، وهو الحل، ورحمة الله -سبحانه- سبقت غضبه، فلا يمكن أن نُحرِّم إلا ما تبين تحريمه،

---

(١) أخرجه البخارى (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١٦)، وابن حبان (٣٩١٩)، وأحمد (٣/ ٢٩٣)، وغيرهم عن جابر فى حديثه مطولاً. وأخرجه أحمد (١٧٥٩٠)، والنسائى (٥/ ١٧٨)، والطبرانى (٦٦٠٤)، عن سراقة.

(٢) رواه البخارى (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١).

(٣) قال ذلك حين أمرهم فى حجة الوداع أن يفسخوا حجهم إلى العمرة، ليكونوا متمتعين. ووجدوا فى أنفسهم من ذلك لقرب ذهابهم إلى منى، وقصر المدة التى يقيمونها فى مكة متمتعين بنسائهم حتى قالوا: نذهب إلى منى ومذاكيرنا تقطر منياً» انظر «زاد المعاد» فى حجة الرسول ﷺ. (الفقي).

(٤) أخرجه البخارى (١٥٦٨)، ومسلم (١٢١٦)، وأحمد فى أكثر من عشرة مواضع فى المسند، ولقد اعتنى بحديث جابر وجمعه الشيخ الألبانى رحمه الله فى «حجة النبى ﷺ».

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر ﵄: «**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء**» ـ الحديث.

وقال الإمام الشافعى رحمه الله: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: مامنا إلا رادٌّ ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ. وكلام الأئمة فى هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع: فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، كما فى الحديث(١، ٢)، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم، وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبى ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك، فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد، وفى عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هى عنده باللُّقَى والسماع، ويسافر الرجل فى طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين، ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيد، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها، والفقهاء صنفوا فى كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين، فسهل الأمر على طالب العلم، وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده، وفى كلام ابن عباس ﵄ ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به -تقليداً لإمامه- فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ، لمخالفته الدليل.

ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم. أما فى العبادات فيشدد، لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع كما قيل:

والأصل فى الأشياء حِلٌّ وامْنعْ عِبادةً إلا بإذنِ الشارعِ

قوله: «أرباباً». جمع رب، وهو المتصرف المالك، والتصرف نوعان: تصرف قدرى، وتصرف شرعى. فمن أطاع العلماء فى مخالفة أمر الله ورسوله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله باعتبار التصرف الشرعى، لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعاً يعمل به، وبالعكس الأمراء.

---

(١) الحديث: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران...**» الحديث. أخرجه أحمد (٤/ ١٩٨-٢٠٤)، والبخارى (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، والترمذى (١٣٢٦)، والنسائى (٨/ ٢٢٣)، و«الكبرى» (٥٩١٩)، وابن ماجه (٢٣١٤)، والطبرانى «أوسط» (٣٢١٤)، وابن الجارود (٩٩٦)، والطحاوى (٥٣)، وغيرهم عن عمرو بن العاص.

(٢) «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر**». (الفقي).

وقال الإمام أحمد[١]: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ»[٢].

وعلى هذا: فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء، كائناً من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا فى مسائل الاجتهاد التى لادليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذى عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار فى مسائل الاجتهاد، وأما من خالف الكتاب والسنة: فيجب الرد عليه، كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه، كما تقدم فى كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

قوله: (وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدرى ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك).

هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب، قال الفضل عن أحمد: «نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ فى ثلاث وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية فذكر من قوله: الفتنة الشرك - إلى قوله - فيهلك»، ثم جعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره، فقال: «أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه، ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدرى ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧). فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأى» ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

---

(١) الصواب أنه - الحافظ سليمان بن أحمد الطبرانى، صاحب المعاجم الثلاثة، وليس الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) أخرجه الطبرانى (١١٩٤١) من هذا الطريق، وقال فى «المجمع» (١/ ١٧٩): رجاله موثقون.

قلت: إسناده حسن لأجل مالك بن دينار فإنه صدوق.

•عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣). أتدرى ما الفتنة؟

قوله: «عرفوا الإسناد» أى: إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثورى الإمام الزاهد، العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله فى الكتب التى يذكر فيها مذاهب الأئمة، كـ«التمهيد» لابن عبد البر، و«الاستذكار» له، وكتاب «الإشراف على مذاهب الأشراف» لابن المنذر، و«المحلى» لابن حزم، و«المغنى» لأبى محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة الحنبلى، وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه الله: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ... الخ» إنكار منه لذلك، وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً، وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل فى الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد والاجتهاد قد انقطع[1]، ويقول: هذا الذى قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذى معه بعض العلم لا كله، فالواجب على كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك أن ينتهى إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٣). وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥١). وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك.

---

(١) فى قرة العيون: وقد أخطأوا فى ذلك. وقد استدل الإمام أحمد رحمه الله بقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» أن الاجتهاد لا ينقطع. (الفقي).

....

قلت: ولا يخالف فى ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة فإنهم فى الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم، كما قدمنا من قول مالك والشافعى وأحمد، ولكن فى كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبركتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١). كما سيأتى بيان ذلك فى حديث عدى بن حاتم، فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما فى الكتاب والسنة، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لابد أن يذكر دليله، والحق فى المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر فى كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه، والأدلة على هذا الأصل فى كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفى السنة كذلك، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: **«أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بكتاب الله تعالى، قال: فإن لم تجد فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ولا فى كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيى ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»**[1]، وساق بسنده عن الحارث بن عمرو، عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه: **«أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن»** بمعناه.

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا فى البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه، قد يبلغ غيرهم، وذلك كثير، كما لا يخفى على من نظر فى أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال.

---

(١) **ضعيف وفيه انقطاع:** أخرجه أبو داود (٣٥٩٣)، والترمذى (١٣٢٨)، وأحمد (٥/ ٢٤٢)، وضعفه الشيخ فى «ضعيف أبى داود» (٧٧٠).

الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك.

وقال: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه فـاتركوا قولى لكتاب الله، قيل: إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفـه؟ قال: اتركوا قولى لخبر رسول الله ﷺ، وقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولى لقول الصحابة.

وقال الربيع: سـمعت الشافـعى رحمه الله يقـول: إذا وجدتم فى كتـابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فخذوا سنة رسول الله ودعوا ما قلت.

وقال: إذا صح الحديث بما يخالف قولى فاضربوا بقولى الحائط.

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وتقدم له مـثل ذلك، فلا عذر لمقلد بـعد هذا، ولو استـقصينا كـلام العلماء فى هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى.[1]

قوله: «لعله إذا رد بعض قوله» أى: قول رسول الله ﷺ: **«أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك»** نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (الصف: ٥).

قال شـيخ الإسلام رحمـه الله فى معنى قـول الله تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**﴾ (النور: ٦٣): فإذا كـان المخالف لأمره قـد حُذر من الكفر والشـرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الـكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليـم هو مجرد فـعل المعصـية، فـإفضاؤه إلى الكـفر إنما هو لما يقـترن به من الاستخفاف فى حق الأمر، كما فعل إبليس لعنه الله تعالى. اهـ.

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾ قال: «يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه».[2]

قال أبو جعـفر ابن جرير: أدخلت ﴿**عَنْ**﴾ لأن معنى الكلام: فليـحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين.

قوله: «أو يصيبهم» فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

---

(١) فى قرة العيون: فعلى من اشـتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر فى أقوال المخالفين، وما استدلوا بـه فيكون متبعاً للدليل مع من كان معه. وبالله التوفيق. (الفقي).

(٢) **ضعيف جداً**: أخرجه ابن جرير (٢٦٢٦٥) من طريق عمرو بن قيس عن جُويبر عن الضحاك به. وجويبر متروك.

وعن عدى بن حاتم: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذى وحسنه.

قوله: (وعن عدى بن حاتم: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم»[1] رواه أحمد والترمذى وحسنه).

هذا الحديث قد روى من طرق، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى.

قوله: «عن عدى بن حاتم» أى الطائى المشهور، وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد ابن الحشرج -بفتح الحاء- المشهور بالسخاء والكرم، قدم عدى على النبى ﷺ فى شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم، وعاش مائة وعشرين سنة.

قوله: «وعن عدي بن حاتم ....».

يستفاد من الحديث:

١- أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.

٢- أن الطاعة فى مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما فى عبادة الله، فهى عبادة لله.

٣- أن اتباع العلماء والعباد فى مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً. واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء فى تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم فى ذلك راضياً بقولهم، مُقدماً له، ساخطاً لحكم الله، فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله، فأحبط الله عمله، ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله، فهو كافر.

الثانى: أن يتابعهم فى ذلك راضياً بحكم الله وعالماً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد ولكن لهوى فى نفسه اختاره، كأنه يريد مثلاً وظيفة، فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلاً، فيظن أن ذلك حكم الله، فينقسم إلى قسمين:

---

(١) سبق تخريجه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:١٢١). وهذا قد وقع فيه كثيرمن الناس مع من قلدوهم، لعدم

أ- أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه، فهو مفرط أو مقصر، فهو آثم، لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب- أن لا يكون عالماً ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق، فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أُمر به وكان معذوراً بذلك، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن من أُفتي بغير علم، فإنما إثمه على من أفتاه**» لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره، لَلَزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل: لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟ **أجيب:** إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله.

فائدة: وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١- قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤).

٢- وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥).

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧).

واختلف أهل العلم في ذلك: فقيل: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد، لأن الكافر ظالم، لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة:٢٥٤)، وفاسق، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ (السجدة:٢٠) أي: كفروا. وقيل: إنها لموصوفين مُتَعدِّدين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فيكون كافراً في ثلاثة أحوال:

أ- إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ (المائدة:٥٠)، فكل ما خالف حكم الله، فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التى أنكرها عدى.

اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلَّد، وهو من هذا الشرك، ومنهم من يغلو فى ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل -والحالة هذه- يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة، ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام، كما قال شيخنا رحمه الله فى المسائل: فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية، فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هى العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين.

ب- إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

جـ- إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠)، فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقرراً ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (التين: ٨)، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكم الحاكمين، فمن ادعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

ويكون ظالماً: إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله، فهو ظالم.

ويكون فاسقاً: إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى فى نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق، لكن حكم بغيره لهوى فى نفسه، أى: محبة لما حكم به لا كراهة لحكم الله ولا ليضر أحداً به مثل أن يحكم لشخص لرشوة رُشى إياها أو لكونه قريباً أوصديقاً أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق، وإن كان أيضاً ظالماً، لكن وصف الفسق فى حقه أولى من وصف الظلم. أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر، فنعنى بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر. ولكن قد يكون الواضع له معذوراً، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس. فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى ما يصلح

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرا، وقد قال تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (القصص: ٥٠).

الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب على الناس، فهذا لا شيء فيه، وهذا لاشك في خطئه، فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا، فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لاشك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث، وغيرها، فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة: ٣)، وكيف يقال: إن المعاملات لا تعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟!

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء، لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين الناس إلا وفي كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم وهذا قصور، أو نقص التدبر وهذا تقصير. أما إذا وُفِّق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلى الحق، فلابد أن يصل إليه حتى في المعاملات: قال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾ (النساء: ٨٢)، وقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ**﴾ (المؤمنون: ٦٨)، وقال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ (ص: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ (النحل: ٨٩)، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه، فإن القرآن بينه بياناً شافياً.

ومن سَنَّ قوانين تخالف الشريعة وادَّعى أنها من المصالح المرسلة، فهو كاذب في دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها؛ فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع؛ فهو مصلحة، وما نفاه، فليس بمصلحة، وما سكت عنه؛ فهو عفو.

والمصالح المرسلة تَوَسَّع فيها كثير من الناس؛ فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها؛ كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذًا للهمم وتنشيطًا للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمدًا عبده ورسوله ويصلون عليه، والذي لا يَحْيَا قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يَحْيَا قلبه

وعن زياد بن حُدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: «هل تعرف ما يهدمُ الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زَلَّة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين»[1]. رواه الدارمي.

بساعة يُؤْتَى فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟! فهذا مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار؛ فلاشك أن مرادهم نَصْر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده أولئك العلماء وتوسع فيها، وعليه؛ فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن اعتبرها الشرع قُبلت، وإلا؛ فكما قال الإمام مالك «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات. وليعلم أنه يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام؛ فلا يتسرع في البَتِّ بها خصوصًا في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا رَوِيَّة، مع أن الإنسان إذا كفَّر شخصًا ولم يكن الشخص أهلاً له؛ عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة؛ فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في حقه يجب أن لا نَجْبُن عن تكفير من كَفَّره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المُعَيَّن وغير المُعَيَّن؛ فالمعيَّن يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١- ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢- انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مكفر، فإن كان جاهلاً، فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم، هذا وهو إقامة حد وليس بتكفير، والتحرز من التكفير أولى وأحرى. قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ (التوبة:١١٥)، ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفر، لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (النحل:١٠٦)، ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكه: «اللهم! أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»، فلم يؤاخذ بذلك.

---

(١) سبق تخريجه.

الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عـند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعـمال، وتسـمى الولاية، وعبادة الأحـبار هى العلم والفـقه، ثم تغـيرت الأحوال إلى أن عبـد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبـد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين.

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

قوله: (الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال.. إلخ):

يقول المؤلف رحمه الله تعالى: تغيرت الأحـوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال... وهذا لاشك أنه أشـد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبى بكر وعمر، ثم قـال: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد مـن دون الله مَنْ ليس من الصالحين»، أى: يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمنزلة أبى بكر وعمر.

ثم قال: «**وعبد بالمعنى الثانى**»: وهو الطاعة والاتباع، «**مَنْ هو من الجاهلين**»، فأطيع الجاهل فى تحليل مـا حرم الله وتحريـم ما أحل الله، كمـا يوجد فى بعض الـنظم والقوانين المخـالفة للشريعة الإسـلامية، فإن واضعـيها جهال لا يعرفـون من الشريعة ولا الأديان شيئـاً، فصاروا يُعبدون بهذا المعنى، فيطاعون فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا فى زمان المؤلف، فكيف بزمـاننا؟! وقد قال النبى ﷺ فيمـا رواه البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، «**لا يأتى زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**»، وقال النبى ﷺ للصحابة: «**ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**» وعصر الصـحابة أقرب إلى الهدى مَنْ عصر من بعدهم.

والناس لا يُحسُّـون بالتغيـر، لأن الأمور تأتى رويداً رويداً، ولو غاب أحـد مدة طويلة ثم جاء، لوجـد التغَير الكثـير المزعج -نسأل الله السـلامة- فعلينا الحـذر، وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يُحمى وأن يـصان، ولا يطاع أحد فى تحليل مـا حرم الله أو تحـريم ما أحل الله أبداً مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عباداً لله -عز وجل- تذللاً وتعبداً وطاعة.

بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

قوله: (بـاب

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ـ الآية).

قال العـماد ابن كـثير رحـمه الله تعـالى: والآية ذامة لمن عدل عن الكـتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا.

وتقدم مـا ذكره العلامـة ابن القيم رحمـه الله تعالى فى حده للطاغـوت، وأنه كل ما تجاوز به العـبد حده من معـبود أو متبـوع أو مطاع، فكل من حاكم إلى غيـر كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت الذى أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجـاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ، وأنزله منزلة لا يستحقها، وكـذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت، فـإن كان المعبود صالحاً صارت عـبادة العابد لـه راجعة إلى الشـيطان الذى أمره بهـا، كما قـال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (يونس:٢٨-٣٠). وكقـوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤٠،٤١). وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجراً أو حجراً أو قبـراً أو غير ذلك مما يتخذه المشركون أصناماً على صور الصالحين والملائكة وغـير ذلك، فهى من الطاغوت الذى أمر الله تعالى عـباده أن يكفروا بعبادته، ويـتبرأوا منه، ومن عبادة كل مـعبود سوى الله، كـائناً من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذى دعا إلى كل باطل وزَيّنه لمن فعله، وهذا ينافى التوحيد

هذا الباب له صلة قوية بما قبله، لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء فى تحليل مـا حرم الله أو تحـريم ما أحل الله، وهذا فـيه الإنكـار على من أراد التحـاكم إلى غيـر الله ورسوله، وقد ذكر الشيخ -رحمه الله- فيه أربع آيات:

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٥).

الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله. فالتوحيد هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: ٤). وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة مالا يستحقه.

قال الإمام مالك رحمه الله: «الطاغوت: ما عبد من دون الله».

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكاً فى الطاعة، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به فى قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: ٤٩). وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥). فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وكذّبهم فى زعمهم الإيمان لما فى ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ من نفى إيمانهم، فإن «يزعمون» إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما فى آية البقرة، فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً، والتوحيد هو أساس الإيمان الذى تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه، كما أن ذلك بين فى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ الآية (البقرة: ٢٥٦). وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

وقوله: « ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ » يبين تعالى فى هذه الآية: أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله. وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففى الآية أربعة أمور: **الأول**ـ أنه من إرادة الشيطان. **الثانى**ـ أنه ضلال. **الثالث**ـ تأكيده بالمصدر. **الرابع**ـ وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (النساء: ٦٠-٦٢).

وقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١).

فسبحان الله! ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين، صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: « ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ » بين تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه فى غاية البعد من الإيمان.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: هذا دليل على أن من دُعى إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين.

قوله: « ﴿يَصُدُّونَ﴾ » لازم وهو بمعنى يعرضون، لأن مصدره «صدوداً»، فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصاً ممن يدعى العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة فى تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذى لا تصح الفتوى إلا به، فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريباً، كما تقدم التنبيه على هذا فى الباب الذى قبل هذا.

فتدبر هذه الآية وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به فى أكثر الوقائع، والله المستعان.

وقوله: (﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾) قال أبو العالية فى الآية: يعنى لا تعصوا فى الأرض، لأن من عصى الله فى الأرض، أو أمر بمعصية الله،

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الإفساد فى الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسى مادى، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثانى: إفساد معنوى، وذلك بالمعاصى، فهى من أكبر الفساد فى الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)،

فقد أفسد فى الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله، وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (يوسف: ٧٠ - ٧٣). فدلت الآية على أن كل معصية فساد فى الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد فى الأرض.

وفى الآية: التنبيه عل عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء، وإن زخرفوها بالدعوى. وفيها: التحذير من الاغترار بالرأى، مالم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد فى الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها عن الحق وتدخله فى الباطل، نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة.

فتدبر تجد ذلك فى حال الأكثر إلا من عصمه الله، ومنَّ عليه بقوة داعى الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة: ٦٥-٦٦).

قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: وهذه دعوى من أبطل الدعاوى، حيث قالوا: ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح. ولهذا قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾: ﴿أَلا﴾: أداة استفتاح، والجملة مؤكدة بأربع مؤكدات، وهى: ﴿أَلا﴾، و ﴿إِنَّ﴾، وضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، والجملة الاسمية، فالله قابل حصرهم بأعظم منه، فهؤلاء الذين يفسدون فى الأرض ويدَّعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

ومناسبة الآية للباب ظاهرة، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد فى الأرض.

وقوله: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦).

وقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠).

قوله: (﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾) قال أبو بكر بن عياش فى الآية: إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض وهم فى فساد، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض.

وقال ابن القيم رحمه الله: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصى، والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به، هو أعظم فساد فى الأرض، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ، هو أعظم فساد فى الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصية وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح فى الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر فى العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله ﷺ، والدعوة إلى غير الله ورسوله. اهـ.

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصى، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو سبيل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: ١١٥).

قوله: وقال تعالى: (﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾).

قال ابن كثير رحمه الله: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذى

وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير.[1]

قوله: «﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾» استفهام إنكار، أي: لا حكم أحسن من حكمه تعالى، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر على كل شئ، الحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره؟

وفي الآية: التحذير من حكم الجاهلية، واختياره على حكم الله ورسوله، فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلى ضده من الباطل.

قوله: (وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: **«لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»**[2]. قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح).

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح، كما قاله المصنف رحمه الله عن النووي، ورواه الطبراني، وأبو بكر بن أبي عاصم، والحافظ أبو نعيم في «الأربعين» التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار، وشاهده في القرآن قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...﴾ الآية (النساء: ٦٥). وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦). وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (القصص: ٥٠). ونحو هذه الآيات.

قوله: «**لا يؤمن أحدكم**» أي: لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله

---

(١) ومثل هذا وشر منه من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله. ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها. (الفقي).

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، والهروي في «ذم الكلام» (٢/ ٤٠/ ٢)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٢٢/ ٢) وغيرهم، وراجع تعليق الشيخ على «كتاب السنة» (ص ١٢-١٣).

حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ». قال النووي: حديث صحيح. رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح.

أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» «الهوى» بالقصر، أي: ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه، فإن كان الذي تحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لا يخرج عنه إلى ما يخالفه، فهذه صفة أهل الإيمان المطلق، وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»(١، ٢) يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام، وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به(٣)، كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء:٩٢). والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها، أن الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصر، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة:١٤٣). أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله**»(٤) ـ الحديث، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) (٦٧٧٢)، ومسلم (٥٧) (١٠١) (١٠٢)، والنسائي (٨/ ٣١٣)، وأبو عوانة (١/ ١٩)، وابن حبان (١٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٤٣، ٣١٧، ٣٧٦، ٣٨٦، ٤٧٩)، وابن منده في «الإيمان» (٥١٠) (٥١١)، والبيهقي (١٠/ ١٨٦)، والبغوي (٤٦).

(٢) رواه البخاري ومسلم. (الفقي).

(٣) في قرة العيون: وهذا التوحيد الذي لا يشوبه شرك ولا كفر. وهذا هو الذي يذهب إليه أهل السنة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج يكفرون بالذنوب، والمعتزلون لا يطلقون عليه الإيمان ويقولون بتخليده في النار، وكلا الطائفتين ابتدع في الدين وترك ما دل عليه الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة. فقد أخرج البخاري وغيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير. ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير**». (الفقي).

(٤) سبق تخريجه.

فى الصحيحين والسنن، والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا...﴾ الآية (المدثر: ٣١). وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا...﴾ الآية (التوبة: ١٢٤). خلافاً لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق، كالأشاعرة، ومن المعلوم عقلا وشرعاً: أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق، وليس مع أهل البدع ما ينافى قول أهل السنة والجماعة، ولله الحمد والمنة، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ (البقرة: ١٧٧). أى: فيما عملوا به فى هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة، وشاهده فى كلام العرب قولهم: حملة صادقة، وقد سمى الله تعالى «الهوى» المخالف لما جاء به الرسول ﷺ «إلهاً»، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: ٤٣). قال بعض المفسرين: لا يهوى شيئاً إلا ركبه.

قال ابن رجب رحمه الله: أما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهى وغيرها، فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، وقد ورد القرآن بمثل هذا المعنى فى غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٢٨). فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه، كان ذلك فضلاً، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً، كان ذلك فضلاً، فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، فيرضى ما يرضى به الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، وترك ما يحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التى هى ركن العبادة إذا

وقال الشعبى: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودى: نتحاكم إلى محمد ـ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ـ وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود ـ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ـ فاتفقا أن يأتيا كاهناً فى جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية (النساء: ٦٠)[١].

كملت، فجميع المعاصى تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠). وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا سمى أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصى إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه، وكذلك حب الأشخاص: الواجبُ فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله[٢]، فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً، وبهذا يكون الدين كله لله. ومن أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه، كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب، فتجب التوبة من ذلك. انتهى ملخصاً.

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصى فى أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم.

قوله: (وقال الشعبى) هو عامر بن شُراحيل الكوفى، عالم أهل زمانه، وكان حافظاً علامة، ذا فنون، كان يقول: «ما كتبت سوداء فى بيضاء»[٣]، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة، وعاش بضعاً وثمانين سنة، قاله الذهبى.

وفيما قاله الشعبى ما يُبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى، ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان، كما هو الواقع فى هذه الأزمنة

---

(١) أخرجه ابن جرير (٩٨٩٦) وفيه إعضال.

(٢) لما روى البخارى وغيره: «ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف فى النار». (الفقي).

(٣) لشدة حفظه واستغنائه به عن الكتابة. (الفقي).

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلكَ؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.(١)

وقبلها من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان، ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...﴾ الآية (التحريم: ٩).

وفي قصة عمر رضي الله عنه وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق. وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له، والإظهار لعداوته، فانتقض به عهده، وحل به قتله.

وروى مسلم في «صحيحه» عن عمرو: سمعت جابراً يقول: قال رسول الله ﷺ: **«من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله، قال محمد بن مَسْلمة: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: ائذن لي فلأقل، قال: قل**، فأتاه فقال له، وذكر ما بينهما وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنَّانَا، فلما سمعه قال: وأيضاً والله لَتَملُّنَّه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شئ يصير أمره، قال: وقد أردتُ أن تُسلفني سلفاً، قال: فما ترهنني؟ قال: ما تريد، قال: ترهنني نساءكم؟ قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم، قال: يُسبُّ ابن أحدنا فيقال: رُهن في وَسْقين من تمر، ولكن نرهنك اللأمة -يعني السلاح- قال: فنعم، وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عبس بن جبر وعباد بن بشر، قال: فجاءوا فدعوه ليلاً فنزل إليهم -قال سفيان: قال غير عمرو: قالت له امرأته: إني أسمع صوتاً كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة(٢)، إن الكريم لو دعى

---

(١) **إسناده ضعيف جداً**: ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ٢٤٢) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وقد ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٥٥)، من طريق الكلبي. وعزاه الحافظ ابن حجر إلى «الثعلبي» من رواية الكلبي. والكلبي متروك.

(٢) قال النووي: هكذا هو في جميع النسخ. قال القاضي- رحمه الله-: قال لنا شيخنا القاضي الشهيد: صوابه أن يقال: إنما هو محمد ورضيعه أبو نائلة. وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعاً لمحمد بن مسلمة. ووقع في «صحيح البخاري»: «ورضيعي أبو نائلة». (الفقي).

فيه مسائل

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾.

الرابعة: تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

إلى طعنة ليلاً لأجاب- قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه، فإذا استمكنت منه فدونكم، قال: فلما نزل نزل وهو متوشح، فقالوا: نجد منك ريح طيب، قال: نعم، تحتي فلانة أعطر نساء العرب، قال: فتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم فَشُمَّ. فتناول فشم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه، ثم قال: دونكم، قال: فقتلوه»[1].

وفي قصة عمر: بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل، كما في «الصحيحين» وغيرهما أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس، فإنه قال: «**لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[2] فصلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) عن جابر.

بـــاب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات (*)

وقول الله تعـالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (الرعد: ٣٠).

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾).

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها، وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم «الرحـمن» عناداً، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (الإسراء: ١١٠) و«الرحمن» اسمه وصفته، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحـانه، وهي من صفات الكمال، فإذا كان المشركون جحـدوا اسماً من أسمائه تعالى، وهو من الأسـماء التي دلت على كمـاله سبحانه وبحـمده، فجحـود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك، فإن جَهْم بن صـفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا

الجَحْدُ: الإنكار، والإنكار نوعـان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بـلاشك، فلو أن أحداً أنكر اسماً من أسمـاء الله أو صفة من صفـاته الثابتـة في الكتاب والسنة، مثـل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يسـتو على عرشه، أو ليس له عين، فهو كافر بإجماع المسلمين، لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

١- أن يكون للتأويل مُسَوِّغ في اللغة العربية، فهذا لا يوجب الكفر.

٢- أن لا يكون له مُسَـوِّغ في اللغة العربية، فـهذا حكمه الكفر لأنه إذا لم يكـن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيبـاً، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر: ١٤) تجري بأراضينا، فهـذا كافر لأنه نفاها نفيـاً مطلقاً، فهو مكذب. ولو قـال في قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة: ٦٤)، المراد بيديه: السماوات والأرض، فهو كـفر أيضاً لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيـقة الشرعية، فهو مُنْكِر ومُكَذِّب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة، قال الشاعر:

وكَمْ لِظَلامِ الليلِ عِنْدَكَ مِن يَدٍ ... تُحَدِّثُ أنَّ المانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٧٥).

....

تدل على صفة قائمة بالله تعالى، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشـر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنهم بل حكاه قبله الطبراني

فقوله: «من يد»، أي: من نعمة، لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: «من الأسماء»: جمع اسم، واختلف في اشتقاقه، فقيل: من السُّمُو، وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر. وقيل: من السِّمَة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما. والمراد بالأسماء هنا أسماء الله -عز وجل-، وبالصفات صفات الله -عز وجل-، والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما اتصف به.

البحث في أسماء الله:

المبحث الأول: أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلاماً محضة، فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام، ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا، فالإنسان يسمى ابنه محمداً وعلياً دون أن يلحظ معنى الصفة، فقد يكون اسمه علياً وهو من أوضع الناس، أو عبد الله وهو من أكفر الناس، بخلاف أسماء الله، لأنها متضمنة للمعاني، فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا. ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تضمُّن، وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام، وهي دلالته على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢)، فعلمنا القدرة من كونه خلق السماوات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك أيضاً، لأن الخلق لابد فيه من علم، فمن لا يعلم لا يخلق، وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه؟!

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصَّلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً. هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه من

المبحث الثاني: أن أسماء الله مترادفة متباينة، المترادف: ما اختلف لفظه واتفق معناه، والمُتَباين: ما اختلف لفظه ومعناه، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله -عز وجل-، لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم، كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها، لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير، وهكذا.

المبحث الثالث: أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: **«اللهم! إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك ...** -إلى أن قال- **أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**، وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم فليس بمحصور. وأما قوله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»**، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: **«من أحصاها»** تكميل للجملة الأولى، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مئة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله، فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المئة، بل معناه أن هذه المئة مُعَدَّةٌ لهذا الشيء.

المبحث الرابع: الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق، فيجب علينا أن نؤمن به اسماً من الأسماء، ونؤمن بما تضمنه من الصفة، ونؤمن بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم متعدياً، فمثلاً: السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالى السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكماً وأثراً وهو أنه يسمع به، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ (المجادلة: ١)، أما إن كان الاسم غير متعد، كالعظيم، والحي والجليل، فتثبت الاسم والصفة، ولا حكم له يتعدى إليه.

المبحث الخامس: هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟ إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى، فهي غير الله -عز وجل-، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ، فهي المسمى.

صفات كماله، وشبهوه بالنقصات والجمادات والمعدومات، فشبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته، وهذا هو الذى عليه سلف الأمة وأئمتها، فأنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ، إثباتاً بلا تمثيل،

فمثلاً: الذى خلق السماوات والأرض هو الله، فالاسم هنا هو المُسَمَّى، فليست «اللام - والهاء» هى التى خلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله، فكتبت بسم الله، فالمراد به الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيداً. فضربت زيداً المكتوب فى الورقة لم تكن ممتثلاً، لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائم. فالمراد الاسم الذى هو غير المسمى.

البحث فى صفات الله:

المبحث الأول: تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية. **الثانى:** فعلية. **الثالث:** خبرية.

فالصفات الذاتية: هى الملازمة لذات الله، والتى لم يزل ولا يزال متصفاً بها، مثل: السمع والبصر وهى معنوية، لأن هذه الصفات معانى. والفعلية: هى التى تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل، فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هى أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله، فلا يقال هكذا، بل يقال: صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهى ليست معنىً ولا فعلاً، مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

المبحث الثانى: الصفات أوسع من الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسماً، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه، فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمى بالمتكلم أو المريد.

المبحث الثالث: أن كل ما وصف الله به نفسه، فهو حق على حقيقته، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف، أما التمثيل، فلقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، وقوله: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٧٤)، والتعبير بنفى التمثيل أحسن من التعبير بنفى التشبيه، لوجوه ثلاثة:

أحدها: أن التمثيل هو الذى جاء به القرآن وهو منفى مطلقاً، بخلاف التشبيه، فلم يأت القرآن بنفيه.

وتنزيهاً بلا تعطيل، فإن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات يحتذى حذوه، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا يشبهون صفاته بصفات خلقه، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يتناقضوا، وأولئك المعطلة كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك، وتناقضوا، فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل، ولله الحمد والمنة، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى فى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم فى إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت، كالإمام أحمد رحمه الله تعالى فى رده المشهور، وكتاب «السنة» لابنه عبد الله، وصاحب «الحيدة» عبد

الثانى: أن نفى التشبيه على الإطلاق لا يصح، لأن كل موجودين فلابد أن يكون بينهما قدر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به، فـ: «الحياة» مثلاً وصف ثابت فى الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا فى مسمى التشبيه، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التى أثبتها الله لنفسه تشبيهاً، فإذا قلنا من غير تشبيه، فَهِمَ هذا البعض من هذا القول نفى الصفات التى أثبتها الله لنفسه.

وأما التكييف، فلا يجوز أن نُكيف صفات الله، فمن كيَّف صفة من الصفات، فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده فيه، عاصٍ لأنه واقع فيما نهى الله عنه وحَرَّمه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦)، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأعراف:٣٣) الآية، ولأنه لا يمكن إدراك الكيفية، لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه:١١٠)، وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (الأنعام:١٠٣).

وسواء كان التكييف باللسان تعبيراً أو بالجنان تقديراً أو بالبنان تحريراً، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سُئل عن كيفية الاستواء: «الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة»، وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية، ولكنها ليست معلومة لنا، لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية، لكننا لا نعلمها، ففرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب، فنقول: لها كيفية، لكن غير معلومة. فإن قيل: كيف يُتصور أن نعتقد للشىء كيفية ونحن لا نعلمها؟ أجيب: إنه متصور، فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لا يعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها.

وفى صحيح البخارى قال عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يعرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنَ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟».

العزيز الكتانى فى رده على بشر المريسى، وكتاب «السنة» لأبى عبد الله المروزى، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد، وهو بشر المريسى، وكتاب «التوحيد» لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعى، وكتاب «السنة» لأبى بكر الخلال، وأبى عثمان الصابونى الشافعى، وشيخ الإسلام الأنصارى، وأبى عمر بن عبد البر النمرى، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث، ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى. فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء، والله أعلم.

قوله: (وفى صحيح البخارى عن عَلِيٍّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعرِفُونَ أَتُرِيدُونَ أَنَ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟»[(١)]).

«على» هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب، وأحد الخلفاء الراشدين، وسبب هذ القول ـ والله أعلم ـ ما حدث فى خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ، فيأتون فى قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل[(٢)]، فربما استنكرها بعض الناس وردها، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات: مناسبته ظاهرة، لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيئ عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا مع ثبوت العلو، فلو حدثت العامى بأنه نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذا نزل، صارت السماوات فوقه وصار العرش خالياً منه، وحينئذ لابد فى هذا من حديث تبلغه عقولهم فتُبين لهم أن الله -عز وجل- ينزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «من يدعونى فأستجيب له...» الحديث. والعامى يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله -عز وجل- فى هذه الساعة من الليل.

---

(١) أخرجه البخارى (١٢٧).

(٢) وقد كان هؤلاء القصاص لعدم تحريهم الصدق سبباً فى وضع كثير من الأحاديث على رسول الله ﷺ، ذكرها أئمة الجرح والتعديل، وحذروا الناس منها. ودونوا دواوين الصحاح والسنن والمسانيد. فلا ينبغى لأحد اليوم أن ينسب إلى النبى ﷺ حديثاً إلا بذكر من خرجه، وخير وأولى: أن يشفعه ببيان درجته من الصحة أو الضعف، إذا كان فى غير الصحيحين. (الفقى).

بعض المفاسد لذلك، فـأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحـدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس فى أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذى كلفوا به علماً وعملاً، دون ما يشغل عن ذلك، مما قد يؤدى إلى رد الحق وعدم قبوله، فيفضى بهم إلى التكذيب، ولا سيما مع اختلاف الناس فى وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كـان شيخنا المصنف رحمـه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفـعهم فى أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذى لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجـوزى، كالمنعش، والمرعش، والتبصرة، لما فى ذلك من الإعـراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغى اعتقاده، والمعصوم من عصمه الله.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه ينهى القصاص عن القصص، لما فى قصـصهم من الغرائب والتـساهل فى النقل وغـير ذلك، ويقول: «لا يقص إلا أمـير أو مأمور»[1]، وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علمـاً وعملاً ونية وقصـداً، وترك كل مـا كان وسـيلة إلى الخروج عنه من البـدع ووسائلهـا، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: (وروى عبد الرزاق، عن مَـعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيـه، عن ابن عباس: **«أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبى ﷺ فى الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَق هؤلاء؟ يجدون رقة عند مُحكمه ويهلكون عند مُتَشَابِهه»**[2]).

قوله: «وروى عبد الرزاق» هو ابن همام الصنعانى المحدث، محدث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهرى، وهو شيخ عبد الرزاق يروى عنه كثيراً.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦٦٦١)، والدارمى (٢/ ٣١٩)، وابن ماجه (٣٧٥٣)، وابن شبة فى «تاريخ المدينة» (١/ ٩) من طرق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به. وهذا إسناد حسن.
وله شاهد من حـديث عوف بن مالك؛ أخـرجه أحمد (٦/ ٢٩)، والبـزار (٢٧٦٢)، والطبرانى (١٨) (١٠٠)، وسنده جيد. وآخـر عن عبادة بن الصامت فى «الكبـير» للطبرانى وإسناده حسن كـما قال الهيـثمى فى «المجمع» (١/ ١٩٠). وشواهد أخرى يتقوى بها.
وصححه الشيخ فى «صحيح الجامع» (٧٧٥٣) (٧٧٥٤).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجـه عبد الرزاق (٢٠٨٩٥) وإسناده على شرطهـما. وأخرجـه ابن أبى عاصم فى «السنة» (٤٨٥) من طريق ابن ثور عن معمر به.
وقال الألبانى رحمه الله: إسناده صحيح.

عن ابن طاوس، عن أبيه. ....

ومَعْمَر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة بن أبى عَمرو، راشد الأزدى الحرانى ثم اليمانى، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهرى، يروى عنه كثيراً.

قوله: «عن ابن طاوس» هو عبد الله بن طاوس اليمانى، قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية، وقال ابن عُيينة: مات سنة اثنين وثلاثين ومائة.

قوله: «عن أبيه» هو طاوس بن كَيْسان الجندى - بفتح الجيم والنون - الإمام العلم، قيل: اسمه ذَكوان، قاله ابن الجوزى.

قلت: وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم، قال فى «تهذيب الكمال» عن الوليد الموقرى عن الزهرى قال: «قدمت على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهرى؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خَلَّفت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن رباح، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلت: من الموالى، قال: فَبِمَ سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية، قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا، قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى؟ قال: فَبِمَ سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغى ذلك، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى، عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مِهْران، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى، قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصرى، قال: فمن العرب، أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال قلت: إبراهيم النخعى، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهرى، فرجت عنى، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد، حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين مَن حفظه ساد ومن ضيعه سقط».

عن ابن عباس: «**أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَق هؤلاء؟ يجدون رقة عند مُحكمه ويهلكون عند متشابهه**» انتهى.

قوله: «عن ابن عباس» قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ، وقال: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[1]، وروى عنه أصحابه أئمة التفسير، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس وغيرهم.

قوله: «ما فرق هؤلاء؟» يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فَرَق أي خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين[2]، قال الذهبي: حدث وكيع، عن إسرائيل بحديث: «**إذا جلس الرب على الكرسي**»[3] فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وكيع، وقال: «أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها» أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب «الرد على الجهمية»، وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾ (البقرة: ٨٥). فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧). فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رضي الله عنهما تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله، فيحمله على غير معناه، كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يأول بعض آيات القرآن على

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال الشيخ -رحمه الله- في قرة عيون الموحدين: وقد ظهر من البدع في زمن ابن عباس بدعة القدرية كما في «صحيح مسلم» وغيره. فقتل من دعاتهم غيلان. قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفي القدر. ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية، فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بعد صلاة العيد بمكة. اهـ.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٨٥) وفيه ضعف وانقطاع.

ببدعته، وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم، فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً، ورد المتشابه إلى المحكم وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان، فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه

قال في «الدر المنثور»: أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا»**[1].

قال: وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ...﴾ الآية (آل عمران: ٧). قال: طلب القوم التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه، فهلكوا بين ذلك[2]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن

---

(١) حسن: أخرجه الطبري (٦٧)، وابن حبان (٧٤٥)، والطحاوي «مشكل» (٤/ ١٨٤)، والحاكم (١/ ٥٥٣)، من طريق حيوة بن شريح عن عقيل بن خالد عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود به. وإسناده رجاله ثقات، لكن فيه انقطاع. أبو سلمة لم يدرك ابن مسعود.

قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٢٩): قال ابن عبد البر: هذا حديث لا يثبت، لأنه من رواية أبي سلمة عن ابن مسعود، ولم يلق ابن مسعود، ثم قال: وصححه ابن حبان والحاكم وفي تصحيحه نظر، لانقطاعه بين أبي سلمة وابن مسعود، وقد أخرجه البيهقي من وجه آخر عن الزهري عن أبي سلمة مرسلاً وقال: هذا مرسل جيد.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٢٩٦) من طريق عمار بن مطر، حدثنا ليث بن سعد، عن الزهري عن سلمة بن عمر بن أبي سلمة عن أبيه أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن مسعود: إن الكتب..

وعمار بن مطر، قال الذهبي: هالك، وقال ابن حبان: كان يسرق الحديث، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٥٣): إسناده ضعيف جداً.

وأخرجه أحمد (١/ ٤٤٥)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص ١٨)، من طريق عثمان بن حسان عن فلفلة الجعفي عن ابن مسعود قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٥٣) وفيه عثمان بن حسان ذكره ابن أبي حاتم فلم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله ثقات. ولعله الحديث بهذه الطرق يحسن إن شاء الله.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦٦٠١) بسند صحيح.

أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قال: «منهن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات (الأنعام: ١٥١-١٥٣)، ومنهن: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى آخر الآيات (الإسراء: ٢٣-٣٩)» .[١]

وأخرج ابن جرير من طريق أبى مالك، عن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة ﷺ: «المحكمات: الناسخات التى يعمل بهن، والمتشابهات: المنسوخات» .[٢]

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يَعمُر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال أبو فاختة: «هن فواتح السور، منها يستخرج القرآن: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ (البقرة: ١، ٢) منها استخرجت البقرة، و﴿الٓمٓ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (آل عمران: ١، ٢) منها استخرجت آل عمران، وقال يحيى: هن اللاتى فيهن الفرائض، والأمر والنهى والحلال والحرام، والحدود وعماد الدين» .[٣،٤]

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: «الـ ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾ فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله بهن العباد، كما ابتلاهم بالحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق»[٥]. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان: «إنما قال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يعنى فيما بلغنا ﴿الٓمٓ﴾ (البقرة: ١). و﴿الٓمٓصٓ﴾ (الأعراف: ١). و ﴿الٓمٓر﴾ (الرعد: ١)».

قلت: وليس فى هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦٥٧٠) وفيه انقطاع.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦٥٧٣) وسنده حسن.

(٣) أخرجه ابن جرير (٦٥٨٦، ٦٥٨٨) من طريق عبد الوارث بن سعيد حدثنا إسحاق بن سويد به، وسنده صحيح.

(٤) تمام الأثر عند ابن جرير: «وضرب لذلك مثلاً. فقال: أم القرى مكة. وأم خراسان مرو. وأم المسافرين: الذى يجعلون إليه أمرهم: ويعنى بهم فى سفرهم. قال: فذاك أمهم». (الفقي).

(٥) أخرجه ابن جرير (٦٥٨٤) بسند حسن.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ (الرعد: ٣٠).

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شئ من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد. **الثالثة:** ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة، أنه يفضى إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه أهلكه.

قوله: (ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾). روى ابن جرير عن قتادة: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ذكر لنا أن النبى ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال مشركو قريش[1]: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فقال أصحاب رسول الله ﷺ، يا رسول الله دعنا نقاتلهم، فقال: لا، اكتبوا كما يريدون، إنى محمد بن عبد الله: فلما كتب الكاتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم، قال: لا، ولكن اكتبوا كما يريدون»[2]. وروى أيضاً عن مجاهد قال: قوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ قال: «هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشاً فى الحديبية، كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قالوا: لا نكتب الرحمن، ولا ندرى ما الرحمن؟ ولا نكتب إلا باسمك اللهم، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية»[3].

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو ساجداً: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الإسراء: ١١٠) الآية». [4]

(١) الذى كان يقول ذلك: هو سهيل بن عمرو الذى ندبته قريش ليتولى عنها عقد هذا الصلح مع رسول الله ﷺ. (الفقى).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٠٣٩٦) بسند صحيح إلى قتادة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠٣٩٧) بسند ضعيف.

(٤) سبق تخريجه.

بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل: ٨٣).

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

ذكر المصنف رحمه الله ما ذكر بعض العلماء فى معناها. وقال ابن جرير: فإن أهل التأويل اختلفوا فى المعنىّ بالنعمة، فذكر عن سفيان عن السدى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: «محمد ﷺ»[١]. وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عَدَّدَ الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.[٢]

وأخرج عن مجاهد: «﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: هى المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورّثونا إياه»[٣]. وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذى يرزقهم، ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا[٤].

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة، وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّيْنَوَرِى قاضى مصر[٥]، النحوى اللغوى، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره، فقد جعل معه شريكاً فى الربوبية، لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذى هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد، لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم -سبحانه وتعالى-، فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذى هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٦).

(١) ابن جرير (٢١٨٣٨) بسند صحيح إليه.

(٢) راجع «تفسير الطبرى» (٧/ ٦٢٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢١٨٤٠) بسند صحيح.

(٤) تفسير الطبرى (٧/ ٦٣٠).

(٥) لعله قاضي الدينور، فإنه لم يتول القضاء إلا فيها. (الفقي).

قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالى، ورثته عن آبائى».

وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان لم يكن كذا وكذا».

وقال ابن قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا».

وقال أبو العباس ـ بعد حديث زيد بن خالد، الذى فيه: «أن الله تعالى قال:

على علوم جمة، اشتغل ببغداد، وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته، توفى سنة ست وسبعين ومائتين.

وقال آخرون ما ذكره المصنف: (عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى) أبو عبد الله الكوفى الزاهد، عن أبيه وعائشة وابن عباس، وعنه قتادة وأبو الزبير والزهرى، وثقه أحمد وابن معين، قال البخارى: مات بعد العشرين ومائة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: «إنكارهم إياها، أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا». واختار ابن جرير القول الأول، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء فى معناها، وهو الصواب. والله أعلم.

قوله: (قال مجاهد) هو شيخ التفسير، الإمام الربانى، مجاهد بن جَبْر المكى مولى بنى مخزوم، قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت المصحف على ابن عباس مرات، أقفه عند كل آية، وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟ توفى سنة اثنين ومائة، وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله.

قوله: (وقال أبو العباس) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية،

قوله: «هو قول الرجل»: هذا من باب التغليب والتشريف، لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق بتوجيه الخطاب إليه منها، وإلا، فالحكم واحد.

قوله: «هذا مالى ورثته عن آبائى»: ظاهر هذه الكلمة أنه لا شىء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائى، فليس فيه شىء لأنه خبر محض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذى هو الإرث متناسياً المسبب الذى هو الله، فبتقدير الله -عز وجل- أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله -عز وجل- انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث، فكيف تتناسى المُسبِّب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم؟! فمن هنا صار هذا القول نوعاً من كفر النعمة.

(١) أخرجه ابن جرير (٢١٨٤٢) بسند ضعيف.

أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافر» ـ الحديث ـ وقد تقدم: «وهذا كثير فى الكتاب والسنة، يَذُمّ سبحانه مَن يُضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به».

قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثيرة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثيرة.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين فى القلب.

الإمام الجليل رحمه الله ـ (بعد حديث زيد بن خالد، وقد تقدم فى باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء ـ قال: وهذا كثير فى الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثيرة). اهـ.

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذى أنعم بها وأسند أسبابها إلى غيره، كما هو مذكور فى كلام المفسرين المذكور بعضه هنا.

قال شيخنا رحمه الله: وفيه اجتماع الضدين فى القلب، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق، فلا شىء فى ذلك، ولهذا ثبت أن النبى ﷺ قيل له يوم الفتح: «أتنزل فى دارك غداً؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع» فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث. فتبين أن هناك فرقاً بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسياً المسبب وهو الله -عز وجل-.

بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ (البقرة: ٢٢).

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾).

الند: المثل والنظير، وجعل الند لله: هو صرف أنواع العبادة -أو شيء منها- لغير الله، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم. وهذه الآية في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره: قال أبو العالية: لا تجعلوا لله أنداداً: أي عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد.[١]

وقال ابن عباس: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه[٢]، وكذلك قال قتادة.[٣] وعن قتادة ومجاهد ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله.[٤] وقال ابن زيد: «الأنداد» هي الآلهة التي جعلوا لها مثل ما جعلوا له[٥]، وعن ابن عباس ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أشباهاً.[٦] وقال مجاهد ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.[٧] وذكر حديثاً في معنى هذه الآية الكريمة، وهو ما في مسند أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٧٦).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٣٠) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٨٦)، وابن أبي حاتم (٢٣١)، من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.
وإسناده مضطرب وفيه محمد بن أبي محمد مجهول.

(٣) أخرجه ابن جرير (٤٨٧) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير (٤٨٢) عن ابن عباس وابن مسعود بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن جرير (٤٨٣).

(٦) أخرجه ابن جرير (٤٨٤)، وابن أبي حاتم (٢٢٨)، وفي سنده انقطاع.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٣٢) بسند ضعيف.

أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال له عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخى، إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعذب أو يخسف بى، قال: فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد وقُعد على الشرَف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، أولاهن: أن تعبدو الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورَق فجعل يعمل ويؤدى غَلّته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وآمركم بالصلاة، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده مالم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خَلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل يفتدى بالقليل والكثير حتى فَكَّ نفسه، وآمركم بذكر الله كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله» قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد فى سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيْدَ شبر فقد خلع ربْقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثَى[1] جهنم»، قالوا: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: «وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم التى سماهم الله عز وجل: المسلمين، المؤمنين، عباد الله»[2].

(١) الجثا: بضم الجيم وفتح الثاء المثلثة مقصوراً -جمع جثو بضم الجيم- وهو الشيء المجموع. قال ابن الأثير: وتروى هذه الكلمة «جثى» بضم الجيم وكسر الثاء وتشديد الياء- جمع جاث: و هو الذى يجلس على ركبتيه. (الفقي).

(٢) صحيح: اخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، والطيالسى (١١٦١) (١١٦٢)، وابن سعد (٤/ ٣٥٩)، والترمذى (٢٨٦٣) (٢٨٦٤)، وأبو يعلى (١٥٧١)، وابن خزيمة فى «صحيحه» (١٨٩٥)، وفى «التوحيد» (ص ١٥)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والآجرى فى «الشريعة» (ص ٨)، والطبرانى فى «الكبير» (٣٤٢٨)، وابن منده (٢١٢)، والنسائى فى «الكبرى» (١١٣٤٩)، وفى «التفسير» (٣٦٩)، والحاكم (١/ ٤٢١)، وصححه الشيخ الألبانى.

قال ابن عباس فى الآية: «**الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتى، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك**» رواه ابن أبى حاتم.

وهذا حديث حسن، والشاهد منه فى هذه الآية قوله: «**إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً**» وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى، والآيات الدالة على هذا المقام فى القرآن كثيرة جداً، وسئل أبو نواس عن ذلك، فأنشد:

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لُجين ناظرات ... بأحداث هى الذهب السبيك

على قضب الزبد جد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً، كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد؟

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

قوله: (قال ابن عباس فى الآية: «**الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتى، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك**»[1] رواه ابن أبى حاتم). بيّن ابن عباس ﷺ، أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك، فتنبه لهذه الأمور، فإنها من المنكر العظيم الذى يجب النهى عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر، وهذا من ابن عباس ﷺ تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم (٢٢٩) وسنده حسن.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حَلَفَ بِغَيرِ الله فَقَد كَفَر أو أشرَكَ» رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً».

قوله: (وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حَلَفَ بِغَيرِ الله فَقَد كَفَر أو أشرَكَ»[١] رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم).[٢]

قوله: «فقد كفر أو أشرك» يحتمل أن يكون شكاً من الراوي، ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر، وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ.

قوله: (وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً»[٣]).

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر، كما تقدم بيان ذلك، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر، فكيف بالشرك

قوله: «أحب إليَّ»: هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام؛ لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتًا في المُفَضَّل وفي المُفضل عليه، وأحيانًا في المفضل دون المفضل عليه، وأحيانًا لا يوجد في الجانبين؛ فابن مسعود رضي الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبًا أهون عليه من الحلف بغيره صادقًا، فالحلف كاذبًا بالله مُحرَّم من وجهين:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٤-١٢٥)، والطيالسي (١٨٩٦)، والطحاوي (٨٢٦)، والحاكم (١/ ٥٢).
وأصله في «صحيح مسلم» (١٦٤٦)، والترمذي (١٥٣٣)، والنسائي (٧/ ٤)، وابن ماجه (٢٠٩٤)، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ سمع عمر يقول: وأبي وأمي فقال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم».

(٢) وذلك لأن حقيقة اليمين والقصد منه: إنما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم بالمحلوف به الذي يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه إن كان كاذباً. ولذلك ترى أكثر العامة يحلفون بالله كذباً غير مبالين. فإذا استحلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء ويعتقدون له السر والتصرف تكعكعوا وصدقوا وإن كان في ذلك ذهاب بعض ما يحرصون عليه من منفعة، يضحون بها خوفاً من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولي فيهم. ويؤكدون اعتقادهم هذا بحكايات مكذوبة يذيعها سدنة هذه المعابد الوثنية لجر النفع المادي باعتقاد العامة في أوليائهم. فيحكون أن رجلاً سرق سمكة مملحة، وأكلها فاستحلفه المسروق منه بالله فأقسم بالله ثلاث مرات بأنه لم يأخذها ولم يرها فلم يحصل له شيء. فاستحلفه بأحمد البدوي، فما كاد يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها. وذلك منهم اعتقاد أن البدوي أغير وأعز وأقدر من الله الحي القيوم. قبحهم الله وأخزاهم. (الفقي).

(٣) أخرجه الطبراني (٨٩٠٢)، وضعف إسناده الشيخ الألباني -رحمه الله-.

الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كـدعوة غير الله، والاستغاثة بـه، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كـما هو حال الأكثـر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قـبلها، من تعظيم القبـور، واتخاذها أوثاناً، والبناء عليـها، واتخاذها مـساجد، وبناء المشـاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال، وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهى عن هذا الشرك وما يوصل إليـه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٣٧). كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعـونه من دونه فى دار الدنيا، وقد قـال تعـالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن: ١٨). وقال تعـالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (الجن: ٢٠، ٢١). وهؤلاء المشركـون عكسوا الأمر، فخـالفوا ما بلغه الـرسول الأمة وأخـبر به عن نفـسه ﷺ، فعـاملوه بما نهاهم عنه مـن الشرك بالله والتعلق على غير الله، حتى قال قائلهم:

يا أكـرم الخلـق مـا لى من ألوذ بــه	ســـواك عند حلول الحـادث العـمم
إن لم تكن فى مـعـادى آخـذاً بيـدى	فـضــلا، وإلا فـقــل: يـا زلة القــدم
فـإن مـن جـودك الدنيـا وضـرتهـا	ومن علـومـك علـم اللـوح والقلم

١- أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢- أن هذا الكذب قُرن باليمـين، واليمين تعظيم لله -عزَّ وجلَّ-، فإذا كان على كذب صار فيه شىء من تَنَقصٍ لله -عزَّ وجلَّ-، حيث جعل اسمه مُـؤَكِّدًا لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذبًا عند بعض أهل العلم من اليمين الغَمُوس التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار.

وأما الحلف بغـير الله صادقًا؛ فهـو محرم من وجه واحـد وهو الشرك، لكن سيـئة الشرك أعظم من سيـئة الكذب، وأعظم من سيئـة الحلف بالله كاذبًا، وأعظم من اليميـن الغموس إذا قلنا: إن الحلف بالله كاذبًا من اليـمين الغمـوس؛ لأن الشرك لا يغفر، قـال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: ١١٦)، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشـرك، فهو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، وسئل النبى ﷺ: أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»، والشرك متضمن للـكذب، فإن الذى جعل غير الله شريكًا لله كاذب، بل من أكذب الكاذبين؛ لأن الله لا شريك له.

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَمَا شَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**» رواه أبو داود بسند صحيح.

وجاء عن إبراهيم النخعي، أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: «ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا لولا الله وفلان».

فانظر إلى هذا الجهل العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهى عنه ﷺ بقوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1] رواه مالك وغيره[2]، وقد قال تعالى: ﴿**قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ (الأنعام: ٥٠).

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة، والمحادة لله ورسوله، وهذا الذي يقوله هذا الشاعر[3] هو الذي في نفوس كثير، خصوصاً ممن يدعون العلم والمعرفة، ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قوله: (وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَمَا شَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**»[4] رواه أبو داود بسند صحيح).

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، وتسوية المخلوق بالخالق شرك إن كان في الأصغر -مثل هذا- فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر، كما قال الله تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الشعراء: ٩٧، ٩٨). بخلاف المعطوف بثم فإن المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهلة، فلا محذور لكونه صار تابعاً.

قوله: (**وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا لولا الله وفلان**).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس عن عمر في باب قول الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ**﴾ من كتاب أحاديث الأنبياء وفي كتاب الحدود في باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت. قال الحافظ في الفتح (جـ٦ ص ٣١٤)، تقول: أطريت فلاناً، مدحته فأفرطت في مدحه. (الفقي).

(٣) هو البوصيري في قصيدته المشهورة بالبردة، التي هي عند الناس بمنزلة القرآن، وربما عظمها بعضهم أكثر. فإنه يواظب على قراءتها أكثر مما يواظب على قراءة القرآن. (الفقي).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٤)، وأبو داود (٤٩٨٠)، والطيالسي (٤٣٠)، والنسائي «عمل اليوم» (٩٨٥)، والدينوري في «مجالسه» (١٩٨٨)، والبيهقي (٣/ ٢١٦)، وفي «الأسماء» (ص ٤٤)، وهو صحيح: انظر «الصحيحة» (١٣٧).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة فى الأنداد.

الثانية: أن الصحابة ﷺ يفسرون الآية النازلة فى الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم فى اللفظ.

وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك، وهذا إنما هو فى الحى الحاضر الذى له قدرة وسبب فى الشىء، وهو الذى يجرى فى حقه مثل ذلك، وأما فى حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر، فلا يقال فى حقهم شئ من ذلك، فلا يجوز التعلق عليه بشئ ما بوجه من الوجوه، والقرآن يبين ذلك وينادى بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئاً من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله، أو عمله الباطن أو الظاهر، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه. وبالله التوفيق.

والعلم لا يؤخذ قسراً، وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم فى قوله:

أخي، لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص، واجتهاد وبلغة ... وإرشاد أستاد، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة: من رزقه الله تعالى الفهم و الحفظ، وأتعب نفسه فى تحصيله فالله الموفق لمن شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٣). وقد أحسن العلامة ابن القيم -رحمه الله- قال:

والجهل داء قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان

نص من القرآن أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالقرآن

والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله (*)

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَحلِفُوا بِآبائِكُم، مَن حَلَفَ بالله

قوله: (باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)

(عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَحلفُوا بآبائكُم، مَن حَلَفَ بالله فَلْيَصدُق وَمَن حُلِفَ لَهُ بالله فَليَرضَ، وَمَن لَم يَرضَ فَلَيسَ مِنَ الله»(١). رواه ابن ماجه بسند حسن).

قوله: «لا تحلفوا بآبائكم» تقدم النهى عن الحلف بغير الله عموماً.

قوله: «من حلف له بالله فليصدق» هذا مما أوجبه الله على عباده، وحضهم عليه فى كتابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩). وقال: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ (الاحزاب: ٣٥). وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (محمد: ٢١). وهو حال أهل البر، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله؛ لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به؛ فيكون من تعظيم المحلوف به أن يُصدَّق ذلك الحالف، وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله، وهذا ينافى كمال التوحيد، والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية؛ فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضى الحكم الشرعى.

الثانى: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة؛ فإنك ترضى بيمينه، وإن كان غير ذلك؛ فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لما قال النبى ﷺ لِحُوَيِّصَة ومُحَيِّصَة: «تبرئكم يهود بخمسين يمينًا. قالوا: كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود». فأقرهم النبى ﷺ على ذلك.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٧).

(١) سبق تخريجه.

فَلْيَصدُقْ وَمَن حُـلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرضَ، وَمَن لَم يَرضَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ». رواه ابن ماجه بسند حسن.

فيه مسائل:

الأولى: النهى عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

وقوله: «ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا، وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما فى الأثر عن عمر رضي الله عنه: «ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً».

وفيه: من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم، وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله، ثم إنه يدخل فى حسن الخلق الذى هو أثقل ما يوضع فى ميزان العبد، كما فى الحديث[1]، وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه، وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم، فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال، وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور فى كتب الأدب وغيرها، فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغى العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك، دل على وفور دينه، وكمال عقله، والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين، والله أعلم.

---

(١) رواه الترمذى - وقال: حسن صحيح- وابن حبان، عن أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**» ورواه أبو داود مختصراً. (الفقي).

باب قول ما شاء الله وشئت (*)

عن قُتَيلة «أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت،

قوله: (باب قول ما شاء الله وشئت)

(عن قُتَيلة «أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وَرَبِّ الكَعْبَة، وأن يقولوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئت»[1] رواه النسائى وصححه).

قوله: «عن قتيلة» بمثناة مصغرة بنت صيفى الأنصارية صحابية مهاجرة، لها حديث فى سنن النسائى، وهو المذكور فى الباب، ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفى.

وفيه: قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان. وفيه: بيان النهى عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التى حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة، وهذا يبين أن النهى عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شىء، لا لملك مقرب، ولا نبى مرسل، ولا للكعبة التى هى بيت الله فى أرضه، وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها مالا يقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة، فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع، فميِّز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

قوله: «إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت» والعبد وإن كانت له مشيئة

ويستفاد من الحديث:

١- أن النبى ﷺ لم ينكر على اليهودى مع أن ظاهر قصده الذَّمَّ واللَّومَ للنبى ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

٢- مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نَبَّه عليه ليس من أهل الحق.

٣- أنه ينبغى عند تغيير الشىء أن يغير إلى شىء قريب منه؛ لأن النبى ﷺ أمرهم أن يقولوا: «ورب الكعبة»، ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: «ما شاء الله، ثم شئت».

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٧).

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢)، وابن سعد (٨/ ٣٠٩)، والنسائى «عمل اليوم» (٩٨٦) (٩٨٧)، والحاكم (٤/ ٢٩٧)، والطبرانى (٢٥/ ٥، ٦، ٧)، وصحح بعض طرقه الحافظ فى «الإصابة» (٨/ ٧٩).

وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وَرَبِّ الكَعبَة، وأن يقولوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئت» رواه النسائي وصححه.

فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٨، ٢٩). وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الإنسان: ٢٩، ٣٠). وفي هذه الآيات والحديث: الرد على القدرية والمعتزلة نُفاة القدر، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه، وسيأتي ما يبطل قولهم في «باب ما جاء في منكري القدر» إن شاء الله تعالى، وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شئ مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه، من أفعال العباد وأقوالهم، فالكل بمشيئة الله وإرادته، فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ...﴾ الآية (الزمر: ٧).

وفيه: بيان أن الحلف بالكعبة شرك، فإن النبي ﷺ أقر اليهودي على قوله: «إنكم تشركون».

إشكال وجوابه:

وهو أن يقال: كيف لم يُتَنَبَّه على هذا العمل إلا هذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم؛ فكيف يقرهم؟ فيبقى الإشكال، لكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر؛ فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركًا أكبر ولا يرون عيبهم.

قوله: في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ».

الظاهر أنه قال للنبي ﷺ تعظيمًا، وأنه جعل الأمر مُفَوَّضًا لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

وله أيضاً عن ابن عـباس: «**أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شـاء الله وشئت، فـقال: أجَعَلتَنِي لله نداً؟ بل مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ**».

ولابن ماجه عن الطفيل ـ أخي عـائشة لأمها ـ قال: «**رأيت كأني أتيت على نفر من اليهـود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لـولا أنكم تقولون: عزير ابـن الله، قالوا: وأنتم**

قوله: (وله أيضاً عن ابن عباس[1]: «**أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشـئت، فقال: أجَعَلتَنِي لله نداً؟ بل مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ**»[2]).

هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك، لوجود التسوية في العطف بالواو.

وقوله: «**أجعلتني لله نداً؟**» فيه بيان أن من سوّى العبـد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله، شـاء أم أبى، خلافاً لما يقوله الجـاهلون مما يختص بالله تعالى من عـبادة، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه، و«**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[3].

قوله:[4] (ولابن ماجه عن الطفيل -أخي عـائشة لأمها- قال: «**رأيت فيـما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليـهود، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن اليـهود، قلت: إنكم لأنتم القوم،**

يستفاد من الحديث:

١- أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مسـاواته للخالق شرك، فإن كان يعتقـد المساواة؛ فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك؛ فـهو أصغر، وإذا كان هذا شركًا؛ فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ ؟!

هذا أعظم؛ لأنه ﷺ ليس له شيء مـن خـصـائص الربوبيـة، بل يلبـس الدرع، ويحـمل السلاح، ويجـوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبـقية الناس، ولكن الله فَضَّلَه على الـبشر بما أُوحي إليه من هذا الشرع العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ فهو بشر، وأكَّد هذه

---

(١) قال ابن كثير: (جـ١ ص ١٠٤) وقال سفيـان بن سعيد الثوري، عن الأجلح، عن يـزيد بن الأصم، عن ابن عباس وساقه. رواه ابن مردويه، وأخرجه النسائي وابـن ماجه من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح عنه. وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد. والله أعلم. (الفقي).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٧١) (٣١١٦) (٣٦٤١) (٧٣١٢) (٧٤٦٠)، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية رضي الله عنه.

(٤) قال ابن كثير في «التـفسير» (جـ١ ص١٠٣): وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبـد الملك بن عمير، عن ربعي بن خراش، عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها -وساقه- ثم قال: -هكذا رواه ابن مردويه في تفسير الآية. وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه. (الفقي).

لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هَل أَخبَرت بهَا أَحَداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أَمَّا بَعدُ فَإِنَّ طُفَيلاً رَأى رُؤيَا أَخبَر بهَا مَن أَخبَرَ

لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هَل أَخبَرت بهَا أَحَداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أَمَّا بَعدُ فَإِنَّ طُفَيلاً رَأى رُؤيَا أَخبَر بهَا مَن أَخبَرَ منكُم، وإِنَّكُم قُلتُم كَلمَةً يَمنَعُنى كَذا وكَذا أن أَنهَاكُم عَنهَا، فَلا تقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكن مَا شَاءَ اللهُ وَحَدهُ»[1].

قوله: «عن الطفيل أخي عائشة لأمها» هو الطفيل بن عبد الله بن سَخْبرة أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب.

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها، فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: «ما شاء الله وحده»، وهذا الحديث والذي قبله

البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: ١١٠)، ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلى خصائص الربوبية؛ فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعى ذلك؛ فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها، ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولكننا لا ننزله منزلة الرب -عزَّ وجلَّ-.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٠٦٩٤)، والدارمي (٢٦٩٩)، وابن ماجه (٢١١٨)، والنسائي في «عمل اليوم» (٩٨٥) (٩٨٦)، والطحاوي «مشكل» (٢٣٦)، والطبراني (٨٢١٥)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ٥٠)، والحاكم (٣/ ٤٦٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٢) - راجع «الصحيحة» (١٣٧).

منكُم، وإنَّكُم قُلتُم كَلمَةً يَمنَعُنِى كَذا وكَذا أَن أَنهَـاكُم عَنها، فَلا تقُولُوا: مَـا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ولَكِن مَا شَاءَ اللهُ وحده».

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله ﷺ: «**أجعلتنى لله ندا؟**» فكيف بمن قال: «يَا أَكرَمَ الخَلقِ مَا لِى مَن أَلُوذُ به سِوَاكَ» والبيتين بعده.

أمرهم فيه أن يقولوا: «**ما شـاء الله وحده**»، ولا ريب أن هذا أكمل فى الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: «**ثم شـاء فلان**» لأن فيه التصريح بالتـوحيد المنافى للتنديد من كل وجه، فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال فى مقام التوحيد والإخلاص.

قوله: «**كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهـاكم عنها**» ورد فى بعض الطرق: «**أنه كـان يمنعه الحياء منهم**»(1، 2)، وبعد هذا الحـديث الذى حدثه به الطفيـل عن رؤياه خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهيـاً بليغاً، فـما زال ﷺ يبلغهم حـتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعـمة، وبلّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

٢ - إنكار المنكر وإن كان فى أمر يتـعلق بالمنكر؛ لقوله ﷺ: «**أجعلتنى لله نداً؟!**» مع أنه فـعل ذلك تعظيمًـا للنبى ﷺ، وعلى هذا إذا انحنى لك شـخص عند السلام؛ فـالواجب عليك الإنكار.

---

(١) بعض روايات أحمد، راجع الحديث السابق.

(٢) لعل الذى كان يمنعه ﷺ أنه لم يكن الله أوحى إليه فيها شيئاً. فلما أوحى إليه بلغه، أما الحياء فى تبليغ الأوامر والنواهى (*)، فهذا ما لا يليق برسول الله ﷺ، والله أعلم. (الفقي).

(*) قولـه: «أما الحيـاء فى تبليغ الأوامـر والنواهي» إلخ. أقول: هذا كـلام جيـد، والجواب عن الرواية التى ذكـرها الشارح وهى قوله (ورد فى بعض الطرق أنه كان يمنعه الحياء منهم) أن يقال إن صحت هذه الرواية فمعنى ذلك أنه كان -عليه الصلاة والسلام- يستحى منهم أن ينهـاهم عن شيء لم يُوحَ إليه أن ينهى عنه، وإن كان هو يستحسن تركه، فلما جاءه الوحى بالنهى عنه بسبب الرؤيا المذكورة نهاهم عن ذلك، كما أمرهم ﷺ بالتماس ليلة القدر فى السبع الأواخـر من رمضان لما تواطأت رؤياهم على أنها فى السـبع الأواخر، وكان ذلك سـبباً لشرعيـة مزيد الاجتهاد فى السبع المذكورة. (ابن باز).

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر؛ لقوله ﷺ: «يمنعنى كذا وكذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحى.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

وفيه معنى قوله ﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»**(١، ٢).

قلت: وإن كانت رؤيا منام فهى وحى، يثبت بها ما يثبت بالوحى أمراً ونهياً. والله أعلم.

---

٣ ـ أن من حسن الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ- أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قوله: **«ما شاء الله وشئت»** أرشده إلى الجائز، وهو قوله: **«بل ما شاء الله وحده»**.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٠٣٧) (١٢٢٧٢)، ومالك (٢/ ٩٥٦)، والبخارى (٦٩٨٣)، والنسائى «كبرى» (٧٦٢٤)، وابن ماجه (٣٨٩٣)، وابن حبان (٦٠٤٣)، والبغوى (٣٢٧٣) عن أنس.
وفى الباب حديث أبى هريرة، وابن عباس وغيرهما.

(٢) هذا الحديث إنما يخبر به النبى ﷺ عما كان يرى قبل النبوة (*) وهو يتحنث فى غار حراء من الرؤيا التى كانت تجيء مثل فلق الصبح. وذلك فى الدور الذى كان يهيئه الله فيه لتلقى الوحي. وكان ذلك الدور ستة أشهر. وهى بالنسبة إلى مدة النبوة الثلاثة والعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً منها، والله أعلم. (الفقي).

(*) قوله: (هذا الحديث إنما يخبر به النبى ﷺ عما كان يرى قبل النبوة) إلخ. يريد الشيخ حامد -رحمه الله- بهذا الكلام أن قول النبى ﷺ عن الرؤيا الصالحة أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، إنه خبر عما قد وقع ومضى، وليس الأمر كذلك، بل الروايات الواردة فى هذا الباب تدل على أن مراد النبى ﷺ، الخبر عن جنس الرؤيا فى الماضى والمستقبل وأنها تفيد وتحصل بها البشرى، وأن فائدتها جزء من أجزاء النبوة المتضمنة الإخبار عن المغيبات، ولهذا اختلفت ألفاظ الروايات فى ذلك، ففى بعضها جزء وأربعين جزءاً، وفى بعضها جزء من ستة وأربعين جزءاً، وفى بعضها جزء من سبعين جزءاً من النبوة، وفى بعضها غير ذلك، ولو كان المراد ما قاله الشيخ حامد لم تتنوع العبارات عنها، ووجه التنوع -والله أعلم- أن الرؤيا الصالحة فى حد ذاتها تختلف بحسب صلاح الرائى وما يكتنف رؤياه من القرائن والشواهد، الدالة على صدق الرؤيا، وقد نص العلماء على ما ذكرناه، قال النووى -رحمه الله- فى «شرح مسلم» ما نصه: (قال القاضى أشار الطبرى إلى أن هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف حال الرائى، فالمرء الصالح تكون رؤياه جزء من ستة وأربعين جزءاً، والفاسق جزء من سبعين جزءاً، وقيل: المراد أن الخفى منها جزء من سبعين، والجلى جزء من ستة وأربعين) ثم نقل عن الخطابى عن بعض أهل العلم نحو ما قاله الشيخ حامد، ثم نقل عن المازرى ما نصه: (وقيل: المراد للمنامات شبهًا مما حصل له وميِّز به من النبوة بجزء من ستة وأربعين) انتهى. والله أعلم. (ابن باز).

باب من سب الدهر فقد آذى الله (*)

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤).

قوله: (باب من سب الدهر فقد آذى الله)

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ الآية).

قال العماد ابن كثير فى «تفسيره»: يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية، المنكرون للصانع، المعتقدون أن فى

السَّب: الشتم، والتقبيح، والذم، وما أشبه ذلك.

الدَّهر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللَّوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود: ٧٧).

الثانى: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبِّه الدهر أن الدهر هو الذى يُقلِّب الأمور إلى الخير والشر؛ فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقًا؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقًا؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلهًا يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفَه فى العقل والضلال فى الدين؛ لأن حقيقة سبِّه تعود إلى الله -سبحانه-؛ لأن الله تعالى هو الذى يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلاً، وليس هذا السب يُكفِّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٧).

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهرَ وَأَنَا الدَّهرُ أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ**».

كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ قال الله تعالى: ﴿**وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون، فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**»[١،٢]، وفي رواية «**لا تسبوا الدهر فإني أنا الدهر**»[٣]، وفي رواية «**لا يقل ابن آدم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما**»[٤،٥]. اهـ. قال في «شرح السنة»: حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة، قال: ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه مايصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر. اهـ باختصار.

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق[٦]، قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**»، وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن سريج بن النعمان، عن ابن عيينة مثله، ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعت

---

(١) أخرجه الحميدي (١٠٩٦)، والبخاري (٤٨٢٦) (٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبو داود (٥٢٧٤)، والنسائي «كبرى» (١١٦٨٧)، وأحمد (٧٢٤٥) (٧٦٨٣) (٧٧١٦) (٧٥١٨) (٧٦٨٢) (٧٩٨٨)، وابن حبان (٥٧١٥).

(٢) في ابن كثير: «أقلب ليله ونهاره». (الفقي).

(٣، ٤) انظر: صحيح مسلم (٢٢٤٦).

(٥) هذه الرواية ليست في نسخ ابن كثير المطبوعة بأيدينا. وهي في «تفسير البغوي». (الفقي).

(٦) أي من طريق: سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية ...» إلخ. (الفقي).

وفي رواية: «**لاَ تَسُبُّوا الدَّهرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهر**».

رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدى الليل والنهار**»، وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: استقرضت عبدى فلم يعطنى، ويسبنى عبدى، يقول: وادهراه، وأنا الدهر**»[1].

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**»: كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنما إنما سبوا الله سبحانه، لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله هو الدهر الذى يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل فى تفسيره - وهو المراد - والله أعلم.

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عَدِّهم «الدهر» من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث. اهـ.

وقد بين معناه فى الحديث بقوله: «**أُقَلِّبُ الليلِ والنهار**» وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى، وهى قوله: «**بيدى الأمر**».

قوله: (وفي رواية: «**لاَ تَسُبُّوا الدَّهرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهر**»).

معنى هذه الرواية: هو ما صرح به فى الحديث من قوله: «وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار» يعنى أن ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه فى ذلك غيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالواجب عند ذلك حمده فى الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨). وقال تعالى:

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٧٩٨٨)، وأبو يعلى (٦٤٦٦)، وابن خزيمة (٢٤٧٩)، والبخارى فى «خلق أفعال العباد» (٤٣٥)، والطبرى (٢٥/ ١٥٢)، من طريق ابن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة به. وإسناده حسن لأجل محمد بن إسحاق وقد صرح بالتحديث.

فيه مسائل:

الأولى: النهى عن سب الدهر.

الثانية: تسميته آذى لله.

الثالثة: التأمل فى قوله: «**فإن الله هو الدهر**».

الرابعة: أنه قد يكون ساباً، ولو لم يقصده بقلبه.

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥). ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة، كما فى أشعار المولدين، كابن المعتز والمتنبى وغيرهما، وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك، كقوله تعالى: **﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾** الآية (يوسف: ٤٨).
وقال بعض الشعراء:

إن الليالى من الزمان مهولة	**تطوى وتنشر بينها الأعمار**
فقصارهن مع الهموم طويلة	**وطوالهن مع السرور قصار**

وقال أبو تمام:

أعوام وصل كاد ينسى طيبها	**ذكر النوى، فكأنها أيام**
ثم انبرت أيام هجر أعقبت	**نحوى أسى، فكأنها أعوام**
ثم انقضت تلك السنون وأهلها	**فكأنها وكأنهم أحلام**

بـاب التسمى بقاضى القضاة ونحوه (*)

في الصـحيح عـن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِندَ الله رجلٌ تسمى مَلِكَ الأملاكِ، لاَ مَالكَ إلاَّ الله».

قوله: (باب التسمى بقاضى القضاة ونحـوه)

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياساً على ما في حديث الباب، لكونه شبيه في المعنى فينهى عنه.

قوله: (في الصـحيح عـن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِندَ الله رجلٌ تسمى مَلِكَ الأملاكِ، لاَ مَالكَ إلاَّ الله»[(١)(٢)]).

لأن هذا اللفظ إنما يصـدق على الله تعالى، فـهو ملك الأمـلاك، لا ملك أعظم ولا أكبر منه، مـالك الملك ذو الجلال والإكرام، وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عـباده فهو

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة»: أي: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أو رضاه به من غيره.

قوله: «قاضي القضاة»: قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة؛ أي: الحكام، و«أل» للعموم.

والمعنى: التسمي بحاكم الحُكَّام ونحوه، مـثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان؛ لأن القاضي جمع بيـن الإلزام والإفتاء، بخلاف المفتي؛ فهـو لا يُلزِم، ولهذا قالوا: القاضي جـمع بين الشهادة والإلزام والإفـتاء؛ فهو يشـهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه، ويفتي؛ أي: يخبر عن حكم الله وشرعه، ويُلزِم الخصمين بما حكم به.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن من تـسمى بهذا الاسم، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٧٨).

(١) رواه البخاري (٦ - ٦٢)، ومسلم (٢١٤٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، قال العزيزي في «الشـرح الكبير»: وفي الباب غيـره أيضاً. وفي قرة العيون: لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله فهو ملك الأمـلاك؛ لأنه هو الملك في الحقيقة، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير يتصرف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ الآية. فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظـم به الخالق جل وعلا، وما كان مثل ذلك فينـهى عنه كالذي ترجم به المصنف، لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله، فـلا يصلح أن يسمى به المخـلوق، لأن كل لفظ يقـتضي التعظيم والكمـال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره. (الفقي).

قال سفيان: مثل شاهنشاه.

عارية يسرع ردها إلى المعير، وهو الله تعالى، ينزع المَلكَ من مُلْكه تارة، وينزع المُلْكَ منه تارة[1]، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه، وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه، ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى، وما تكتبه الحفظة عليهم، فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما ورد فى الحديث: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله**»[2].

قوله: «قال سفيان» يعنى ابن عيينة: **«مثل شاهنشاه»**[3] عند العجم عبارة عن ملك الأملاك، ولهذا مثل به سفيان، لأنه عبارة عنه بلغة العجم.

فيما لا يستحقه إلا الله، لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضى القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله -سبحانه وتعالى-، فالله هو القاضى فوق كل قاضٍ، وهو الذى له الحكم، ويُرجَع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك فى القرآن.

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين:

١- قضاء كونى. ٢- قضاء شرعى.

---

(١) قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦). (الفقي).

(٢) **إسناده ضعيف جداً**: أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٤٠٨٨)، من طريق خالد بن يزيد حدثنا ابن أبى ذئب عن زيد بن أسلم عن عطاء عن أبى سعيد به. وقال: تفرد به خالد بن يزيد.
وهو ذاهب الحديث، وكذبه أبو حاتم، وقال ابن حبان: منكر الحديث يروى الموضوعات عن الثقات.
وذكره المنذرى فى «الترغيب» (٢/ ٤٤١) برواية البيهقى فقط.

(٣) قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (جـ ١٢ ص ٤٣)، فى حوادث سنة (٤٢٩هـ): وفى رمضان منها لقب جلال الدولة -السلجوقي- شاهنشاه الأعظم، ملك الملوك بأمر الخليفة القائم لله. وخطب له بذلك على المنابر، فنفرت العامة من ذلك، ورموا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك. واستفتوا القضاة والفقهاء فى ذلك، فأفتى أبو عبد الله الصيمرى - الشافعي- أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وقال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾، وإذا كان فى الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وأعظم من بعض. وليس فى ذلك ما يوجب النكير، والمماثلة بين الخالق والمخلوقين.
وكتب القاضى أبو الطيب الطبري: «إن إطلاق (ملك الملوك) جائز. ويكون معناه ملك ملوك الأرض. وإذا جاز أن يقال: كافى الكفاة، وقاضى القضاة، جاز أن يقال ملك الملوك، وإذا كان فى اللفظ ما يدل على أن المراد به ملك ملوك الأرض زالت الشبهة. ومنه قولهم: اللهم أصلح الملك، فيصرف الكلام إلى المخلوقين».
وكتب التميمى الحنبلى نحو ذلك.
=

....

....

والقضاء الكونى لابد من وقوعه، ويكون فيما أحب الله وفيما كرهه، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ (الإسراء: ٤)، فهذا قضاء كونى متعلق بما يكرهه الله، لأن الفساد فى الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكونى لابد أن يقع ولا معارض له إطلاقاً. وأما النوع الثانى من القضاء، وهو القضاء الشرعى، فمثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣)، والقضاء الشرعى لا يلزم منه وقوع المقضى، فقد يقع وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيما يحبه الله، وقد سبق الكلام على ذلك.

= وأما الماوردى صاحب «الحاوى الكبير» فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضاً. والمشهور عنه ما نقله ابن الجوزى والشيخ أبو منصور ابن الصلاح فى «أدب المفتى» أنه منع من ذلك وأصر على المنع منه مع صحبته للملك جلال الدولة وكثرة تردداه عليه ووجاهته عنده، وأنه امتنع من الحضور فى مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة فى يوم عيد: فلما دخل عليه دخل وهو وجل خائف أن يوقع به مكروهاً، فلما واجهه قال له جلال الدولة: قد علمت أنه إنما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياى ووجاهتك عندي: دينك واتباعك الحق، وأن الحق آثر عندك من كل أحد، ولو حابيت أحداً من الناس لحابيتني، وقد زادك ذلك عندى صحبة ومحبة وعلو مكانة.

قال ابن كثير: والذى حمل القاضى الماوردى على ذلك المنع هو اتباع السنة التى وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة ﷺ، عن النبى ﷺ قال: **«أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك»** قال الزهرى: سألت عمرو الشيبانى عن «أخنع اسم» قال: «أوضع». وقد رواه البخارى: عن على ابن المدينى، عن ابن عيينة. وأخرجه مسلم من طريق: همام، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: **«أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك. لا ملك إلا الله عز وجل»** وقال الإمام أحمد: حدثنى محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن جلاس، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشتد غضب الله من قتله نبي. واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل»** اهـ.

وقال العزيزى فى «الشرح الكبير» أى سمى نفسه، أو سماه غيره فرضى به وأقره ونحوه وما فى معناه (شاه شاهان)، والعجم تقدم المضاف إليه على المضاف، وألحق به (ملك شاه)، قيل: وإذا امتنع التسمى بما ذكر فباسم من له الوصف كالله والجبار والرحمن أولى.

قال القرطبي: وحاصل الحديث أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التى لا تنبغى لمخلوق، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق لما ثبت فى الفطرة أنه لا مالك لجميع الخلائق إلا الله، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه -سبحانه وتعالى- فعوقب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق، والمالك من له الملك، والملك أمدح، والمالك أخص، وكلاهما واجب لله تعالي. =

وفى رواية: «أَغيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يومَ القِيَامَة وأَخبثُهُ».

قوله: (وفى رواية: «أَغيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يومَ القِيَامَة وَ أَخبثُهُ»).

قوله: «**أغيظ**» من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض، فيكون بغيضاً إلى الله، مغضوباً عليه[1]، والله أعلم.

قوله: «**وأخبثه**» وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت فى حقه هذه الأمور لتعاظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التى هى من أعظم التعظيم، فتعظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم، لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة

فإن قلت: إذا أضفنا القضاة وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يقال: قاضى القضاة فى الفقه، أو قاضى قضاة المملكة العربية السعودية، أو قاضى قضاة مصر أو الشام، أو ما أشبه ذلك، فهل يجوز هذا؟

= وقال الطيبي: قوله: «**لا مالك إلا الله**» استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية، فنفى جنس الملاك بالكلية، لأن المالك الحقيقى ليس إلا هو، ومالكية الغير مستردة إلى مالك الملوك، فمن تسمى بذلك نازع الله -سبحانه وتعالى- فى رداء كبريائه واستنكف أن يكون عبده، لأن وصف المالكية مختص بالله -عز وجل- لا يتجاوزه، والمملوكية بالعبد لا تتجاوزه فمن تعدى طوره فله الخزى فى الدنيا والعار، وفى الآخرة الإلقاء فى النار. اهـ.

ومن العجائب التى لا تخطر بالبال ما نقله ابن بزيزة عن بعض شيوخه أن أبا العتاهية -الشاعر المشهور- كان له ابنتان سمى إحداهما الله، وسمى الأخرى الرحمن، وهذا من أعظم القبائح، وأشد الجرائم والفضائح. وقيل: إنه تاب.

وألحق بعض المتأخرين بملك الأملاك: حاكم الحكام. وقد شدد الزمخشرى النكير عليه، فقال فى تفسير قوله تعالي: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ رُبَّ غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمننا قد لُقِّب أفضل القضاة ومعناه أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر. اهـ. واعترضه ابن المنير بأن خبر «أقضاكم عليٌّ» يؤخذ منه جواز أن يقال لأعدل القضاة وأعلمهم فى زمنه «قاضى القضاة» ورد عليه وشنع العلم العراقيٍ منتصراً للزمخشري. ومن النوادر: أن العز بن جماعة رأى أباه فى النوم، فسأله عن حاله فقال: ما كان علىَّ أضر من هذا الاسم. فنهى الموثقين أن يكتبوا له فى الأسجال: قاضى القضاة، بل قاضى المسلمين.

وقال ابن القيم: وتحرم التسمية بسيد الناس، وسيدة الكل، كما تحرم بسيد ولد آدم، فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ. اهـ.

قال أبو طاهر -غفر الله لهما-: ولعله يلحق بذلك ما تعارف عليه الناس فى بعض البلدان الإسلامية: كصاحب العزة، وصاحب الجلالة، ونحو ذلك، وكل هذه الألقاب إنما شاعت فى الناس من وقت دخول الأعاجم وتمكن دولتهم فى البلاد الإسلامية، وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل ما يتزينون به عند الله والناس، بل لعله كان لهم ضد ذلك، فخشوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم من تلك الأسماء والألقاب ما يلقى فى نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف والتبجيل المصطنع، ولقد كان السلف الصالح ﷺ يدعون بعضهم بعضاً بأسمائهم أو بوظائفهم، وقلوبهم مملوءة من المحبة والتوقير والإجلال لعلمائهم وأمرائهم، لما لهم من العلم والفضل والعدل والبر والإحسان التى جملهم الله بها. نسأل الله أن يعيد للناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المداهنات والتملقات المتكلفة بالباطل. (الفقي).

(١) ويؤيده: «**اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك**» أخرجه الطبراني. (الفقي).

قوله: «أَخْنَعَ» يعنى أَوضَع.

أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه فى نفسه على خلق الله بنعم الله.

قوله: (**أخنع يعنى: أوضع**)[1] هذا هو معنى «أخنع» فيقيد ما ذكرنا فى معنى «أغيظ» أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله. وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم، كما أخرج أبو داود عن أبى مِجْلَز قال: «**خرج معاوية** ﷺ **على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»**[2] وأخرجه الترمذى أيضاً، وقال: حسن. وعن أبى أمامة ﷺ قال: «**خرج علينا رسول الله ﷺ متكئاً على عصا، فقمنا إليه. فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضاً**»[3] رواه أبو داود.

قوله: «**أغيظ رجل**» هذا من الصفات التى تمر كما جاءت، وليس شىء مما ورد فى الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة فى ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم، والباب كله واحد، وهذا هو قول أهل

فالجواب: أن هذا جائز، لأنه مُقيد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقيد فحينئذ لا يكون فيه مشاركة لله -عز وجل-، على أنه لا ينبغى أيضاً أن يتسمى الإنسان بذلك أو يسمى به وإن كان جائزاً، لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضى قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأى بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه، فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغى أن يقبله اسماً لنفسه أو وصفاً له، ولا أن يتسمى به، فإذا قُيد بزمان أو مكان ونحوهما، قلنا: إنه جائز، ولكن الأفضل ألاَّ يفعل، لكن إن قيد بفن من الفنون، هل يكون جائزاً؟

---

(١) «أخنع» بفتح الهمزة والنون، بينهما معجمة ساكنة أى أدخلها فى الخنوع، وهو الذل والضعة والهوان، ذكره الزمخشري. وفى رواية «أخنى» من الخنا بمعنى الفحش فى القول، ويحتمل أن يكون من قولهم: أخنى عليه الدهر أى أهلكه. وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ «أنخع» بتقديم النون على الخاء المعجمة وهو بمعنى أهلك. قال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً يوم القيامة أى أشدهم ذلاً وصغاراً. وفى «قرة العيون»: وهذا من الصفات التى تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل، ولا تشبيه ولا تمثيل، والله أعلم.(الفقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٩٧٧)، وابن أبى شيبة (٨/ ٥٨٦)، وعبد بن حميد (٤١٣)، وأبو داود (٥٢٢٩)، وأحمد (١٦٨٣٠)، والطبرانى (١٩/ ٨١٩)، والطحاوى «مشكل» (١١٢٧)، والترمذى (٢٧٥٥)، وابن قانع (٣/ ٧٢).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٣)، وأبو داود (٥٢٣٠)، وضعفه الشيخ فى ضعيف أبى داود (١١٢٠).

فيه مسائل

الأولى: النهى عن التسمى بملك الأملاك.

الثانية: أن ما فى معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ فى هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.

السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة، وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث فى أواخر القرن الثالث وما بعده، كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع فى الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان.

مقتضى التقييد أن يكون جائزاً، لكن إن قُيد بالفقه بأن قيل: (عالم العلماء فى الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»**، صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم فى الشرع إليه، فهذا فى نفسى منه شىء، والأولى التنزه عنه. وأما إن قُيد بقبيلة، فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لا يغتر ويعجب بنفسه، ولهذا قال النبى ﷺ للمادح: **«قطعت عنق صاحبك»**.

وأما التسمى بـ (شيخ الإسلام)، مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أى أنه الشيخ المطلق الذى يرجع إليه الإسلام، فهذا لا يصح، إذ إن أبا بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف، لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قُصد بهذا الوصف أنه جدد فى الإسلام وحصل له أثر طيب فى الدفاع عنه، فلا بأس بإطلاقه.

وأما بالنسبة للتسمى بـ (الإمام)، فهو أهون بكثير من التسمى بـ (شيخ الإسلام) لأن النبى ﷺ سمى إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان. لكن ينبغى أن ينبه أنه لا يتسامح فى إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع، كالإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ممن له أثر فى الإسلام، لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمة، لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق فى عينه، قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدرُهُ ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ومن ذلك أيضاً: (آية الله، حجة الله، حجة الإسلام)، فإنها ألقاب حادثة لا تنبغى لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله، فإن أريد به المعنى الأعم، فلا مدح فيه لأن كل شىء آية لله، كما قيل:

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

وإن أريد المعنى الأخص، أى: أن هذا الرجل آية خارقة، فهذا فى الغالب يكون مبالغاً فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم مفتٍ، قاضٍ، حاكم، إمام لمن كان مستحقاً لذلك.

قوله: «فى الصحيح» انظر الكلام عليها (١/ ١٠٠).

بـاب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك (*)

عن أبى شُريح أنه كان يُكنى أبا الحكم، فقال له النبى ﷺ :

قوله: (باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك)

عن أبى شُريح أنـه كان يُكنى أبا الحكم، فقـال له النبى ﷺ: «إنَّ الله هُوَ الحَكَمُ وَإليه الحُكْمُ، فقال: إن قومى إذا اختلفوا فى شئ أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين، فقال: مَا أحْسَنَ هَذَا، فَمَالَكَ مِنَ الوَلَدِ؟ قلت: شريـح، ومسلم، وعبـد الله، قال: فَـمَنْ أكْبَرُهُم؟ قـلت: شُريح، قال: فَأنتَ أبُو شُرَيح»[1] رواه أبو داود وغيره).

قوله: «عن أبى شريح» قال فى خـلاصة التـذهيب: هو أبو شـريح الخزاعى، اسـمه خويلد بن عـمرو[2]، أسلم يوم الفتح، له عـشرون حديثـاً، اتفقا على حديثـين وانفرد البخارى بحديث، وروى عنه أبو سـعيد المقبرى، ونافع بن جبير، وطائفـة. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين. وقال الشارح: اسمه هانئ بن يزيد الكندى، قاله الحافظ، وقيل: الحارث الضبابى، قاله المزِّى.

قوله: «يكنى» الكنية مـا صُدر بأب أو أم ونحو ذلك واللقب مـا ليس كذلك[3] كزين العابدين ونحوه.

أسماء الله -عز وجل- هى: التى سَمَّى بها نفسه أو سَمَّاه بها رسوله ﷺ.

وقد سبق لنا الكلام فيها فى مباحث كثيرة، **منها:** هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟ وقلنا: باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله -عز وجل- وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التى تحملها متبـاينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تَضَمَّنَه الآخر من باب دلالة اللزوم، فمـثلاً: (الخَلاَّق) يتـضمن الدلالة على العلم المستـفاد من اسم العليم، لكنه بالالتزام، وعلى القدرة المستفادة من اسم القدير، لكن بالالتزام.

الثانى: هل أسماء الله مشتقـة أو جامدة (يعنى: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة)؟ الجواب: على الذات والصفة، أمـا أسماؤنا نحن، فيراد بها الدلالة على

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٨).

(١) **صحيح:** أخرجه البـخاري فى «الأدب المفرد» (٨١١)، وأبو داود (٤٩٥٥)، وابن حبان (٥٠٤)، والحاكم (١/ ٢٤) - راجع «الصحيحة» (١٩٣٩)، و«الإرواء» (٢٦١٥).

(٢) وبهامش «الخلاصة»: وقيل: عمرو بن خويلد. وقيل: هانـئ بن عمرو، وقيل: خويلد بن شريح بن عمرو، كذا فى الكنى من كتاب ابن الملقن و«جامع الأصول». (الفقي).

(٣) فى كتب العربية: اللقب: ما أشعر بمدح أو ذم، كزين العابدين ونحوه. (الفقي).

وقـول النبى ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليـه الحكم» فـهـو سبـحـانه الحكم فى الدنيـا والآخرة، يحكم بين خلقه فى الدنيا بوحيه الذى أنزل على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا والله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمـة، فإنها لا تجتمع على ضلالة، فـإن العلماء وإن اختلفوا فى بعض الأحكام فلابد أن يكون المصـيب فيهم واحـداً، فمن رزقه الله تعالى قـوة الفهم، وأعطاه ملكة يقتدر بهـا على فهم الصواب من أقوال العلمـاء، يسر له ذلك بفضله ومنِّه عليه، وإحسانه إليه، فما أجلَّها من عطية، فنسأل الله من فضله.

قوله: «وإليه الحكم» فى الدنيا والآخرة، كما قـال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ١٠). وقال: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩). فالحكم إلى الله، هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه فى حياته وإلى سنته بعد وفاته.[١]

الذات فقط، فقد يسـمى محمداً وهو من أشد الناس ذماً، وقد يسمى عـبد الله وهو من أفجر عبـاد الله. أما أسمـاء الله -عز وجل- وأسمـاء الرسول ﷺ وأسمـاء القرآن، وأسمـاء اليوم الآخر، وما أشبه ذلك، فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسمـاء الله بعضهـا معلوم لنا وبعـضها غـير معلوم بدليل قـول الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح فى دعاء الكرب: «**أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى...**» ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله، هل هى مـحصورة بعدد معـين؟ والجواب: غير محصـورة، وقد سبق الكلام على ذلك، والجواب عن قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة**».

الخامس: أن هذه التسعـة والتسعين غير مـعينة، بل موكولة لنا لنبـحث حتى نحصل على التسعـة والتسعين، وهذا من حكمة إبهـامها لأجل البحث حتى نـصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجـابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة فى الليل، ليجتهد الناس فى الطلب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذى يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب فى رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

---

(١) يعنى رد الحكم إلى الله: رد الحكم إلى كتابه، ورد الحكم إلى الرسـول ﷺ: رد الحكم إليه فى حياته، ثم رده إلى سنته بعد وفاته ﷺ. (الفقى).

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «بمَ تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، قال: الحمد الله الذى وفق رسولَ رسول الله إلى ما يرضى رسول الله»[1]، فمعاذ من أجَلِّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلالَ من الحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة، ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكماً فى كتاب الله، ولا فى سنة رسوله ﷺ، بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط فى الأحكام ممن يجهل حكم الله فى كتابه وسنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات.[2]

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه، وهو الذى لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠). والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من حسناته بقدر

أولاً: الإحاطة بها لفظاً. **ثانياً:** فهمها معنىً.

ثالثاً: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠)، بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور! وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب! اغفر لى، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرنى من عقابك.

الوجه الثانى: أن تتعرض فى عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء، فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذى يكون جالباً لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذاً افعل ما يكون سبباً فى مغفرة ذنوبك، هذا هو معنى إحصائها، فإذا كان كذلك، فهو جدير لأن يكون ثمناً لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب، لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلاً، ولهذا ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قوله: «لن يدخل الجنة أحد بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته».

---

(١) ضعيف: وقد سبق تخريجه.

(٢) وبخلاف الصنف الآخر: الذين يعنون بأقوال الناس وآرائهم فيحفظونها متوناً وشروحاً مهما كانت معقدة وطويلة، ثم يقدمونها فى العبادات والأحكام بين يدى الله ورسوله، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لهذا حرم الناس من خير وهدى وعز وسلطان بهذا العزل لكتاب الله وسنة رسوله عن وظيفتهما. (الفقي).

فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال: مَا أَحْسَنَ هَذَا،

ظلامته إن كان له حسنات، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم، فطرح على سيئات الظالم لا يزيد على هذا مثقال ذرة، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

قوله: «فإن قومي إذا اختلفوا في شئ أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال: ما أحسن هذا» فالمعنى -والله أعلم- أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرٍّ للعدل بينهم، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين، صار عندهم مرضياً، وهذا هو الصلح، لأن مداره على الرضى لا على الإلزام، ولا على الكهان، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة، كما قدْ يقع اليوم كثيراً، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله، وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.[1]

فلا تغتر يا أخي بعملك، ولا تعجب فتقول: أنا عملت كذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ (الحجرات:١٧)، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا، فيجب أن نرى لله المنة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، فنؤمن بأن الله تعالى يجزي الإحسان بالإحسان.

السابع: أسماء الله -عز وجل- ودلالتها على الذات والصفة جميعاً دلالة مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودلالتها على أمر خارج دلالة التزام. مثال ذلك:

---

(١) في قرة العيون: وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب، ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب، لما فيه من النهي الشديد والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا. اهـ.

والنص الصريح في إبطال حكم السوالف من حكام البدو غير المتدينين هو قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وأبو شريح كان من قضاة الجاهلية قبل الإسلام، ولذلك كنوه «بأبي الحكم» فأنكرها عليه النبي ﷺ وغيرها، ولفظ «الحكم» بفتحتين لا ينهى عنه في الإسلام لقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وذلك لأنه يحكم بما شرعه الله من صلح وإصلاح، وقد أذن الله للمؤمنين بأن يحكموا بين الناس بالعدل. (الفقي).

فَمَالَكَ مِنَ الوَلَدِ؟ قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: فَمَنْ أَكْبرُهُم؟ قلت: شُريح، قال: «فَأَنتَ أَبُو شُرَيحٍ» رواه أبو داود وغيره .

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب، الموافق لأصول الكتاب والسنة، والله المستعان.

وقول رسول الله ﷺ : **«فمالك من الولد؟ قال: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح، قال: فأنت أبو شريح»** فيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالباً، وجاء هذا المعنى في غير ما حديث، والله أعلم.

(الخلاق) دلَّ على الذات، وهو الرب -عز وجل-، وعلى الصفة وهي الخلق جميعاً دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودل على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله -عز وجل- لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم مُتعدياً: الإيمان بالاسم اسماً لله، والإيمان بما تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحكم، فالعليم مثلاً لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله، ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المرتب على ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير متعد، فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة.

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به، مثل الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به، مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٢)، وقال تعالى عن النبي ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

قوله: «باب احترام أسماء الله»: أي: وجوب احترام أسماء الله، لأن احترامها احترام لله -عز وجل- ومن تعظيم الله -عز وجل-، فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يصح إلا لله، فهذا لا يسمى به غيره، وإن سمي وجب تغييره، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يسمى به غير الله، مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه عَلَم محض.

ويستفاد من الحديث ما يلي:

١- أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا باباً محرماً أن يبينوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

فيه مسائل:

الأولى: احترام صفات الله وأسماء الله، ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

٢- أن الحكم لله وحده، لقوله ﷺ: «وإليه الحكم»، أما الكونى، فلا نزاع فيه إذ لا يعارض اللهَ أحدٌ فى أحكامه الكونية. وأما الشرعى، فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعاً سوى شرع الله ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، أو أنه مساوٍ لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه، فإنه كافر لأنه جعل نفسه نداً لله -عز وجل-، سواء فى العبادات أو المعاملات، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠)، فدلت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساوٍ لحكم الله، لأن أحسن اسم تفضيل: معناه لا يوجد شىء فى درجته، ومن زعم ذلك، فقد كَذَّب الله -عز وجل-، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وهذا دليل على أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلى غيره، وأنه كفر.

فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧).

قلنا: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ (النساء: ٦٠-٦١)، وهذا دليل على كفرهم، لأنه قال: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾، وهذا إنكار لإيمانهم، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق. فقوله ﷺ: «وإليه الحكم» يدل على أن من جعل الحكم لغير الله، فقد أشرك.

فائدة: يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذى يجعل نظاماً يمشى عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم فى قضية معينة بغير ما أنزل الله، فهذا قد يكون كفراً أو فسقاً أو ظلماً. فيكون كفراً إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له. ويكون فسقاً إذا كان لهوى فى نفس الحاكم. ويكون ظلماً إذا أراد مضرة المحكوم عليه، وظهور الظلم فى هذه أبين من ظهوره فى الثانية، وظهور الفسق فى الثانية أبين من ظهوره فى الثالثة.

٣- تغيير الاسم إلى ما هو أحسن إذا تَضَمَّن أمراً لا ينبغى، كما غَيَّر النبى ﷺ بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلى إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول (*)

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (التوبة: ٦٥).

قوله: (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول)

أي: فقد كفر. قوله: (وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾).

قال العماد ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره»: قال أبو مَعْشَر المدنى، عن محمد ابن كعب القُرظى وغيره: «قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى مثل قُرَّائنا هؤلاء؟ أرغبنا بطوناً[1]، وأكذبنا ألسناً، وأجبننا عند اللقاء، فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركبَ ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنَّا نخوض ونلعب، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، فقال: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾، وإن رجليه ليسفعان[2] الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة[3] ناقة رسول الله ﷺ»[4]، وقال عبد الله بن

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ، فيكون معطوفاً على قوله بشيء. والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمداً ﷺ، فـ (أل) للجنس وليست للعهد.

قوله: «من هزل»: سخر واستهزأ ورآه لعباً ليس جداً. ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله، فهو كافر، لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة. كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟! فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون فى قلبه من تعظيمه ما يليق به.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٨).

(١) فى «تفسير ابن كثير» و«تفسير ابن جرير»: «ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً». (الفقي).

(٢) سفع الطائر ضريبته -كمنع- لطمها بجناحيه، وسفع فلان فلاناً لطمه وضربه، والمعنى أن الحجارة تضرب رجليه من سرعة المسير وأنه مشغول عن ذلك. (الفقي).

(٣) النسعة -بكسر النون وسكون المهملة، سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره (*). (الفقي).

(*) قوله: (النسعة بكسر النون وسكون المهملة، سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره) أقول: فى قوله يجعل زمامًا للبعير نظر، والصواب أن النسعة حبل يشد به الرحل، ولا يطلق على الزمام، قال فى «القاموس»: (النسع بالكسر سير ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال، يشد به الرحال، والقطعة منه نسعة، وسمى نسعاً لطوله) انتهى المقصود. (ابن باز).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٦٩٣٢)، من طريق عبد العزيز حدثنا أبو معشر به. وإسناده ضعيف، أبو معشر -نجيح- ضعيف.

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة -دخل حديث بعضهم في بعض-: «**أنه قال رجل في غـزوة تبوك: ما رأينا مـثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً**

وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عـبد الله بن عمر قال: «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: مـا رأينا مثل قرائنا هؤلاء؟ أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقـاء، فـقال رجل في المجلـس: كـذبتَ، ولكنك منـافق، لأخـبـرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عـبـد الله بن عمـر: وأنا رأيته متعلقاً بحقَب ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾»[1] وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد بنحو من هذا.[2]

وقال ابن إسحاق: «وقد كان جماعة من المنافقين منهم: وَديعة بن ثابت أخو بني أمية ابن زيد بن عمرو بن عـوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقـال له: مَخْشِي بن حِمير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تَبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون

والكفر كفران: كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضة، فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط، وهذه المسـألة خطيرة جداً، ورب كلمة أوقعت بصاحبـها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر، فـقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله -عـز وجل- لا يلقى لها بالاً يهوى بها في النار، فـمن استهزأ بالصـلاة ولو نافلة أو بالزكاة أو الصوم أو الحج فـهو كافر بإجـماع المسلمين. كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلاً: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فـهذا كفر مخرج عن الملة، لأن الرب -عز وجل- كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سَبَّ الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المـشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافـراً، ولا يُصلى عليه، ولا يدعى له بالرحـمة، ويدفن في محل بعـيد عن قـبور المسلمين، ولـو قال: إنه تاب أو أنه أخطأ، لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنهـا تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر عـلى نفسه بالخطأ،

(1) أخرجه ابن جرير (١٦٩٢٨)، وابن أبي حاتم (٤٧ · ١٠)، من طريق ابن وهب به. وإسناده ضعيف.
هشام بن سعد صدوق له أوهام.

(2) أخرجه ابن جرير (١٦٩٢٧)، مرسلاً ضعيفاً.

ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء ـ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء ـ فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق لأخبرنَّ رسول الله ﷺ ، فذهب عوف إلى

جلاد بنى الأصـفر كقتال العـرب بعضهم بعضـاً؟ والله لكأنا بكم غداً مُقرّنيـن فى الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مـخشى بن حمير: والله لوددت أنى أقاضى على أن يُضْرَب كلُّ رجل منا مائة جـلدة، وإنا نتفلت أن ينزل فينا قـرآن لمقالتكم هذه، وقـال رسول الله ﷺ -فيما بلغنى- لعمـار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فـسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كـذا وكذا وكذا، فانطلق إليـهم عمار، فقـال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فـقال وديعة بن ثابت -ورسول الله ﷺ واقف على راحلته- فجعل يقول وهو آخذ بحقبهـا: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشى بن حمير: يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى، فكأن الذى عناه أى بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ (التوبة:٦٦). فى هذه الآية: مخشى بن حمير، فسُمِّى عبدَ الرحمن، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر».[1]

ووصف الله تعـالى بما يستـحق من صفـات التعـظيم، وذلك لعمـوم الأدلة الدالة على قبـول التوبة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر:٥٣)، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم. وهذا هو الصحيح، إلا أن سابَّ الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف مـن سب الله، فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ بل لأن الله أخبرنا بعفـوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعاً، أما ساب الرسول ﷺ فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعى لكونه رسول الله ﷺ ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثانى: أمر شخصى لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجـه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فـإذا قتل، غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمـين. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ألف كـتاباً فى ذلك اسمه: «الصارم المسلول فى حكم قتل ساب الرسول»، أو: «الصارم المسلول على شاتم الرسـول»، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ ، وكذا لو قذفه، فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ وقبل منه وأطلقه؟

(١) ذكره ابن هشام فى «السيرة» (٤/ ١٥٠)، عن ابن إسحـاق معلقاً، وعزاه الحافظ فى «الإصابة» (٦/ ٧٥)، إلى ابن الكلبى فى تفسيره بسنده إلى ابن عباس، وبسند آخر إلى ابن مسعود. والكلبى معروف.

رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: «كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية وأنا أعنى بها تَقْشَعرّ منها الجلود وتَجلُ منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد أنا غَسّلتَ، أنا كفنت، أنا دفنت، قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجدَ غيرُه».(1)

وقوله: ﴿**لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ أي: بهذه المقالة التي استهزأتم بها ﴿**إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ**﴾ أي: مخشي بن حمير ﴿**نُعَذِّبْ طَائِفَةً**﴾ أي: لا يعفى عن جميعكم، ولابد من عذاب بعضكم ﴿**بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ أي: بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة. انتهى.

قال شيخ الإسلام: وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿**قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم، لا يصح، لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس

أجيب: بلى، هذا صحيح، لكن هذا في حياته ﷺ وقد أسقط حقه، أما بعد موته، فلا ندري. فننفذ ما نراه واجباً في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟

أجيب: إنه لا يوجب التوقف، لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عمَّن سبه؟

أجيب: بلى، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحداً بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط.

قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ**﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

قوله: ﴿**لَيَقُولُنَّ**﴾: جواب القسم، قال ابن مالك:

واحْذَفْ لدى اجتماعِ شَرْطٍ وقَسَم ... جَوابَ ما أخَّرتَ فهو مُلْتَزم

---

(1) أخرجه ابن جرير (16929) بسند صحيح إليه.

الركب، نقطع به عنا الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب،

الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين.

وقال -رحمه الله- في موضع آخر: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل إنما كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، كقوله تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (النور: ٤٧ - ٥١).

ولهذا جاءت اللام التي تقترن بجواب القسم دون الفاء التي تقع في جواب الشرط.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، أي: المسؤولون.

قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: أي: ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونلعب، واللعب يقصد به الهزء، وأما الخوض، فهو كلام عائم لا زمام له، هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول، فإنه يكون الخوض في الكلام واللعب في الجوارح. وقوله: **﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾**: **﴿إِنَّمَا﴾**: أداة حصر، أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونلعب.

قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلاً للسخرية؟

قوله: ﴿أَبِاللَّهِ﴾: أي: بذاته وصفاته.

قوله: ﴿وَآيَاتِهِ﴾: جمع آية ويشمل: الآيات الشرعية، كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هذا أساطير الأولين -والعياذ بالله-، أو يستهزأ بشيء من الشرائع، كالصلاة والزكاة والصوم والحج.

والآيات الكونية، كأن يسخر بما قدَّره الله تعالى، كيف يأتي هذا في هذا الوقت؟ كيف يخرج هذا الثمر من هذا الشيء؟ كيف يخلق هذا الذي يضر الناس ويقتلهم؟ استهزاءً وسخريةً.

قوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾: المراد هنا محمد ﷺ.

قوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا﴾: المراد بالنهي التيئيس، أي: انههم عن الاعتذار تيئيساً لهم بقبول اعتذارهم.

فيقول له رسـول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ مـا يلتفـت إليـه ومـا يزيـده عليه».

فنفى الإيمان عـمن تولى عن طاعة الرسـول، وأخبر أن المؤمنين إذا دُعـوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان. انتهى.

قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: أي: بالاستـهزاء وهم لم يكونوا منافقين خـالصين بل مؤمنين، ولكن إيمانهم ضعيف، ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: ﴿نَّعْفُ﴾: ضمير الجمع للتعظيم، أي: الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾: قال بعض أهل العلم: هؤلاء حـضروا وصار عندهم كـراهية لهذا الشيء، لكنهم داهنوا فصاروا في حكمـهم لجلوسهم إليه، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾: هذا جواب الشـرط، أي: لا يمكن أن نعفو عن الجـميع، بل إن عفونا عن طائفة، فلابد أن نعذب الآخرين.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: الباء للسـببـية، أي: بسبب كـونهم مجرمـين بالاستـهزاء وعندهم جرم -والعياذ بالله-، فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يُعفى عنهم.

ويستفاد من الآيتين:

١- بيان علم الله -عز وجل- بما سيكون، لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ وهذا مستقبل، فالله عـالم، ما كان وما سيكون، قـال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود:١٢٣).

٢- أن الرسول ﷺ يحكم بما أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾.

٣- أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر، بدليل الاستفهام والتوبيخ.

٤- أن الاستـهزاء بالله وآياته ورسـوله أعظم استـهزاء وقـبحاً، لـقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾، وتقـديم المتعلق يدل على الحـصر كـأنه مـا بقي إلا أن تستـهزئوا بهـؤلاء الذين ليسـوا محـلاً للاستهزاء، بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

٥- أن المستهزئ بالله يكفر، لقوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٦- استـعمال الغلظة في محلهـا، وإلا، فالأصل أن من جاء يعـتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلاً للرحمة.

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة أن من هزل بهذا أنه كافر.

الثانية: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

وفيه: بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به[1]، وأشدها خطراً إرادات القلوب، فهي كالبحر الذي لا ساحل له، ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مُليكة: «**أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه**»[2]، نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا و الآخرة.

٧- قبول توبة المستهزئ بالله، لقوله: ﴿**إن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ....**﴾، وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عفى عنه وهُدى للإسلام وتاب وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بيّن على صدق توبته، لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

وهؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ (النساء: ١٤٠)، وهم يستطيعون المفارقة، والنبي ﷺ امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ (التوبة: ٦٥-٦٦)، ولا يزيد على هذا أبداً مع إمكان أن يزيده توبيخاً وتقريعاً.

---

(١) ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله، وعدم احترامهم لأجله (*). (الفقي).

(*) قوله: (ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله وعدم احترامهم لأجله) أقول: هذا القول فيه إجمال، والصواب التفصيل فإن كان الاستهزاء بالعلم الشرعي أو بالعلماء لأجله فلاشك أن ذلك ردة عن الإسلام، لأنه تنقص لما عظمه الله واستخفاف به، وفي ضمن ذلك احتقاره والتكذيب به، أما إن كان الاستهزاء بالعلماء يرجع إلى أمر آخر كالملابس أو حرص بعضهم على الدنيا أو اعتيادهم خلاف ما عليه الناس من العوائد التي لا تعلق لها بالشرع أو لما يشبه ذلك فهذا وأشباهه لا يكون ردة عن الإسلام؛ لأنه لا يرجع إلى الدين، وإنما يرجع إلى أمور أخرى، والله سبحانه وتعالى أعلم. (ابن باز).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٠٩) تعليقاً، ووصله في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٣٧).

باب (*)

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت: ٥٠).

قال مجاهد: «هذا بعملي، وأنا محقوق به». وقال ابن عباس: «يريد من عندي».

قوله: (باب

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ الآية).

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنى ويشفي.

قوله: (قال مجاهد: «هذا بعملي، وأنا محقوق به». وقال ابن عباس: «يريد من عندي». وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾. قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف).

وليس فيما ذكروه اختلاف، وإنما هي أفراد المعنى.

قال العماد ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ (الزمر: ٤٩): يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوّله نعمة منه طغى وبغى و ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خوّلني هذا[1]، قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾[2] أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون. ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون، كما قال تعالى مخبراً عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٧٨).

(١) في «تفسير ابن كثير» زيادة: قال قتادة: «﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ على خير عندي». (الفقي).

(٢) في ابن كثير: «مع علمنا بذلك فهي فتنة». (الفقي).

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص:٧٨). قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ ثَلاثَةً من بَني إِسرَائيلَ: أَبرَصَ وأَقرَعَ وأَعمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَن يَبتَلِيَهُم، فَبَعَثَ إليهم مَلَكاً، فَأَتَى الأَبرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وَجلدٌ حَسَنٌ، وَيَذهَبُ عَنِّي الذي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ به، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ قَذَرُهُ، فَأُعطِيَ لَوناً حَسَناً وَجلداً حَسَناً، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الإِبلُ أَو البَقَرُ -شكَ إسحاق- فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فيهَا. قَالَ: فَأَتَى الأَقرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيذهَبُ عَنِّي الذي قَذِرَنِي النَّاسُ به، فَمَسَحَه، فَذَهَبَ عَنهُ، وأُعطِي شَعراً حَسَناً، فَقَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِليكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أو الإِبِلُ، فَأُعطِيَ بَقَرةً حَامِلاً، قَالَ: بَارِكَ اللهُ لَكَ فيهَا. فأَتَى الأَعمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِليكَ؟ قَالَ: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ

اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص:٧٦-٧٨). وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥). اهـ.

قوله: (وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ ثَلاثَةً»- الحديث[(١)]).

(أخرجاه) أي: البخاري ومسلم، والناقة العشراء -بضم العين وفتح الشين وبالمد- هي الحامل.

قوله: «أنتج» وفي رواية «فنتج» معناه: تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: «ولد هذا» هو بتشديد اللام، أي: تولى ولادتها، وهو بمعنى: «أنتج» في الناقة، فالمولّد والناتج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره.

وقوله: «انقطعت بي الحبال» هو بالحاء المهملة والباء الموحدة: هي الأسباب.

قوله: «لا أجهدك» معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذ، أو تطلبه من مالي، ذكره

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

بَصَرِى فَأُبصر به النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إليه بَصَرَهُ، قَال: فَأَىُّ المَال أَحَبُّ إلَيكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ، فَأُعطى شَاةً وَالداً. فَأَنتجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذا، فَكَان لهذَا وَاد منَ الإبِلِ، ولهذَا وَاد منَ البَقَرِ، ولهذَا وَادٍ منَ الغَنَم. قَالَ: ثُمَّ إنَّه أتَى الأَبرَصَ فى صُورَته وهيئَته، فَقَالَ: رَجُلٌ مسكينٌ وابنُ سَبيلٍ قد انقَطَعَت بِىَ الحبَالُ فى سَفَرى، فلا بَلاَغَ لِىَ اليَومَ إلا بالله ثُمَّ بك، أَسأَلُكَ بالذى أَعطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ، والجلدَ الحَسَنَ، وَالمَالَ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِى سَفَرِى، فَقَالَ: الحُقُوقُ كَثيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّى أَعرِفُكَ؟ أَلَم تَكُن أَبرَصَ يَقذَرُكَ النَّاسُ، فَقيراً فَأَعطاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المَالَ؟ فَقَالَ: إنَّمَا وَرِثتُ هَذَا المَالَ كَابِراً عَن كَابِر، فَقَالَ: إن كُنتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إلَى مَا كُنتَ. ثُمَّ إنَهُ أَتَى الأَقرَعَ فِى صُورَته، فَقَالَ لَهُ مثلَ مَا قَالَ لهذَا، وَرَدَّ عَلَيه مثلَ مَا رَدَّ عَلَيه هَذَا، فَقَالَ: إن كُنتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إلَى مَا كُنتَ. قَالَ: وَأَتَى الأَعمَى فِى صُورَته، فَقَالَ: رَجُلٌ مسكينٌ وَابنُ سَبيلٍ قَد انقَطَعَت بِىَ الحبَالُ فِى سَفَرِى فَلاَ بَلاَغَ لِىَ اليَومَ إلا بالله ثم بكَ، أَسأَلُكَ بالذى رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بهَا فِى سَفَرِى، فَقَالَ: قَد كُنتُ أَعمَى فَرَدَّ اللهُ إلَىَّ بَصَرى، فَخُذ مَا شئتَ، وَدَع مَا شئتَ، فَوَالله لاَ أَجهَدُكَ اليَومَ بِشَىءٍ أَخَذتَهُ لله، فَقَالَ: أَمسك مَالَكَ، فَإنَّمَا ابتُليتُم فَقَد رَضِىَ اللهُ عَنكَ وَسَخطَ عَلَى صَاحِبَيكَ» أخرجاه.

النووى. وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر، فإن الأولَين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله، فحلَّ عليهما السخط، وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التى لا يقوم الشكر إلا بها: وهى الإقرار بالنعمة، ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يحب.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله[1]: أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل، والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها، وأقرَّ بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به، وعنه، لم يشكره أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضى به، وعنه،

---

(١) فى «مدارج السالكين» جـ (٢) ص (١٣٥-١٤٤). (الفقي).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له.

وفي هذا الحديث من العبر شيء كثير، منها:

١- أن الرسول ﷺ يَقُصّ علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جرى، وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولاشك أن هذه قاعدة صحيحة.

٢- بيان قدرة الله -عز وجل- بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم بمجرد مسح الملك لهم.

٣- أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر، لقوله: «**فأتى الأبرص في صورته**»، وكذلك الأقرع والأعمى، لكن هذا -والله أعلم- ليس إليهم وإنما يَتَشكَّلون بأمر الله تعالى.

٤- أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحاً أو معاني أو قوى فقط.

٥- حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.

٦- أن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله -أي بالمقضي-، لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا، وهذا يدل على عدم الرضا.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات:

- جزع، وهو محرم.
- صبر، وهو واجب.
- رضا، وهو مستحب.
- شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال: وهو كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهي لا تلائمه؟

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب على هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

وأما قوله ﷺ: «**فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط، فعليه السخط**» فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله، فهذا يجب الرضا به لأن الله - عز وجل- حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضي. والمقضي ينقسم إلى: مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعية يجب الرضا بها.

٧- جواز الدعاء المُعَلَّق، لقوله: «**إن كنت كاذباً، فصيرك الله إلى ما كنت**»، وفي القرآن الكريم

الثانية: ما معنى ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

قوله: «**قذرني الناس**» بكراهة رؤيته وقربه منهم.

قال الله تعالى: ﴿**وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ (النور: ٧)، ﴿**وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ (النور: ٩)، وفى دعاء الاستخارة: «**اللهم! إن كنت تعلم .... إلخ**».

٨- جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتنزل لأجل إفحام الخصم، لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابراً عن كابر، وقد سبق بيان وروده فى القرآن، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ (سبأ: ٢٤)، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

٩- أن بركة الله لا نهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

١٠- هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟ الظاهر أنه قضية عين، وإلا، لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله، علمنا أن الدعاء قد استجيب.

١١- بيان أن شكر كل نعمة بحسبها، فشكر نعمة المال أن يبذل فى سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم فى كل شىء. ونظير هذا ما مر أن التوبة من كل ذنب بحسبه، لكن لا يستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب.

١٢- جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها فى الحقيقة، مثل أن يأتى بصورة مسكين وهو غنى وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنساناً بمثل هذا، فله ذلك.

١٣- أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً يؤخذ من قوله: «**فإنما ابتليتم**»، وقصتهم مشهورة كما سبق.

١٤- فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه، لأن الأعمى كان زاهداً فى الدنيا، فكان شاكراً لنعمة الله.

١٥- ثبوت الإرث فى الأمم السابقة، لقوله: «**ورثته كابراً عن كابر**».

١٦- أن من صفات الله -عز وجل- الرضا والسخط والإرادة، وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة.

وإرادة الله نوعان: كونية، وشرعية. والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوباً لله، فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. وأما الشرعية: فإنه لا يلزم فيها وقوع المراد ويلزم أن يكون محبوباً لله، ولهذا نقول: الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والكونية بمعنى المشيئة، فإن قيل: هل الله يريد الخير والشر كوناً أو شرعاً؟

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العِبَرِ العظيمة.

أجيب: إن الخير إذا وقع، فهو مراد لله كوناً وشرعاً، وإذا لم يقع، فهو مراد لله شرعاً فقط، وأما الشر فإذا وقع، فهو مراد لله كوناً لا شرعاً وإذا لم يقع، فهو غير مراد كوناً ولا شرعاً، واعلم أن الشر لا ينسب إلى فعل الله -سبحانه-، ولكن إلى مخلوقات الله، فكل فعل الله تعالى خير، لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الخير بيديك والشر ليس إليك**». وأما مخلوقات الله، ففيها خير وشر.

وإثبات صفة الرضا لله -سبحانه- لا يقتضي انتفاء صفة الحكمة، بخلاف رضا المخلوق، فقد تنتفي معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضي عن شخص مثلاً فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه في كل شيء ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عَيبٍ كَليلةٌ ... كما أنَّ عَيْنَ السُّخط تُبدي المَسَاويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق، فلا تنتفي الحكمة مع غضب الخالق، بخلاف غضب المخلوق، فقد يخرجه عن الحكمة فيتصرف بما لا يليق لشدة غضبه.

ومن فَسَّر الرضا بالثواب أو إرادته، فتفسيره مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن معنى «رضي» أي: أراد أن يثيب، فمقتضاه أنه لا يرضى، ولو قالوا: لا يرضى لكفروا، لأنهم نفوها نفي جحود، لكن أولوها تأويلاً يستلزم جواز نفي الرضا، لأن المجاز معناه نفي الحقيقة، وهذا أمر خطير جداً. ولهذا بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة، خلافاً لمن قال: كل شيء في اللغة مجاز.

١٧- أن الصحبة تطلق على المشاكلة في شيء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة، لقوله: «**وسخط على صاحبيك**» فالصاحب هنا: من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس.

١٨- اختبار الله - عز وجل- بما أنعم عليهم به.

١٩- أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.

٢٠- أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئاً لم يكن من أجل الاختبار، لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

٢١- أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة، لقوله: «**فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك**».

بـــاب (*)

قول الله تـعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الأعراف : ١٩٠).

قوله: (بـــاب

قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾) .

قال الإمام أحمد رحـمه الله فى معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمـد ، حدثنا عمر ابن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سَمُرة ، عن النبى ﷺ قال : «**لما ولَدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سَمِّيه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكـان ذلك من وحى الشيطان وأمره**»[1] ، وهكذا رواه ابن جرير ، عن محمد بن بشار

وقوله: ﴿ جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ . **فإن قيل:** هذا الولد الذى آتاهما الله -عز وجل- كان واحداً، فكيف جعلا فى هذا الولد الواحد شركاً بل شركاء؟ **فالجواب:** أن نقول هذا على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول: أن يعتقـدا أن الذى أتى بهذا الولد هو الولى الفلانى والصالـح الفلانى ونحو ذلك، فهذا شرك أكبر لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله .

ومن هذا أيضاً ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن، فتجد المرأة التى لا يأتيها الولد تأتى إلى قبر الولى الفلانى، كما يزعمون أنه ولى الله -والله أعلم بولايته- فتقول: يا سيدى فلان! ارزقنى ولداً.

الوجه الثانى: أن يضيف سلامـة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشـاداتهم وإلى القوابل وما أشبـه ذلك، فيقـولون مثلاً: سَلِمَ هذا الولد من الطـلق، لأن القابلة امرأة مـتقنة جيـدة، فهنا أضاف النعمة إلى غير الله، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر، لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسى المسبب وهو الله -عز وجل-.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبيـة، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالماً بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية، فيقدم مـحبته على محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله، قـال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن: ١٥)، فكيف تجعل هذا الولد نداً لله فى المحبة وربما قدمت محبته على محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟!

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٧٩).

(١) **إسناده ضعيف** : أخرجه أحـمد (٢٠١١٧)، والترمذى (٣٠٧٧)، والطبـرى (٩/ ١٤٦)، والطبرانى (٦٨٩٥)، والحاكم (٢/ ٥٤٥)، من طريق عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة به.

وإسناده فيه ضعف، لضعف عمر بن إبراهيم فى روايته عن قتادة، وانقطاع فلم يسمع الحسن من سمرة.

بُندار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، ورواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم فى «مستدركه» من حديث عبد الصمد مرفوعاً، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ورواه الإمام أبو محمد ابن أبى حاتم فى «تفسيره» عن أبى زرعة الرازى، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً.[1]

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهيل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: «كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم»[2]،

وفى قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ ، نقد لاذع أن يجعلا فى هذا الولد شريكاً مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

ومن تأمل الآية وجدها دالة على أن قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: من جنس واحد، وليس فيها تَعَرُّض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جارياً على الأسلوب العربى الفصيح الذى له نظير فى القرآن، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، أى: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري. وقد وثقه ابن معين. ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث: المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً. فالله أعلم.

الثاني: أنه قد روى من قول سمرة نفسه، وليس مرفوعاً. كما قال ابن جرير.

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا. فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه - ثم ساق ابن كثير الروايات عن الحسن، بمثل ما روى ابن جرير عنه، ثم قال: هذه أسانيد صحيحة عن الحسن: أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآن. ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه وورعه. فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي. ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه أو غيرهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع. والله أعلم. اهـ. وقال الإمام أبو محمد ابن حزم فى كتاب «الملل والنحل» وهذا الذى نسبوه إلى آدم من أنه سمى ابنه عبد الحرث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء، ولم يصح سندها قط، وإنما نزلت الآية فى المشركين على ظاهرها. اهـ. (الفقي).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥٥٣٧) وإسناده ضعيف.

....

وحدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنى يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: «هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا» وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله.(1)

قال العماد ابن كثير فى «تفسيره»: وأما الآثار، فقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتُعَبِّدُهُم لله وتسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذى تسميانه به لعاش، فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ الآية (الأعراف: ١٨٩).(2)

وقال العوفى، عن ابن عباس: «فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون، أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه لغويٌّ مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سوياً،

أما على القول الثانى بأن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء، فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء. فلما جامع آدم حواء حملت حملاً خفيفاً، فمرّت به، فلما أثقلت دعوا -أى آدم وحواء- الله ربهما: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ فأشرك آدم وحواء بالله، لكن قالوا: إنه إشراك طاعة لا إشراك عبادة ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا التفسير منطبق على المروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسنبين -إن شاء الله تعالى- وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: آدم وحواء ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ انتقل من العين إلى النوع، أى: من آدم إلى النوع الذى هم بنوه، أى: فلما تَغَشَّى الإنسان الذى تسلسل من آدم وحواء زوجته ... إلى آخره، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: ٥)، أى: جعلنا الشهب الخارجة منها رجوماً للشياطين وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ

---

(1) أخرجه ابن جرير (١٥٥٣٩) بسند صحيح إلى الحسن.

(2) أخرجه ابن جرير (١٥٥٢٧) من طريق ابن إسحاق به، وإسناده ضعيف، فإن ابن إسحاق لم يصرح بالتحديث، وداود ضعيف الرواية فى عكرمة.

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك.

ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾». [(١)]

وذكر مثله عن سعيد بن جبير[(٢)]، عن ابن عباس، ورواه ابن أبى حاتم، وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدى وجماعة من الخلف، ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصرون كثرة.

قال العماد ابن كثير: وكأن أصله -والله أعلم- مأخوذ من أهل الكتاب.[(٣)]

قلت: وهذا بعيد جداً.

قوله: (قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب).

«ابن حزم»: هو عالم الأندلس، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبى الظاهرى، صاحب التصانيف، توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة، وله اثنتان وسبعون سنة.

«وعبد المطلب» هذا: هو جد رسول الله ﷺ، وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَىٍّ ابن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة

جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ (المؤمنون:١٢-١٣)، أى: جعلناه بالنوع، وعلى هذا فأول الآية فى آدم وحواء ثم صار الكلام من العين إلى النوع. وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شىء من الركاكة لتشتت الضمائر.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٥٢٨)، وهو مسلسل بالضعفاء.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥٥٣٤) بسند ضعيف.

(٣) قال ابن كثير: وهذه الآثار يظهر عليها -والله أعلم- أنها من آثار أهل الكتاب، أما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المشركون من ذريته، ولهذا قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فائدة: قال شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ - أطال الله حياته لنفع المسلمين- أما قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فليس المراد به آدم وحواء، لأن الكلام قد تم قبله، وهذا ابتداء كلام مستأنف، وإنما المراد به المشركون، وما ساقه الشارح -رحمه الله- فى قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ هو القول المعتمد الذى يدل عليه ظاهر القرآن. اهـ. (الفقي).

حاشا عبد المطلب.

ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عـدنان. وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبّد لغير الله، لأنه شرك في الربوبية والإلهية، لأن الخلق كلهـم ملك لله وعبيد له، استـعبدهم لعبادته وحـده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيـته، فمنهم من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهـيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصـفاته، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولابد، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مريم: ٩٣). فهذه هي العبودية العامة، وأمـا العبودية الخاصة فإنهـا تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كمـا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر: ٣٦). ونحوها.

قوله: «حاشا عـبد المطلب» هذا استثناء من العـموم المستفاد من «كل» وذلك أن تسمـيته بهذا الاسم لا محـذور فيها، لأن أصله من عبـودية الرق، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخـيه «شيبة» هذا قد نشأ في أخـواله بني النجار من الخزرج، لأن هاشمـاً تزوج فيـهم امرأة، فـجاءت منه بهـذا الابن، فلما شب في أخـواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته[1]، فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبداً للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعلق به هذا الاسم وركبـه، فـصـار لا يذكـر ولا يدعى إلا به[2]، فلم يبق للأصل مـعنى مقصـود، وقد قال النبي ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب»[3،4]. وقد صار مـعظماً في قريش

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فجمع لأن المراد بالمثنى اثنان من هذا الجنس،

---

(١) وكانت أمـه سلمى قد شرط أبوها عمـرو بن زيد الخزرجي النجاري على هاشم أن تـلد عنده بالمدينة. فولدت له شيـبة. ومات هاشم في الشام فـبقي شيـبة بالمدينة عند أخواله بني عدي بـن النجار سبع سنين حتى ذهب عـمه المطلب إليه وأحضره إلى مكة. (الفقي).

(٢) واسمه العلم: شيبة الحمد. (الفقي).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء.

(٤) روى البخـاري ومسلم عن البراء بن عـازب - وسأله رجل من قـيس: أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فـقال: «لكن رسول الله لم يفر. كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام. ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان آخذ بزمامها يقول: «أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب. اللهم نزل نصرك» وكنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله. وإن الشجاع الذي يحاذي به». (الفقي).

وعن ابن عباس فى الآية، قال: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا إبليسُ فَقَالَ: إنِّى صَاحِبُكُمَا الذى أَخْرجكُمَا منَ الجَنَّة لتُطيعَانى، أَو لأَجعَلَنَّ لَهُ قَرنَى أَيْل فَيَخرُجَ من بَطنك فَيَشُقُّهُ، وَلأَفعَلَنَّ وَلأَفعَلَنَّ، يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارث، فَأَبَيَا أَن يُطيعَاهُ فَخَرَجَ مَيتاً، ثُمَّ حَمَلَت فَأَتَاهُمَا فَذَكَر لَهُمَا، فَأَدركَهُمَا حُبُّ الوَلَد، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارث، فَذَلك قَولُهُ: ﴿جعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾»[1]. رواه ابن أبى حاتم.

والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم فى جاهليته، وهو الذى حفر زمزم وصارت له السقاية وفى ذريته من بعده. و«عبد الله» والد رسول الله ﷺ أحد بنى عبد المطلب، وتوفى فى حياة أبيه. قال الحافظ صلاح الدين العلائى فى كتاب «الدرة السنية فى مولد خير البرية»: كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عاماً، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله فمات بها عند أخواله بنى عدى بن النجار، والنبى ﷺ حملٌ على الصحيح. انتهى.

قلت: وصار النبى ﷺ لما وضعته أمه فى كفالة جده عبد المطلب.

قال الحافظ الذهبى: وتوفى أبوه عبد الله وللنبى ﷺ ثمانية وعشرون شهراً، وقيل: أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل، توفى بالمدنية، وكان قد قدمها ليمتار تمراً.

وقيل: بل مرّ بها راجعاً من الشام، وعاش خمسة وعشرين سنة. قال الواقدى: وذلك أثبت الأقاويل فى سنه ووفاته. وتوفيت أمه آمنة بالأبواء، وهى راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم، وقيل: ابن أربع سنين، فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده، فكان فى كفالته إلى أن توفى جده، وللنبى ﷺ ثمان سنين، فأوصى به إلى عمه أبى طالب. اهـ.

قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما فى الآية) قد قدمنا نظيره عن ابن عباس فى المعنى .

فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (الحجرات:٩)، ولم يقل: اقتتلتا، لأن الطائفتين جماعة.

---

(١) ضعيف كما سبق.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شُرَكَاء فِي طَاعَته وَلَم يَكُن فِي عِبَادَته».

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً. وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

قوله: (وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»).

قال شيخنا رحمه الله: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم يقصدا حقيقته التي يريدها

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ وهذا من الأخبار التي لا تُتَلقَّى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه، كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذَكَرْنا آدَماً وفِعَالَهُ	وتَزويجَه بِنْتَيه بابْنَيه بالخَنَا
عَلِمْنا بأنَّ الخَلْقَ من نَسْلِ فَاجِرٍ	وأن جميعَ الناسِ من عُنْصرِ الزنا

فمن جَوَّز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك.

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية، ولو وقع منه الشرك، لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: «أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة»، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة»، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفاً ولا عدلاً.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.[1]

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هِبةَ الله للرجل البنتَ السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

إبليس، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله، وهذا معنى قول قتادة: «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته».

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: «**لأجعلن له قرني إيل**» إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه، فهذا شرك في الربوبية لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء، لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركاً حقيقياً، فإن منهم مشركاً ومنهم موحداً.

---

(1) كتسمية عبد علي وعبد الحسين وغلام الحسين، وعبد النبي وعبد الرسول. (الفقي).

بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآية (الأعراف: ١٨٠).

قوله: (بـاب

قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»[١، ٢] أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، ورواه البخاري عن أبي اليمان، عن أبي الزناد، عن الأعرج عنه[٣]، وأخرجه الجوزجاني عن صفوان بن صالح، عن الوليد ابن مسلم عن شعيب بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «**يحب الوتر**»: «**هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور،**

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله -عزَّ وجلَّ- بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل. لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مَثَّلْتَ لم توحِّد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي؛ أي: إثبات الحكم للمُوَحَّد ونفيه عما عداه، فمثلاً إذا قلت: زيد قائم؛ لم توحده بالقيام؛ وإذا قلت: زيد غير قائم؛ لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد؛ وحدته بالقيام إذا قلت: لا إله إلا الله؛ وَحَّدتَه بالألوهية، وإذا أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد؛ فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه؛ فهذا تعطيل، وإن مثلت؛ فهذا إشراك.

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٧٩).

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) (٥)، والترمذي (٣٥٠٨)، والحميدي (١١٣٠)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٤)، من طريق سفيان به.

(٢) في قرة عيون الموحدين: أراد -رحمه الله- بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بالأموات، وأن المشروع هو التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا، والأعمال الصالحة. (الفقي).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) (٧٣٩٢)، والطبراني في «الدعاء» (١١٠)، والنسائي (٧٦٥٩) من طريق شعيب به.

العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المعطى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور»[1] ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة، ولا نعلم فى كثير

قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ففى الآية توحيد الأسماء لله.

وقوله: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: مؤنث أحسن؛ فهى اسم تفضيل، ومعنى الحسنى؛ أى: البالغة فى الحسن أكمله؛ لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق؛ لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقًا مثل: زيد الأفضل، وقد يكون مقيدًا مثل: زيد أفضل من عمرو، وهنا التفضيل مطلق؛ لأنه قال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: فأسماء الله تعالى بالغة فى الحسن أكمله من كل وجه، ليس فيها نقص لا فرضًا ولا احتمالاً. وما يُخبر به عن الله أوسع مما يُسمى به الله؛ لأن الله يُخبر عنه بالشىء ويخبر عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشىء لا يتضمن مدحًا والمتكلم والمريد يتضمنان مدحًا من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك؛ فلا يسمى بالشىء ولا بالمتكلم ولا بالمريد، لكن يخبر بذلك عنه. وقد سبق لنا مباحث قيّمة فى أسماء الله تعالى:

الأول: هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف؟

الثانى: هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

الثالث: هل أسماء الله هى الله أو غيره؟

الرابع: أسماء الله توقيفية.

الخامس: أسماء الله غير محصورة بعدد معين.

السادس: أسماء الله إذا كانت متعدية؛ فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة وبالحكم الذى يسمى أحيانًا بالأثر، وإن كانت غير متعدية؛ فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

---

(1) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذى (٣٥٠٧)، وابن حبان (٨٠٨)، والطبرانى فى «الدعاء» (١١١)، والحاكم (١/١٦)، والبيهقى فى «السنن» (١٠/٢٧)، وفى «الأسماء» (ص ٥)، وفى «الشعب» (١٠٢)، والبغوى (١٢٥٧) من طريق الوليد بن مسلم به. وضعفه الشيخ الألبانى رحمه الله.

من الروايات ذكر الأسمـاء إلا في هذا الحديث، والذي عوّل عليه جماعـة من الحفاظ أن سرد الأسمـاء في هذا الحديث مدرج فيـه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مـسلم، وعبد

السابع: إحصاء أسماء الله معناه:

١- الإحاطة بها لفظاً ومعنىً.

٢- دعاء الله بها؛ لقوله تعالى ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وذلك بأن تجعلها وسـيلة لك عند الدعاء، فتقول: يا ذا الجلال والإكرام! يا حي يا قيوم! وما أشبه ذلك.

٣- أن تتعبـد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحـيم تتعرض لرحمتـه، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه، وإذا علمت أنه بصير اجتنبت الفعل الذي لا يرضاه.

قوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ : الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللهم! اغفر لي يا غفور وهكذا، أو بلسان الحـال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعـاء دعاء مسألة ودعاء عبادة؛ لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه. والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعـرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتـها. وهذا خلافًا لما قاله بعض المداهنين في وقتنا الحاضر: إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيه ولا حاجة إليه.

أيريدون أن يعبـدوا شيئًا لا أسـماء له ولا صفات؟! أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المُحـرِّفين حتى لا يحـصل جدل ولا مناظرة معـهم؟! وهذا مبدأ خطيـر أن يقال للناس: لا تبحـثوا في الأسماء والصـفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بـهـا. والأمر للوجوب، ويقتـضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضًا أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني، بل لابد أن لها معاني فلابد أن نبحث فيها؛ لأن علمـها ألفاظًا مجردة لا فائدة فيه، وإن قُدِّر أن فيـه فائدة بالتعبد باللفظ؛ فإنه لا يحصل به كمال الفائدة. واعلم أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة، وذلك بـأن تتعبد لله بما تقتـضيه تلك الأسمـاء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ (غافر: ٦٠)، ولم يقل: عن دعائي؛ فدل على أن الدعاء عبادة.

فمثلاً: الرحيم يدل على الرحمة، وحينئذ تتطـلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها. والغفور يدل على المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله -عزَّ وجلَّ- بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك. والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع، بحيث لا تُسمع اللهَ قولاً يغضبه ولا يرضاه منك. والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك.

الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان وأبي زيد اللغوي، والله أعلم.

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى.

مثلاً: يا حي! يا قيوم! اغفر لي وارحمني، وقال ﷺ: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»، والإنسان إذا دعا وعلل؛ فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالبًا أن يكون سببًا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة؛ فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾: ﴿ذَرُوا﴾: اتركوا ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول. ثم توعدهم بقوله، وهو الإلحاد؛ أي: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تمامًا، ولهذا يعبر الله تعالى بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزى الإنسان إلا بقدر عمله. والمعنى: ذروهم؛ أي: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم: فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم؛ إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَرُوا﴾ تهديدًا للملحدين. والإلحاد: مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد بمعنى مال، ومنه سُمّي الحفر بالقبر لحدًا؛ لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد في أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئًا من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحادًا أنه مال بها عما يجب لها؛ إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثاني: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه؛ كقول الفلاسفة في الله: إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله. وبعضهم يسميه العقل الفعَّال؛ فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أبًا وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء؛ فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات. ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعاني في المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنَّان حتى يلقوا عليها شيئًا من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ «يشركون».

وعنه: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز».

وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في «تفسيره»، ثم قال: ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: **«ما أصاب أحداً قط هَمٌّ ولا حَزَن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً، فقيل: يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»**[1]، وقد أخرجه أبو حاتم ابن حبان في «صحيحه».

واعلم أن التعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

١- أنه هو الذي نفاه الله في القرآن؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

٢- أنه من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنى من بعض الوجوه.

فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركا في معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل المعنى، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣- أن الناس اختلفوا في معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهًا؛ فيكون معنى بلا تشبيه؛ أي: بلا إثبات صفات على اصطلاحهم.

قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لم يقل سيجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد، وهو كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ (الرحمن: ٣١)، وليس المعنى أن الله -عزَّ وجلَّ- مشغول الآن وسيخلفه الفراغ فيما بعد.

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾: العمل يطلق على القول والفعل، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨)، وهذا يكون في الأفعال والأقوال.

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وابن أبي شيبة (١٠/٢٥٣)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢)، والشاشي (٢٨٢)، والطبراني (١٠٣٥٢)، وفي «الدعاء» (١٠٣٥)، والحاكم (١/٥٠٩)، وابن السني في «عمل اليوم» (٣٤٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٩٨).

....

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ (الأعراف: ١٨٠). قال: «إلحاد الملحدين: أن ادَّعُوا اللات في أسماء الله»[١]، وقال ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: «اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العُزَّى من العزيز»[٢]، وقال قتادة: «يلحدون: يشركون»[٣]، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «الإلحاد: التكذيب».[٤]

قوله: «عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها»: هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يُسمَّى الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد؛ لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع.

تتمة: جاءت النصوص بالوعيد على الإلحاد في آيات الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ (فصلت: ٤٠)؛ فقوله: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيها تهديد؛ لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مؤكَّدة بإنّ.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١ ـ **آيات كونية**، وهي كل المخلوقات من السموات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، قال الشاعر:

فَوَاعَجَبًا كيف يُعصى الإلهُ	أمْ كيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ	تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ

والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

١ – اعتقاد أن أحدًا سوى الله منفرد بها أو ببعضها.

٢ – اعتقاد أن أحدًا مشارك لله فيها.

٣ ـ اعتقاد أن لله فيها مُعينًا في إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والدليل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ (سبأ: ٢٢)، ظهير؛ أي: معين.

وكل ما يُخلُّ بتوحيد الربوبية؛ فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٤٦٤) بسند مسلسل بالضعفاء.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥٤٦٥) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٥٤٦٧) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥٤٦٦) بسند فيه انقطاع.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور، والانحراف. ومنه اللحد فى القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر، قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل   بالإشراك والتعطيل والنكران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرّف بها تعالى إلى عباده، ودلت على كماله جل وعلا.

وقال رحمه الله: فالإلحاد، إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها،

---

٢ ـ آيات شرعية، وهو ما جاءت به الرسل من الوحى كالقرآن، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

والإلحاد فى الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

١- تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

٢- مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

٣- التحريف فى الأخبار والأحكام. والإلحاد فى الآيات الكونية والشرعية حرام. ومنه ما يكون كفرًا؛ كتكذيبها، فمن كَذَّب شيئًا مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبَرَا به؛ فهو كافر. ومنه ما يكون معصية من الكبائر؛ كقتل النفس والزنا. ومنه ما يكون معصية من الصغائر؛ كالنظر لأجنبية لشهوة.

قال الله تعالى فى الحَرَم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥)، فسمّى الله المعاصى والظلم إلحادًا؛ لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان؛ إذ الواجب عليه السير على صراط الله تعالى، ومن خالف؛ فقد ألحد.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعاً وعرفاً، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. انتهى.

قلت: والذى عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، متقدمهم ومتأخرهم، إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ (الشورى:١١). وأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات، يحتذى حذوه ومثاله، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه، فهو جهمى، قد اتبع غير سبيل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ (النساء: ١١٥).

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً:

فائدة جليلة

ما يجرى صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها. ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود.

الثانى. ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث. ما يرجع إلى أفعاله، كالخالق، والرازق.

الرابع. التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتاً، إذ لا كمال فى العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

الخامس. ولم يذكره أكثر الناس ـ وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة

السادسة: وعيد من ألحد.

والزيادة والكثرة، فمنه «استمجد المرخ والعفار»[١]، وأمجد الناقة: علفها، ومنه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج: ١٥) صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفرلي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذى فى الترمذى: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**»[٢]، ومنه: «**اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام**»[٣]، فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس- صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنى الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن، فإن «الغنى» صفة كمال، و «الحمد» كذلك، واجتماع «الغنى» مع «الحمد» كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله، فإنه من أشرف المعارف.

---

(١) المرخ والعَفَار: هما شجرتان يسوى من أغصانها الزناد فيتقدح به، واستمجد المرخ والعفار: أى: كثرت فيهما النار على ما فى سائر الشجر. (الفقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى «الكبير» (٣/ ٢٨٠)، وأحمد (١٧٥٩٦)، والنسائى «كبرى» (٧٧١٦) (١١٥٦٣)، والطبرانى فى «الكبير» (٤٥٩٤)، وفى «الدعاء» (٩٢)، والحاكم (١/ ٤٩٨)، والبيهقى فى «الدعوات» (١٩٦)، والقضاعى فى «مسند الشهاب» (٦٩٣)، من حديث ربيعة بن عامر.

وله شاهد من حديث أنس عند الترمذى (٣٥٢٤) (٣٥٢٥)، والطبرانى فى «الدعاء» (٩٣) (٩٤). وخرجته مطولاً فى «عمل اليوم» لابن السنى، يسر الله طبعه.

(٣) سبق تخريجه.

باب لا يقال: السلام على الله (*)

فى الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة،

قوله: (باب لا يقال: السلام على الله)

قوله: (فى الصحيح عن ابن مسعود ـ إلخ) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه، من حديث شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**كنا إذا جلسنا مع رسول الله ﷺ فى الصلاة، قلنا: السلام على الله قبل عباده، السلام على فلان وفلان**» ـ الحديث[1]، وفى آخره ذكر التشهد الأخير، رواه الترمذى من حديث الأسود بن يزيد، عن ابن مسعود، وذكر فى الحديث سبب النهى عن ذلك بقوله: «**فإن الله هو السلام ومنه السلام**». وقد كان النبى ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً، ويقول: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[2]، وفى الحديث: «**إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى**»[3]، وفى التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم فى الجنة، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس:٥٨).

ومعنى قوله: «**إن الله هو السلام**» إن الله سالم من كل نقص، ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم فى «بدائع الفوائد»: السلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران:

الأول ـ أن السلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم، ونحو ذلك، فاختير فى هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم «السلام» دون غيره من الأسماء.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨٠).

(١) أخرجه البخارى (٨٣١) (٨٣٥) (١٢٠٢) (٦٢٣٠)، ومسلم (٤٠٢)، وأبو داود، والترمذى (١١٠٥)، والنسائى (٢/٢٣٨)، وفى «الكبرى» (١٢٠٢)، وابن ماجه (٨٩٩)، والدارمى (١/٣٠٨)، وابن الجارود (٢٠٥)، وأبو يعلى (٨٠٥٢)، وأحمد (٣٦٢٢) (٣٧٣٨) (٣٨٧٧) (٣٩١٩) (٣٩٢٠) (٣٩٢١) (٣٩٣٥) (٣٩٦٧)، والطبرانى (٩٩١٠) (٩٩١١) (٩٩١٣)، وغيرهم كثير.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٧٩)، ومسلم (٥٩١)، والترمذى (٣٠٠)، وابن ماجه (٩٢٨).

(٣) حسن: أخرجه أحمد (٤/٣٨١)، والبزار (١٤٦١) «زوائد»، والطبرانى (٢٠) (٩٠)، والحاكم (٤/١٧٢)، عن معاذ بن جبل. وله شاهد موقوف ذكره الحافظ فى «الفتح» (١١/١٣)، ونسبه للبيهقى فى «الشعب» لهذا الجزء من هذا الحديث.

قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ : لاَ تَقُولُوا: السَّلاَمُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلاَمُ» .

الثاني ـ أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي مُنكراً، فيقول المسلم: «سلام عليكم»، ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة وهي: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب، ويتوسل بالاسم المقتضى المطلوب، المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه، فإذا قال: رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور، فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه، وقال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وقد سأله ما يدعو به: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[1]، فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو «السلام» الذي تطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما ـ ذكر الله، والثاني ـ طلب السلامة وهو مقصود المسلم، فقد تضمن «سلام عليكم» اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة. وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولهم: سلمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط: «رب سلم سلم»[2]، ومنه سلم الشيء لفلان، أي: خلص له وحده، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ (الزمر: ٢٩). أي: خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره، ومنه السِّلم ضد الحرب، لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بني فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثل

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٥ ٢٧٠).
(٢) جزء من حديث الصراط جاء عن جماعة منهم أنس وأبي هريرة وحذيفة وغيرهم.
راجع حديث حذيفة مع أبي هريرة عند مسلم (١٩٥)، وأحمد وغيرهما وقد خرجته مطولاً في «التخويف من النار».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

المشاركة، ومنه: القلب السليم، وهو النقي من الدغل والعيب، وحقيقته الذي قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته، وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته، ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة، لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به.

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت (*)

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغفر لِي إن شِئت، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئتَ، لِيَعزمَ المَسأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لاَ مُكْرِهَ لَهُ**».

قوله: (باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت)

يعني: أن ذلك لا يجوز، لورود النهي عنه في حديث الباب.

قوله: (في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ **قال: «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغفر لِي إن شِئت، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئتَ، لِيَعزمَ المَسأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لاَ مُكْرِهَ لَهُ**»[1]).

بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره، فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلّق حصول حاجته على مشيئة المسئول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لا يليق به لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام، وفي الحديث: «**يَمينُ الله مَلأى، لا يغيضها نفقة سَحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يَغضْ ما في يمينه، وفي يده الأخرى القِسْطُ يخفضه ويرفعه**»[٢،٣]، يعطي تعالى لحكمة، ويمنع لحكمة، وهو الحكيم

مناسبة الباب للتوحيد: من وجهين:

١- من جهة الربوبية، فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى؛ لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له، بل إنه لا يُسأل عما يفعل؛ كما قال تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣). وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى، وهو أن الله يتعاظم الأشياء التي يعطيها؛ فكان فيه قدح في جوده وكرمه.

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٨٠).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥٢) (٤٦٨٤) (٧٤١١) (٧٤٩٦)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥)، وأبو يعلى (٦٢٦٠)، وأحمد (٩٩٨٥) (١٠٥٠٠) عن أبيه هريرة.

(٣) رواه البخاري في عدة مواضع من الجامع ومسلم عن أبي هريرة، وفيه زيادة: «**وكان عرشه على الماء**» بعد «**خلق السموات والأرض**»، وفي تفسير سورة هود من البخاري أول الحديث: «**أنفق أنفق عليك**» وقال: «**يد الله ملأى...**» الحديث. قال الحافظ في «الفتح»: وترد رواية: «**يمين الله**» على من فسر اليد هنا بالنعمة، وأبعد منه من فسرها بالخزائن. اهـ. ومعنى «**يغيضها**» ينقصها. يقال: غاض الماء إذا نقص، ومعنى «سحاء» أي دائمة الصب والعطاء الكبير. (الفقي).

الخبير، فـاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطى عبده شـيئاً عن كراهة، ولا عن عظم مسألة، وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم فـى عـين الصـغـر صغـارهـا ويصـغـر فـى عـين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما فى نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطى تارة، ويمنع أكثر، ويعطى كرهاً، والبخل عليه أغلب، وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم، وأما ما يعطيه الله تعـالى عباده فهـو دائم مستمـر يجود بالنوال قبل السؤال، من حـين وضعت النطفة فى الرحم، فنعمه على الجنين فى بطن أُمه دارّة، يربيـه أحسن تربية، فإذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشـدّه، يتقلب فى نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعـالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كـان عليه فى الدنيا من النعم التى لا يقـدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعـباده المؤمنين المتقين، وكل ما يناله العبد فى الدنيـا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذى شاءها وقـدّرها، وأجراها عن كـرمه وجـوده وفضله، فله النعـمة وله الفـضل، وله الثناء الحسن، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل: ٥٣).

٢- من ناحية العبـد؛ فإنه يشعر باستغنائه عن ربه، وهذا نقص فى توحـيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصـفات، ولهذا ذكره المصنف فى الباب الذى يتعلق بالأسماء والصفات.

فإن قلت: ما الجواب عما ورد فى دعاء الاستخارة: **«اللهم! إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقـدرتك، وأسـألك من فـضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت عـلام الغـيوب، اللهم! إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى؛ فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعـاقبة أمرى؛ فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقـدر لى الخير حيث كـان ثم أرضنى به»**، وكذا ما ورد فى الحـديث المشهور: **«اللهم! أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى»**؟

فالجواب: أننى لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لى إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لى أو شر والله يعلم؛ فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيـر لى فاقدره لى؛ فالتعليق فيـه لأمر مجهـول عندى لا أعلم هل هو خير لى أو لا؟ وكـذا بالنسبة للحـديث الآخر؛ لأن الإنسان لا يعلم هل طول حيـاته خير أو شر؟ ولهذا كـره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك؛ لأن طول البقاء لا يعلم؛ فقد يكون خيرًا، وقد يكون شرًا، ولكن يقال: أطال الله بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيرًا بكل حال، وعلى هذا؛ فلا يكون فى

ولمسلم: «وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَىءٌ أَعطَاهُ»(١).

فيه مسائل:

الأولى: النهى عن الاستثناء فى الدعاء. **الثانية:** بيان العلة فى ذلك.

الثالثة: قوله: «ليعزم المسألة». **الرابعة:** إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر، أو ليعطيه أكثر، فتبارك الله رب العالمين.

وقوله: (ولمسلم: **«وليعظم الرغبة»**) أى: فى سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطى العظائم كرماً وجوداً وإحساناً، فالله تعالى لا يتعاظمه شئ أعطاه، أى ليس شئ عنده بعظيم، وإن عظم فى نفس المخلوق، لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا مايهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢). فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، لا إله غيره، ولا رب سواه.

حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث: **«اللهم! أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى»**؛ لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقاً بالمشيئة، والنهى إنما هو عما كان معلقًا بالمشيئة. لكن لو قال: **اللهم!** اغفر لى إن أردت وليس إن شئت؛ فالحكم واحد لأن الإرادة هنا كونية، فهى بمعنى المشيئة؛ فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثرًا بالحكم.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر: يستفاد من قوله: **«فإن الله لا يتعاظمه شىء»**، أو **«لا مكره له»** وقوله: **«وليعظم الرغبة»**، وفى هذا حسن تعليم الرسول ﷺ إذا ذكر شيئًا قرنه بعلته.

وفى ذكر علة الحكم فوائد:

الأولى: بيان سمو هذه الشريعة، وأنه ما من شىء تحكم به إلا وله علة وحكمة.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان؛ لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا لما سئل ﷺ عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أو حرام، بل قال: **«أينقص إذا جف؟»**. قالوا: نعم. فنهى عنه.

«والرجل الذى قال: إن امرأتى ولدت غلامًا أسود - لم يقل ﷺ الولد لك -، بل قال: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حمر. قال: هل فيها من أَوْرَق - الأورق: الأشهب الذى بين البياض والسواد -؟ قال: نعم. قال: من أين؟ قال: لعله نزعه عرق، قال: لعل ابنك نزعه عرق»، فاطمأن، وعرف الحكم، وأن هذا هو الواقع؛ فقرنُ الحكم بالعلة يوجب الطمأنينة ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة فى حكم من الأحكام؛ فيلحق بها ما شاركها فى العلة.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٩).

باب لا يقول: عبدى وأمتى (*)

فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَقُل أَحَدُكُم: أَطعِم رَبَّكَ، وَضِّئ رَبَّكَ، وَليَقُل: سَيِّدِي وَمَولاَيَ، وَلاَ يَقُل أَحَدُكُم: عَبدِي وأَمتي، ولَيَقُل: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي**».

قوله: (باب لا يقول: عبدى وأمتى)

ذكر الحديث الذى فى الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَقُل أَحَدُكُم: أَطعِم رَبَّكَ، وَضِّئ رَبَّكَ، وَليَقُل: سَيِّدِي وَمَولاَيَ، وَلاَ يَقُل أَحَدُكُم: عَبدِي وأَمتي، وَلَيَقُل: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي**»(1).

هذه الألفاظ المنهى عنها، وإن كانت تطلق لغة، فالنبى ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد، وسداً لذرائع الشرك، لما فيها من التشريك فى اللفظ، لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره شاركه فى الاسم، فينهى عنه لذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك فى الربوبية التى هى وصف الله تعالى، وإنما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار، فالنهى عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقاً للتوحيد، وبعداً عن الشرك حتى فى اللفظ، وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله: «**سيدى ومولاى**»، وكذا قوله: «**ولا يقل أحدكم: عبدى وأمتى**»، لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله، قال تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ (مريم: ٩٣). ففى إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك فى اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى، وأدباً وبعداً عن الشرك، وتحقيقاً للتوحيد، وأرشدهم إلى أن يقولوا: «**فتاى وفتاتى وغلامى**»، وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلّغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨١).

(1) أخرجه البخارى (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

فيه مسائل:

الأولى: النهى عن قول: عبدى وأمتى.

الثانية: لا يقول العبد: ربى، ولا يقال له: أطعم ربك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاى وفتاتى وغلامى.

الرابعة: تعليم الثانى قول: سيدى ومولاى.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ.

فيه نقص فى الدين، فلا خـير إلا دلّهم عليه، خصوصاً فى تحقيق الـتوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظاً وإن لم يقصد به، وبالله التوفيق.

بـــاب لا يُــرَدُّ مَــن ســأل باللــه (*)

عن ابن عـمر رضي الله عنهما قـال: قال رســول الله ﷺ: «مَن سَـأَلَ بِالله فَـأَعطُوهُ، وَمَن استَعَاذَ بِالله فَأَعِيذُوهُ ....

قوله: (باب لا يُرَدُّ من سأل بالله)

ظاهر الحديث النهى عن رد السائل إذا سأل بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد فى الكتـاب والسنة، فيجب إذا سأل السائل ما له فـيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يسـتحقه وجوباً، وكذلك إذا سأل المحتاج من فى ماله فـضل فيجب أن يعطيـه على حسب حاله ومـسألته، وإذا سـأل من لا فضل عنده، فيـستحـب أن يعطيه على قدر حـال المسئـول ما لا يضر به ولا يضـر عائلتـه، وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته.

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجـود، وضدهمـا من البـخل والشح، فالأول: مـحمـود فى الكتـاب والسنة، والثانى: مذموم فيهما، وقد حث الله تعـالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٧، ٢٦٨). وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧). وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة فى قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ...﴾ الآية (البقرة: ١٧٧). فذكره بعـد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة، وذلك -والله أعلم- لتعدى نفعه. وذكره تعالى فى الأعمال التى أمر بها عبـاده، وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجـر العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨١).

ومَن دَعاكُم فَأَجيبُوهُ، ....

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء، نصحاً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً. وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار ﷺ بالإيثار، فقال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩). والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان: ٨، ٩).

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جداً، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغَّب، وبالله التوفيق.

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه» هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض، إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين.

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه»: «من»: شرطية للعموم، والظاهر أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء. وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية. وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس، فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: **«شر الطعام طعام الوليمة، يُدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب، فقد عصى الله ورسوله»**، وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط:

١- أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن.

٢- ألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة، فإن كان هناك منكر، فإن أمكنه إزالته، وجب عليه الحضور لسببين:

- إجابة الدعوة. - وتغيير المنكر.

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور، لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم، فهو إثم.

٣- أن يكون الداعي مسلماً، وإلا لم تجب الإجابة، لقوله ﷺ: **«حق المسلم على المسلم ست...»** وذكر منها: **«إذا دعاك فأجبه»**. قالوا: وهذا مقيد للعموم الوارد.

٤- أن لا يكون كسبه حراماً، لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعاماً حراماً، وهذا لا يجوز، وبه قال بعض أهل العلم. وقال آخرون: ما كان محرماً لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرماً لعينه، كالخمر والمغصوب

وَمَن صَنعَ إِليكم مُعروفاً فَكَافئوهُ، فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافئُونَهُ فَادعُوا لَهُ.................

قوله: «ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه» ندبهم ﷺ إلى المكافأة على المعروف، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله، كما دل عليه هذا الحديث، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة، كما يقع كثيراً من بعضهم، نسأل الله العفو العافية في الدنيا والآخرة، بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة، طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه لهم، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون: ٩٦ - ٩٨). وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥). وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة.

قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له» أرشدهم رسول الله ﷺ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة، مكافأة للمعروف، فيدعو له على حسب معروفه.

ونحوهما، وهذا القول وجيه قوي، بدليل أن الرسول ﷺ اشترى من يهودي طعاماً لأهله، وأكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر، وأجاب دعوة اليهودي، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقوي هذا القول قوله ﷺ في اللحم الذي تُصدّق به على بريرة: **«هو لها صدقة ولنا منها هدية»**.

وعلى القول الأول، فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام وقلته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل.

٥- أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦- أن لا تتضمن ضرراً على المجيب، مثل أن تحتاج إجابة الدعوة إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة: هل إجابة الدعوة حق لله أو للآدمي؟

الجواب: حق للآدمي، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقيلك فقبل، فلا إثم عليك، لكنها واجبة بأمر الله - عز وجل-، ولهذا ينبغي أن تلاحظ أن إجابتك طاعة لله وقيام بحق أخيك، لكن لصاحبها أن يسقطها كما أن له أن لا يدعوك أيضاً، ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلاً من غير اقتناع، فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة.

حَتَّى تَرَوا أَنَّكُمْ كَافَأْتُمُوهُ»(١) رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

قوله: «تروا - بضم التاء تظنوا - أنكم قد كافأتموه» ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى: تعلموا، ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر: **«حتى تعلموا»**(٢)، فتعين

مسألة: هل بطاقات الدعوة التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟

الجواب: البطاقات ترسل إلى الناس ولا يدرى لمن ذهبت إليه فيمكن أن نقول: إنها تشبه دعوة الجفلى فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه، فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله: **«من صنع إليكم معروفاً، فكافئوه»**: المعروف: الإحسان، فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها، فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائداً عن الواجب عليه، فكافئه، وهكذا، لكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته، فلا يمكن أن تكافئه، كالملك والرئيس... مثلاً إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يدعى له، لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضاً من حقه فتكون مسيئاً له، والنبي ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فائدتان:

١- تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

٢- أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه، لأن من صنع إليك معروفاً فلابد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: **«اليد العليا خير من اليد السفلى»**، واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صُنع له معروف، لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله -عز وجل-، لكن بعض الناس يكون كريماً جداً، فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يُدعى له، لقوله ﷺ: **«فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له»**، وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني، فإنه يدعو له، ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة. لأنه من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ، ولأن به سرور صانع المعروف.

قوله: **«حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**: «تروا»، بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتجوز بالضم بمعنى تظنوا، أي: حتى تعلموا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) هو عند أبي داود (٥١٠٩)، وصححه الشيخ الألباني، وبقية الحديث سبق تخريجه.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: اعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: **«حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**.

الثانى للتصريح به، وفيه: **«من سألكم بالله فأجيبوه»** أى: **إلى ما سأل**، فيكون المعنى: أعطوه، وعند أبى داود فى رواية أبى نهيك، عن ابن عباس: **«من سألكم بوجه الله فأعطوه»**، وفى رواية عبيد الله القواريرى لهذا الحديث: **«ومن سألكم بالله»**[1]، كما فى حديث ابن عمر.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢٢٤٨)، وأبو داود (٥١٠٨)، وأبو يعلى (٢٥٣٦) (٢٧٥٥)، والخطيب فى «تاريخه» (٤/٢٥٨). وله شاهد من حديث ابن عمر. أخرجه أحمد (٢/٦٨، ٩٩)، وابن حبان (٣٤٠٨)، وغيرهما وقد سبق.

بـــاب لا يسأل بوجه الله إلا الجنــة (*)

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يُسأَلُ بِوَجهِ الله إلاَّ الجَنَّة» رواه أبو داود.

قوله: (باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)

ذكر فيه حديث جابر -رواه أبو داود عن جابر- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يُسأَلُ بِوَجهِ الله إلاَّ الجَنَّة**»[1].

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد فى دعاء النبى ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن فى الطائف من أهل مكة، فدعا النبى ﷺ بالدعاء المأثور: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تَكلُنى؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنى، أو إلى عدو ملَّكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أُبالِى، غير أن عافيتك هى أَوسع لى**»، وفى آخره: «**أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يَحُلّ علىَّ غضبك، أو ينزلَ بى سَخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[2،3].

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن فيه تعظيم وجه الله -عز وجل-، بحيث لا يُسأل به إلا الجنة.

قوله: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»: اختلف فى المراد بذلك على قولين:

القول الأول: أن المراد: لا تسألوا أحداً من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحداً من المخلوقين، فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة، فإذاً لا يسألون بوجه الله مطلقاً، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأى فى شرح الحديث، ولذلك ذكره بعد: «باب لا يرد من سأل بالله».

القول الثانى: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها، فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت شيئاً من أمور الدنيا، فلا تسأله بوجه الله، لأن وجه الله أعظم من أن

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨١).

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (١٦٧١)، والبيهقى (٤/ ١٩٩) عن جابر.

وضعفه الشيخ فى «ضعيف أبى داود» (٣٦٨)، وضعيف الجامع (٦٣٥١).

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» (١٠٣٦)، وابن عدى (٦/ ٢١٢٤)، وضعفه الشيخ الألبانى، وقد خرجته مطولاً فى «السيرة النبوية» يسر الله طبعها. وانظر «تخريج فقه السيرة» (١٣١)، و«ضعيف الجامع» (١٢٨٠).

(٣) رواه ابن إسحاق والطبراني عن عبد الله بن جعفر. (الفقي).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

والحديث المروى فى الأذكار: «**اللهم أنت أحق من ذُكر، وأحق من عُبد**» وفى آخره: «**أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له السموات والأرض**»[1]، وفى حديث آخر: «**أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم، وبكلماته التامة، من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت أى رب، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده، ومن شر الدنيا والآخرة**»[2]، وأمثال ذلك فى الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

يسأل به لشىء من أمور الدنيا. فأمور الآخرة تسأل بوجه الله، كقولك مثلاً: أسألك بوجهك أن تنجينى من النار، والنبى ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ**﴾، قال: أعوذ بوجهك، ﴿**أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾، قال: أعوذ بوجهك، ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ (الانعام: ٦٥)، قال: **هذه أهون أو أيسر**».

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعاً، لكان له وجه.

وقوله: «**بوجه الله**»: فيه إثبات الوجه لله -عز وجل-، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف، فالقرآن فى قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ (القصص: ٨٨) وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ (الرعد: ٢٢)، والآيات كثيرة. والسنة كما فى الحديث السابق: «**أعوذ بوجهك**» واختلف فى هذا الوجه الذى أضافه الله إلى نفسه: هل هو وجه حقيقى، أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات، أو أنه يعبر به عن الشىء الذى يراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقى، أو أنه يعبر به عن الجهة، أو أنه يُعبر به عن الثواب؟

فيه خلاف، لكن هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا: إنه وجه حقيقى، لأن الله تعالى قال: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ (الرحمن: ٢٧)، ولما أراد غير ذاته، قال: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ (الرحمن: ٧٨)، فـ ﴿**ذى**﴾ صفة لرب وليست صفة لاسم، و ﴿**ذو**﴾ صفة لوجه وليست صفة لرب، فإذا كان الوجه موصوفاً بالجلال والإكرام، فلا يمكن أن يراد به الثواب أو الجهة أو الذات وحدها، لأن الوجه غير الذات.

---

(٢) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨٠٢٧)، وفى «الدعاء» (٣١٨)، من طريق هشام بن هشام الكوفى ثنا فضالة بن جبير عن أبى أمامة به.

وإسناده ضعيف: فضالة بن جبير يروى عن أبى أمامة ما ليس من حديثه، لا يحل الاحتجاج به. وهشام لعله مجهول. وضعفه الهيثمى فى «المجمع» (١٠/١١٧).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (٩/٧٩)، والبيهقى فى «الأسماء» (ص ٣٩٣-٣٩٤)، وإسناده صحيح موقوف، وليس مرفوعاً.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يقرب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الحديث الصحيح: «**اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول و عمل**»[1]، بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة، فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله، وعلى هذا: فلا تعارض بين الأحاديث، كما لا يخفى. **والله أعلم.**

وقال أهل التعطيل: إن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب، قالوا: ولو أثبتنا لله وجهاً حقيقياً للزم أن يكون جسماً، والأجسام متماثلة، ويلزم من ذلك إثبات المثل لله -عز وجل-، والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١)، وإثبات المثل تكذيب للقرآن، وأنتم يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقد أن لله مثلاً فيما يختص به فهو كافر، فنقول لهم:

أولاً: ما تعنون بالجسم الذي فررتم منه، أتعنون به المُرَكَّب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث يفتقر كل جزء منه إلى الآخر؟ إن أردتم ذلك، فنحن نوافقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمكن أن يكون كذلك، وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقية المتصفة بصفات الكمال، فلا محذور في ذلك، والله تعالى وصف نفسه بأنه أحد صمد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص:١-٢)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصَّمَد: الذي لا جوف له.

ثانياً: قولكم: إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا، فهل جسم الدُّب مثل جسم النملة؟ فبينهما تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك. **فإذا بطلت هذه الحجة بطلت** النتيجة وهي استلزام مماثلة الله لخلقه. ونحن نشاهد البشر لا يتفقون في الوجوه، فلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا: إن عروق الرِّجل واليد غير متماثلة من شخص إلى آخر. ويلاحظ أن التعبير بنفي المماثلة أولى من التعبير بنفي المشابهة، لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن، ولأنه ما من شيئين موجودين إلا ويشتبهان من وجه ويفترقان من وجه آخر، فنفي مطلق المشابهة لا يصح، وقد تقدم.

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم على صورته**»، ووجه الله

---

(1) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٣)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، والطحاوي (٦٠٢٥) (٦٠٢٦) (٦٠٢٧)، عن عائشة رضي الله عنها.

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسنة عل إثبات الوجه لله تعالى، فإنه صفة كمال، وسلبه غاية للنقص والتشبيه بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها، فوقعوا فى أعظم مما فروا منه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً الإيمان بما وصف الله به نفسه فى كتابه، ووصفه به رسوله ﷺ فى سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون له ما أثبته لنفسه فى كتابه وأثبته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق، فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

لا يماثل أوجه المخلوقين، فيجاب عنه: بأنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب -عز وجل- بإجماع المسلمين والعقلاء، لأن الله -عز وجل- وسع كرسيه السماوات والأرض، والسماوات والأرضون كلها بالنسبة للكرسى -موضع القدمين- كحلقة ألقيت فى فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على هذه الحلقة، فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفاً ولا تخييلاً، ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعاً، وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة فى الوجه، وعلى هذا، فلا ينبغى أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغى معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثانى: أن الله خلق آدم على صورة الله -عز وجل- ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ : «**إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضوء كوكب فى السماء**»، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر، لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع كما فى بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: على صورته، أى: صورة آدم، أى: أن الله خلق آدم أول أمره على هذه الصورة، وليس كبنيه يتدرج فى الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة، لكن الإمام أحمد -رحمه الله- أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضاً يعارضه اللفظ الآخر المُفسر للضمير وهو بلفظ: «**على صورة الرحمن**».

بـــاب مـا جـاء فـى اللـو (*)

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ (آل عمران: ١٥٤).

قوله: (بـاب ما جاء فى اللو)

أى: لن اكوعيد واكنهـى عنه عند الألور المكروهة، قالمصائب إذا جـرى بها اكقدر، لما فيـه لن الإشعار بعدم اكصـبر والأسى على لا فـات، مما لا يمكن استدراقـه، فاكواجب اكتخليم كلقـدر، واكقيام باكعبـودية اكواجبة، وهو اكصـبر على لا أساب اكعـبد مما يكره، والإيمان باكـقدر أسل لنَ أسول الإيمـان اكختـة، وأدخل المصنف رحمـه الله تعاكى أداة اكتعريف على «كو» -وهذه فى هذا المقام لا تفـيد تعريفاً قنظائرها-، لأن المراد هذا اكلفظ .قما فال اكشاعر:

رأيت اكوكيـد بن اكيـزيد لـبـارقـاً   شـديداً بأعـبـاء الخـلافـة قـاهـلـه

وقوله: (وفول الله تعاكى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾).

فاكه بعض المنافقين يوم أُحد، لخوفهم وجزعهم وخَوَرهم.

فال ابن إسحاق: فحدثنى يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن اكزبير، عن أبيـه، عن عبـد الله ابن اكزبير فال: فال اكزبير: «كقد رأيتُنى لع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا اكنوم، فما لنا رجل إلا ذقنه فى سدره، قال: فوالله إنى لأسمع قول لُعتِّب بن قُشير لا أسمعه إلا قالحُلم: كو قان كنا لن الألر شئ لا قُتلنا ها هنا، فحفظتها لنه، وفى ذكك أنزل الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ كقول لعتب»[1]. رواه ابن أبى حاتم. فال الله تعاكى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى: هذا فدر لقدّر لن الله عز وجل، وحكم حتم لازم لا لحيد عنه ولا لناص لنه.

قوله: فى «اللو»: دخلت «أل» على «لو» وهى لا تدخل إلا على الأسماء، قال ابن مالك:

بـالجَـرِّ والتَّـنـويـنِ والنِّـداَ وآلْ   ومُـسْـنَـدٍ للاسمِ تمـيـيـزٌ حَـصَـل

لأن المقصـود بها اللفظ، أى: بـاب ما جاء فى هذا الـلفظ. والمؤلف -رحمـه الله- جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشىء، لأن «لو» تستعمل على عدة أوجه:

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨١).

(١) **حسن الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٨٠٩٣)، وابن أبى حاتم (٤٣٧٣)، من طريق سلمة عن ابن إسحاق به، وقد صرح بالتحديث فالإسناد حسن إن شاء الله. وأخرجه ابن جرير (٨٠٩٤) من طريق يحيى الأموى عن ابن إسحاق به.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية (آل عمران: ١٦٨).

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية.

قال العماد ابن كثير: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لابد آت إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبيّ وأصحابه»[1]، يعني أنه هو الذي قال ذلك، وأخرج البيهقي عن أنس: أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد، فجعل يسقط سيفي وآخذه، ويسقط وآخذه[2]، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لها هَمٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل»[3].

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا مُحرم، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران: ١٦٨)، في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خير من شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضاً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران: ١٥٦)، أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضاً، لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه، لأن الندم يكسب النفس حزناً وانقباضاً، والله يريد منا أن نكون في انشراح

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠٢/٨٢)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٨) (٤٥٦٢)، والترمذي (٣٠٠٨)، والطبري (٨٠٧٦) (٨٠٧٧)، والنسائي «كبرى» (١١١٩٨)، والطبراني (٤٧٠٧)، والشاشي (١٠٥٨) (١٠٥٩) (١٠٦٠)، وابن حبان (٧١٨٠)، والحاكم (٢/ ٢٩٧)، والبيهقي «دلائل» (٣/ ٢٧٢)، وأحمد (١٦٣٥٧) وغيرهم.

(٣) هذه الزيادة عند ابن حبان (٧١٨٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٧٢) وغيرهما.

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعنى لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله، لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبيّ فى غزوة أُحد قال: فلما انخذل يوم أُحد وقال: «يَدَعُ رأيى ورأيه، ويأخذ برأى الصبيان؟» ـ أو كما قال ـ انخذل معه خلق كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك، فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان، هو الضوء الذى ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً، الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين حقاً، الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة، وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم، إذا ابتلوا بالمحنة التى يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً، وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما

وانبساط، قال ﷺ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**.

مثال ذلك: رجل حرص أن يشترى شيئاً يظن أن فيه ربحاً فخسر، فقال: لو أنى ما اشتريته ما حصل لى خسارة، فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيراً، وقد نهى عنه.

الرابع: أن تستعمل فى الاحتجاج بالقدر على المعصية، كقول المشركين: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا**﴾ (الانعام:١٤٨)، وقولهم: ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم**﴾ (الزخرف: ٢٠)، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل فى التمنى، وحكمه حسب المتمنى: إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، وفى **«الصحيح»** عن النبى ﷺ فى قصة النفر الأربعة قال أحدهم: **«لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان»**، فهذا تمنى خيراً، وقال الثانى: **«لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان»**، فهذا تمنى شراً. فقال النبى ﷺ فى الأول: **«فهو بنيته، فأجرهما سواء»**، وقال فى الثانى: **«فهو بنيته، فوزرهما سواء»**.

السادس: أن تستعمل فى الخبر المحض، وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى ولأحللت معكم»**، فأخبر النبى ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدى ولأحل، وهذا هو الظاهر لى. وبعضهم قال: إنه من باب التمنى، كأنه قال: ليتنى استقبلت من أمرى ما استدبرت حتى لا أسوق الهدى. لكن الظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبى ﷺ لا يتمنى شيئاً قدر الله خلافه.

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «احرِصْ عَلَى مَا يَنفَعُكَ، وَاستَعِن بِاللهِ،..

فيه عبرة، وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا: آمنا، فقيل لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤). أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب. انتهى.

قوله: وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان.

قوله: (في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احرِصْ» ـ الحديث[1]).

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث، وتمامه عن النبي ﷺ أنه قال: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك»** أي: في معاشك ومعادك، والمراد: الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما

مناسبة الباب للتوحيد:

أن من جملة أقسام (لو) الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر، فإنه لم يرض بالله رباً، ومن لم يرض بالله رباً، فإنه لم يحقق توحيد الربوبية. والواجب أن ترضى بالله رباً، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله رباً تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، ولهذا قال ﷺ: **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»**، ومهما كان، فالأمر سيكون على ما كان، فلو خرجت مثلاً في سفر ثم أصبت في حادث، فلا تقل: لو أني ما خرجت من السفر ما أصبت، لأن هذا مقدر لابد منه.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩) وغيرهم.

وَلاَ تَعجزَنَّ وإن أَصَابَكَ شَيءٌ فَلاَ تَقُل: لو أنِّي فَعَلتُ كَذَا لَكَان كَذَا وَكَذَا، ولَكِن قُل: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَل، فإنَّ لَوْ تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ».

شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، ويكون العبد فى حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه، ويكون اعتماده على الله تعالى فى ذلك، لأن الله تعالى هو الذى خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله تعالى، ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد، فإذا جمع بينهما، تم له مراده بإذن الله.

قوله: «ولا تعجزن» النون نون التأكيد الخفيفة، نهاه ﷺ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً، وفى الحديث: **«الكيِّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسه هواها، وتمنّى على الله الأمانى»**(١، ٢)، فأرشده ﷺ فى هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول: لو أن فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قدّر الله وما شاء فعل، أى: هذا قدر الله، والواجب التسليم للقدر، والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان» أى: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم

ويستفاد من الحديث:

١- إثبات المحبة لله -عز وجل-، لقوله: «خير وأحب».

٢- اختلاف الناس فى قوة الإيمان وضعفه، لقوله: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»**.

٣- زيادة الإيمان ونقصانه، لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذى عليه عامة أهل السنة. وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص، لأن النقص لم يرد فى القرآن، قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ (المدثر:٣١)، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح:٤)، والراجح القول الأول، لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالاً على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة فى قوله ﷺ: **«ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»** يعنى: النساء.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذى (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وابن المبارك فى «الزهد» (١٧١)، والطيالسى (١١١٢)، والطبرانى (٧١٤٣)، والحاكم (١/ ٥٧)، والقضاعى (١٨٥)، والبيهقى (٣/ ٣٦٩)، وفى «الشعب» (١٠٥٤٦)، وضعفه الألبانى فى «ضعيف ابن ماجه» (٩٣٠).

(٢) رواه أحمد والترمذى -وحسنه- والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخارى، وتعقبه الذهبى بأن فيه ابن أبى مريم وهو واهٍ. وهذا من حديث شداد بن أوس. وهو عندهم بدون كلمة «الأمانى». (الفقي).

....

القدر، وذلك ينافي الصبر والرضا، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٢، ٢٣).

قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»[(١)]، وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن.[(٢)]

قال شيخ الإسلام رحمه الله -وذكر حديث الباب بتمامه- ثم قال في معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب، ونهى عن العجز وقال: «إن الله يلوم على العجز»[(٣)]، والعاجز ضد: الذين ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٩) فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة، وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أُمِرَ بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولا يعجز. وأمرٌ أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه، ولهذا قال

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية، فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر، زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهذا دليل على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال، فظاهر، فمن صلى أربع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين.

٤- أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير، لقوله: **«وفي كلٍّ خير»**.

٥- أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها، لقوله: **«احرص على ما ينفعك»**، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ﷺ، فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمراً دنيوياً.

٦- أنه لا ينبغي للعاقل أن يُمضي جهده فيما لا ينفع، لقوله: **«احرص على ما ينفعك»**.

٧- أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة، لقوله: **«ولا تعجزن»**.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) نقل ذلك عنه ابن القيم في كتابه القيم «عدة الصابرين» (ص ٦٥) طبعة دار القلم.

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٦/ ٢٤)، وأبو داود (٣٦٢٧)، والنسائي «كبرى» (١٠٤٦٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود» (٧٨٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

بعض العقلاء ـ ابن المقفع وغيره ـ: الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه. وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به، وأحبه له، فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة، وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله، واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين، فالأفعال مثل قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠). ومثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧). ومثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠). ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ (البقرة: ٨١). إلى آيات كثيرة من هذا الجنس. والله أعلم.

والقسم الثاني: ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩). والآية قبلها، فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم، والسيئة: المصائب، هذا هو الثاني من القسمين.

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضع، ولعل الناسخ أسقطه. والله أعلم.

٨- أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر، لقوله: **«ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»**، وأما الذي يمكنك، فليس لك أن تحتج بالقدر.

وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم عليهما الصلاة والسلام، وقال له: **«لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله عليّ»** فهذا احتجاج بالقدر. فالقدرية الذين ينكرون القدر يُكذبون هذا الحديث، لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبوه، وإلا حرفوه، ولكن هذا الحديث ثابت في «الصحيحين» وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج بل احتج بالخروج نفسه.

معناه: أن فعلك صار سبباً لخروجنا، وإلا فإن موسى عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه، وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم -رحمه الله- إلى وجه آخر في تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقوا في المعصية ويستمروا عليها، فالمشركون لما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨)، كذبهم الله، لأنهم لا يحتجون على شيء مضى ويقولون: تبنا إلى الله، ولكن يحتجون على البقاء في الشرك.

الثانية: النهى الصريح عن قول «لَوْ» إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

ثم قال رحمه الله: فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال، ولكن عند ما يجرى عليه من المصائب التى لا حيلة له فى دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه، وارض وسلم، قال تعالى: ﴿ما أصاب من مُصيبة إلاَّ بإذْن اللَّه وَمَن يُؤْمنْ باللَّه يَهْد قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١). ولهذا قال آدم لموسى: «أتلومنى على أمر قَدَّرَهُ الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى» لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟»(٢،١)، فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنباً، وأما كونه لأجل الذنب -كما يظنه طوائف من الناس- فليس مراداً بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس. انتهى.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان: أحدهما ـ أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة.

الثانى ـ أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته، وما يوافقها، فهو القوى، ويحب المؤمن القوى، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

٩- أن للشيطان تأثيراً على بنى آدم، لقوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان»، وهذا لاشك فيه، ولهذا قال النبى ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم».

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعنى الوساوس التى يلقيها فى القلب فتجرى فى العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله -عز وجل- كما أن الروح تجرى مجرى الدم، وهى جسم، إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهى لمة الملك، فإن للشيطان فى قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفق غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائماً يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة بالسوء، وأما النفس اللوامة فهى وصف للنفسين جميعاً.

(١) أخرجه البخارى (٣٤٠٩)، وفى مواضع كثيرة، ومسلم (٢٦٥٢)، وغيرهما عن أبى هريرة.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب. (الفقي).

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهى عن ضد ذلك، وهو العجز.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان فى حرصه على ما ينفعه فى معاشه ومعاده. والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله فى مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه من غير حرص، فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله فى الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى، ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبده وأن يستعين به، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه.

فإن فاته مالم يقدر له فله حالتان: عجز، وهو مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من «لو» ها هنا، بل هى مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهى النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له، لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التى توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده، ولهذا قال: **«فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أنى فعلت كذا، وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»** فأرشده إلى ما ينفعه فى الحالتين: حالة حصول المطلوب، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبداً، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً فى حالتى حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق.

١٠- حسن تعليم النبى ﷺ حين قرن النهى عن قول «لو» ببيان علته، لتَبَيَّن حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيماناً وامتثالاً.

باب النهى عن سب الريح (*)

عن أبى بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُم مَا تَكرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ مِن خَيرِ هَذه الرِّيحِ وَخَيرِ مَا فِيهَا، وَخَيرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» صححه الترمذى.

فيه مسائل:

الأولى: النهى عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة. **الرابعة:** أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

قوله: (باب النهى عن سب الريح)

عن أبى بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُم مَا تَكرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ مِن خَيرِ هَذه الرِّيحِ وَخَيرِ مَا فِيهَا، وَخَيرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**» صححه الترمذى[1].

لأنهـا - أى الريح - إنما تهب عن إيجـاد الله تعـالى وخلقه لهـا وأمـره، لأنه هو الذى أوجدها وأمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه، كـما تقدم فى النهى عن سب الدهر، وهذا يشبهه، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه، وبما شرعه لعباده، فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء، وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال: «**إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به**» يعنى إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا: «**اللهم إن نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها، وشر ما أمرت به**» ففى هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به، وتعرض لفضله ونعمته، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافاً لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حُرموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الإيمان.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨٢).

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ١٢٣)، والنسائى «عمل اليوم» (٩٣٥)، وفيه انقطاع، واختلف فيه على رفعه ووقفه. وله شاهد من حديث أبى هريرة عند أحمد (٧٤١٣) بسند حسن. ورواه ابن أبى شيبة (١٠/ ٢١٦)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، والبخارى فى «الأدب المفرد» (٧٢٠)، والطبرانى (٩٧٣).
وشاهد من حديث عثمان بن أبى العاص عند الطبرانى (٨٣٤٦). ومن حديث أنس عند البخارى فى «الأدب» (٧١٧)، وأبو يعلى (٢٩٠٥).

بـــاب (*)

قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا

قوله: (بــاب

قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ...﴾ الآية).

وهذه الآية ذكرها الله في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أحد ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ، وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من الجزع والقلق والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (الفتح: ١٢). وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ﴾: الضمير يعود على المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٤٦)؛ أي يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وهمًا.

قوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

و﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: الحال الجاهلية والمعنى يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل. والظن بالله - عزَّ وجلَّ - على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيرًا.

الثاني: أن يظن بالله شرًا.

والأول له متعلقان:

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٨٣).

هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية (الفتح: ٦).

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن

عن ابن جريج قال: قيل لعبد الله بن أُبي: «قُتل بنو الخزرج اليوم؟ قال: وهل لنا من الأمر شيء؟».

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ما تضمنته وقعة أُحد[1]: وقد

١- متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون؛ فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله -عزَّ وجلَّ- فيما يفعله -سبحانه وتعالى- في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وبهذا تتبين عظمة الله وحكمته في تقديره؛ فلا يظن أن الله إذا فعل شيئًا في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير؛ فهذا واقع؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ (الأحزاب: ١٧).

قوله: «في الآية الأولى»: يعني قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فسر بأن الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل؛ أي: يزول، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، يؤخذ هذا التفسير من قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾؛ ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره الله على الدين كله. ففسر بما يكون طعنًا في الربوبية وطعنًا في الأسماء والصفات؛ فالطعن في القدر طعن في ربوبية الله عزَّ وجلَّ؛ لأن من تمام ربوبيته - عزَّ وجلَّ - أن نؤمن بأن كل ما جرى في الكون فإنه بقضاء الله وقدره، والطعن في الأسماء والصفات تَضَمَّنَه الطعن في أفعاله وحكمته، حيث ظَنَّنَّا أن الله تعالى لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمره؛ لأنه إذا ظن الإنسان هذا الظن بالله؛ فمعنى ذلك أن إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام عبث وسفه؛ فما الفائدة من أن يُرسَلَ رسول ويؤمر بالقتال وإتلاف الأموال والأنفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى؟ فهذا بعيد. ولاسيما رسول الله ﷺ الذي هو خاتم النبيين؛ فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة.

قال ابن القيم رحمه الله: **«وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح»**.

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

---

(١) «زاد المعاد» (جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦)، وقد بسط القول في ذلك أيضاً في «إغاثة اللهفان». (الفقي).

أمره سيضمحل. وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته. ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ، وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو ظن السوء، الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح.

فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ، وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (الفتح:٦). وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية -وهو المنسوب إلى أهل الجهل- وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن به أنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يُذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قَدّر ما قدّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق؛ فهذا هو ظن المشركين والمنافقين فى سورة الفتح، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ (الفتح:١٢).

الثانى: أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون فى ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أن كل ما يكون فى ملكه فهو بإرادته.

وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يُديلُ الباطل على الحق إدالةً مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة فذلك ظن الذين كفروا، فويل

مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص: ٢٧).

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه، فقد ظن به السوء. ومن جَوَّزَ عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوى بينهم وبين أعدائه، فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يترك خلقه سُدى معطلين عن الأمر والنهى، لا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى المحسن فيها بإحسانه، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له فى حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التى يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده، وأنه يحسن منه كل شئ حتى تعذيب من أفنى عمره فى طاعته، فيخلده فى الجحيم فى أسفل سافلين، وينعم من استنفد عمره فى عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين فى الحسن عنده

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبًا وسفهًا، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يُقدِّر شيئًا أو يُشرِّعه إلا لحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس فى علل الأحكام الشرعية اختلافًا كبيرًا بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

للذين كفروا من النار. وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا من عَرَفَ الله، وأسماءه، وصفاته، وموجب

سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقتضي بقبح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي[1] أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعبارتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتَهَوِّكين والحيارَى هو الهدى والحق، فهذا من أسوأ الظن بالله.

ورأى الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لا يسأل عما يفعل، وهذا من أعظم سوء الظن بالله؛ لأن المخلوق إذا تَصرّف لغير حكمة سُمِّي سفيهًا؛ فما بالك بالخالق الحكيم؟!

---

(١) يقال: كلمة محجية: مخالفة المعنى للفظ. وهي إما من معنى الناحية، وتقديرها أنها جاءت من غير حجاها، أو من معنى الفطنة وهي الأحجية والأحجوة. قال صاحب «المثل السائر»: وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً. ولا يفهم منه غرضه. انتهى من هامش الأصل نقلاً عن «سر الليال». (الفقي).

حكمته وحمده. فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية. ومن ظن به أن يكون في مُلكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات ولا عدد السموات ولا النجوم، ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمر ولا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربى الأسفل كان كمن قال: سبحان ربى الأعلى، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادى، ولا يقرُب من أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد، وأن ذاوت الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته، ويخلد في العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عمره في مساخطة ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء.

ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له،

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكاً، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوصلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه، أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأله، واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه، وسأله ذلك فى دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع فى معاصيه، ثم اتخذ من دونه أولياء، ودعا من دونه مَلَكا أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء.

فأكثر الخلق بل كلهم -إلا من شاء الله- يظنون بالله غير الحق وظن السوء، فإن غالب بنى آدم يعتقدون أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما شاءه الله وأعطاه، ولسان حاله يقول: ظلمنى ربى، ومنعنى ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل فى معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما فى زناده، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتاً وتعتباً على القدر وملامة له. واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟

وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنـى لا إخالـك ناجيـاً

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنـى لا أخالك ناجيـاً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وَلْيَتُبْ إلى الله ويستغفره فى كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء، ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم، فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغنى الحميد، الذى له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء فى ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنَنْ ظنَ سَوء ... فإن الله أولى بالجميل

ولا تظنن بنفسك قَطُّ خيراً ... فكيف بظالم جانٍ جهول

وقل يا نفس مأوى كل سَوء ... أترجو الخير من ميت بخيل؟

وظُنّ بنفسك السوآي تجدها ... كذلك، وخيرها كالمستحيل

وما بك من تُقىً فيها وخير ... فتلك مواهب الرب الجليل

وليس لها ومنها ولكن ... من الرحمن فاشكر للدليل

قوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ قال ابن جرير فى تفسيره: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يُظهر كلمته، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع، يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء، يعني دائرة العذاب تدور عليهم به، واختلف القراء فى ذلك فقرأ عامة قراء الكوفة ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بفتح السين، وقرأ بعض قراء البصرة ﴿دَائِرَةُ السُّوْءِ﴾ بالضم، وكان الفراء يقول: الفتح أفشى فى السين، وقلّ ما تقول العرب ﴿دَائِرَةُ السُّوْءِ﴾ بضم السين.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ يعنى ونالهم الله بغضب منه ﴿ولعنهم﴾، يقول: وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول: وأعد لهم جهنم يصلونها يوم

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

القيامة ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ يقول: وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وذكر فى معنى الآية الأخرى نحواً مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى.

قوله: (قال ابن القيم رحمه الله تعالى) الذى ذكره المصنف فى المتن قدمته لاندراجه فى كلامه الذى سقته من أوله إلى آخره.

بـــاب ما جاء فى منكـرى القـدر(*)

وقال ابن عمر: والذى نفس ابن عمر بيـده، لو كان لأحَدهم مثل أحد ذهباً، ثم

قوله: (باب ما جاء فى منكرى القدر)

أى: من الوعيد الشديد، ونحو ذلك.

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبى حازم، عن أبيه، عن ابن عمر ﵄ عن النبى ﷺ قال: **«القدَرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»**(١، ٢).

وعن عمر مولى غُفرة(٣)، عن رجل من الأنصار، عن حذيفة -وهو ابن اليمان- ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل أمة مـجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يـقولون: لا قَدر، من مات منـهم فلا تشهـدوا جنازته، ومن مرض منهم فـلا تعودوه، وهم شـيعـة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»**.(٤)

قوله: (وقال ابن عمر: والذى نفس ابن عمر بيده ـ الخ) حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمـذى والنسائى وابن ماجه عن يحيى بن يَعمـر قال: «كان أول من

قوله: «منكرى»: أصله منكرين -جمع مذكـر سالم-؛ فحذفت النون للإضافة كـما يحذف التنوين أيضًا، قال الشاعر:

كـــأنّى تَنْوينٌ وأنْتَ إضـــافَـــةٌ ... فَـــأيْنَ تَرانـــى لا تَحِـلُ جِــوارِى

وقيل (مكانى) بدل (جوارى).

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨٣).

(١) حسـن: أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (١/ ٨٥) عـن ابن عمر، وله طرق وشواهد كثيرة حـسن بها الشيخ الحديث فى «صحيح الجامع» (٤٤٤٢)، و«السنة» لابن أبى عاصم (٣٢٨) (٣٢٩).

(٢) قال فى «عون المعبـود» (جـ ٤ ص ٣٥٧) قال الخطابي: إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مـذهبهم مذاهب المجوس فى قولهم بالأصلين، وهما النور والظلمة. يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، وكذلك القدرية يضيـفون الخيـر إلى الله، والشر إلى غيـره. اهـ. وقال المنذرى: هذا منقطع، أبو حـازم -سلمة بن دينار- لم يسمع من ابن عمر، وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابن عمر، ليس فيها شيء يثبت. اهـ. (الفقي).

(٣) قال المنذري: عمر مولى غفرة -بضم الغين وسكون الفاء- لا يحتج بحديثه. وهو رجل من الأنصار مجهول. وقد روى من طرق أخرى عن حذيفة، ولا يثبت. (الفقي).

(٤) ضـعـيف: أخرجـه أبو داود (٤٦٩٢)، وأحمـد (٥/ ٤٠٦)، و«السنة» (٣٢٩) (٣٣٨)، وضعـفه الشـيخ فى «ضعيف أبى داود» (١٠١٠).

أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإيمَانُ أَن تُؤمنَ بالله وَمَلائكته وَكُتُبه وَرُسُله وَ اليَوم الآخر، وتُؤمنَ بالقَدَر خَيره وَشَرِّه**»[1] رواه مسلم.

تكلم في القدر بالبصرة مَعبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين، أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر داخلاً في المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ، **فقلت**: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن، ويتقفّرون العلم[2]، يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنف، فقال: إذا لقيتَ أولئك فأخبرْهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء، والذي يحلف به عبد الله ابن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، قال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**

قوله: «**القدر**»: هو تقدير الله -عزَّ وجلَّ- للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله -عزَّ وجلَّ- في خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه، سواء كان خيرًا أو شرًا. والقدر يطلق على معنيين:

الأول: التقدير؛ أي: إرادة الله الشيء -عزَّ وجلَّ-.

الثاني: المُقَدَّر؛ أي ما قدَّره الله -عزَّ وجلَّ-.

والتقدير يكون مصاحبًا للفعل وسابقًا له؛ فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به الفعل، والسابق هو الذي قدره الله -عزَّ وجلَّ- في الأزل. **مثال ذلك**: خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي يكون به الفعل؛ أي؛ تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

---

(١) أخرجه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠).

(٢) يقال: اقتفرت الأثر، أي تتبعته وقفوته. فمعنى يتقفرون العلم أي يتطلبونه. (الفقي).

إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقتَ، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن القدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها،

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصًا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات الكمال لله ـ عزَّ وجلَّ ـ. والناس في القدر ثلاث طوائف:

الأولى: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه؛ فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة، ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختارًا وبين أن يُلقى من السطح مكرهًا.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختيارًا وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه؛ فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

استدل الأولون الجبرية: بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢)، والعبد وفعله من الأشياء. وبقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦). وبقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧)؛ فنفى الله الرمي عن نبيِّه حين رَمى وأثبته لنفسه، وبقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨). ولهم شُبَه أخرى تركناها خوف الإطالة.

والرد على شبهاتهم بما يلي:

أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فاستدلالهم بها مُعَارَض بالنصوص الكثيرة التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإثابته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مُجبَرًا عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ فهو حجة عليهم؛ لأنه أضاف العمل إليهم، وأما كون الله تعالى خالقه؛ فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فكان الحاصل بهما مخلوقًا لله.

قال: أن تَلد الأمَة ربَّتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون فى البنيان، قال: فانطلق، فلبثت ثلاثاً ـ وفى رواية: ملياً ـ ثم قال: يا عمر أتدرى من السائل؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» .

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ فهو حجة عليهم؛ لأن الله تعالى أضاف الرمى إلى نبيه ﷺ، لكن الرمى فى الآية له معنيان:

أحدهما: حذف المَرْمى، وهو فعْل النبى ﷺ الذى أضافه الله إليه.

والثانى: إيصال المَرْمى إلى أعين الكفار الذين رماهم النبى ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله؛ إذ ليس بمقدور النبى ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم. وأما قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾؛ فلعمْر الله؛ إنه لحجة على هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذين احتجوا بالقدر على شركهم حين قال فى الآية نفسها: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتَجُّوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولا يقول به من قَدَّر الله حق قَدْره وعرف مقتضى حكمته ورحمته.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)؛ فأثبت للعبد إرادة. وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٧).

وقال: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ١١). فأثبت للعبد إرادة قولاً وفعلاً وعملاً.

ومن أدلة السنة: قول النبى ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، وقوله: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فأتوا منه ما استطعتم». ولهذا إذا أُكرِهَ المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه؛ لم يكن لقوله أو فعله الذى أكره عليه حكم فاعله اختياراً.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر؛ فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه؛ فلأنه لو كان العبد مُجْبَرًا على عمله؛ لكانت عقوبة العاصى ظلمًا، ومثوبة الطائع عبثًا، والله تعالى مُنَزَّه عن هذا وهذا، ولأنه لو كان العبد مجبرًا على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

ففى هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة فمن لم يؤمن

وأما دلالة الحس على بطلانه؛ فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره؛ كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره؛ كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدلت الطائفة الثانية (القدرية) بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ (آل عمران:١٥٢)؛ فأثبت للعبد إرادة، وبقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت:٤٦)، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التى استدلوا بها نوعان: نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله؛ كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:٢٨-٢٩)، وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الإنسان:٢٩-٣٠)، وكقوله تعالى فى العمل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة:٢٥٣).

والنوع الثانى: مطلق؛ كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (البقرة:٢٢٣)، وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء:١٩). وهذا النوع المطلق يحمل على المُقَيَّد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثانى: أن إثبات استقلال العبد بعمله مع كونه مملوكًا لله تعالى يقتضى إثبات شىء فى مُلْك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به، ولهذا سَمَّى النبى ﷺ القدرية مجوس هذه الأمة.

الثالث: أن نقول لهم: هل تُقرُّون بأن الله تعالى عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك، فنقول: هل وقع فعلهم على وفق علم الله أو على خلافه؟ فإن قالوا: على وفقه؛ قلنا: إذن قد أراده، وإن قالوا: على خلافه؛ فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة رحمهم الله فى القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به؛ خُصِموا، وإن أنكروه؛ كفروا.

وهاتان الطائفتان - الجبرية والقدرية - ضالتان طريق الحق؛ لأنهما بين مفرط غال ومفرِّط مقصر؛ فالجبرية غلوا فى إثبات القدر وقَصَّروا فى إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا فى إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا فى القدر. ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله فيهم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا فى طريقهم خير ملة؛ فآمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختيارًا وقدرة؛ فكل ما كان فى الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان فى الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله، ولا مدبر للخلق إلا الله - عزَّ وجلَّ -، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:٢٨-٢٩)، فإذا شاء العبد شيئًا وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة. وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول؛ فأدلتهم على إثبات القدر هى أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التى استدل بها نفاة القدر. وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هى أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التى استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

وبهذا نعرف أن كلاً من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذى لا يبصر إلا من جانب واحد؛ فهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

حكاية:

مما يحكى أن القاضى عبد الجبار الهمذانى المعتزلى دخل على الصاحب ابن عباد وكان معتزليًا أيضًا، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايينى، فقال عبد الجبار على الفور: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء! فقال أبو إسحاق فورًا: سبحان من لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء! فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أيريد ربنا أن يُعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهرًا؟ فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعنى الهدى وقضى علىّ بالردى؛ أحسن إلىَّ أم أساء؟ فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك؛ فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له؛ فيختص برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله؛ ليس عن هذا جواب اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة فى خمسة أصول ذكرها فى «العقيدة الواسطية»؛ فلتُراجَع هناك.

مراتب القدر:

وهى أربع يجب الإيمان بها كلها:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ....﴾ الآية (البقرة: ٨٥).

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون؛ فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقًا أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه. وأدلة ذلك في الكتاب كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩)؛ فالأوراق التي تتساقط ميتة أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر؛ فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى. ولاحظ سعة علم الله -عزَّ وجلَّ- وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق؛ فهذه ظلمات متعددة: ظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج، وظلمة الليل؛ فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، ولا كتابة إلا بعد علم. ففي هذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج: ٧٠)؛ ففي الآية أيضًا إثبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السموات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدًا، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الأنعام: ١١٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم﴾ (البقرة: ٢٥٣) الآية.

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السموات والأرض إلا الله خالقُه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢)، وهذا العموم لا مخصِّص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١ - إرادة جازمة. ٢ - قدرة تامة.

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١ ـ خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢ ـ مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الواقعة: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢)، ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُهُ وَخَلْقُه وهو إيجادٌ وتكوينُ

وهناك تقديرات أخرى نسبية، منها: تقدير عمرى، حين يبلغ الجنين فى بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد. ومنها: التقدير الحَوْلى، وهو الذى يكون فى ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون فى السنة، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: ٤). ومنها التقدير اليومى: كما ذكره بعض أهل العلم واستدل له بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩)؛ فهو كل يوم يغنى فقيرًا، ويفقر غنيًا، ويوجد معدومًا، ويعدم موجودًا، ويبسط الرزق ويقدره، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافى ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشىء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه؛ لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن فى الشام طاعونًا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنينَ أفرارًا من قدر الله؟ فأجاب عمر: «نفرٌ من قدر الله إلى قدر الله».

يعنى: أن مُضيَّنا فى السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلاً، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطَت واديًا له شعبتان إحداهما خِصبة والأخرى جدبة؛ أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله.

وقال أيضًا: أرأيت لو رعى الجدبة وترك الخصبة؛ أكنت معجِّزه؟ قال: نعم. قال: فَسِرْ إذن. ومعنى معجزه: ناسبًا إياه إلى العجز. فالإنسان وإن كان يفعل؛ فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك؛ لزم أن يكون العاصي معذورًا بمعصيته؛ لأنه عصى بقدر الله؟

أجيب: إن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:١٤٨)؛ فهم قالوا هذا على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١٤٨)، وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥)؛ فأبطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق حتى مع إرسال الرسل، وهذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر؛ فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها؛ فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن؛ طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل له شيء منها؛ فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس. وعندنا وظائف دينية: الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر على باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة؛ فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج؛ فنقول: تزوج حتى يأتيك. فقال: لا؛ فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج؛ فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب. وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك؛ فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك.

فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالأثر والنظر، ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»؛ فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال: «اعملوا...»، وهذا فعل أمر، «فكل ميسر لما خلق له». وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

١- أنه من تمام توحيد الربوبية.

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكتُب، فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكتُبُ؟ قَالَ: اكتُب مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن مَاتَ عَلَى غَيرِ هَذَا فَلَيسَ مِنِّي**».

قوله: «**وعن عبادة**» قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد، وحديثه هذا رواه أبو داود، ورواه الإمام أحمد بكماله[1]، قال: حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا ليث، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال: «دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، قال: يا بنيّ إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»، **يا بنيّ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار**»[2]. ورواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه، وقال: حسن صحيح غريب.

---

٢ ـ أنه يوجب صدق الاعتماد على الله -عزَّ وجلَّ-؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣ ـ أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ اطمأننت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.

٤ ـ منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه؛ لأن الله هو الذي منَّ عليه وقدَّره له، قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣)؛ أي: فرح بطر وإعجاب بالنفس.

---

(١) «المسند» (جـ٥ ص ٣١٧) وهو عند أبي داود أخصر مما عند أحمد، ومن طريق: جعفر بن مسافر الهذلي، أخبرنا يحيى بن حسان، أخبرنا الوليد بن رباح، عن إبراهيم بن أبي جميلة، عن أبي حفصة، قال: قال عبادة بن الصامت لابنه الحديث. وسكت عنه المنذري. (الفقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤)، والترمذي وغيرهم عن عبادة بن الصامت - انظر «الصحيحة» (١٣٣)، و«صحيح الجامع» (٢٠١٦) (٢٠١٧) (٢٠١٨).

وفى رواية لأحمد: «**إنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكتُب، فَجَرَى فى تلكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَومَ القِيامَةِ**». وفى رواية لابن وهب، قال رسول الله ﷺ: «**فَمَن لَم يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ أَحرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ**».

وفى المسند والسنن عن ابن الديلمى قال: «**أتيت أبى بن كعب فقلت له: فى نفسى شىء من القدر، فحدثنى بشىء، لعل الله يذهبه من قلبى، فقال: لو أنفقت مثل**

وفى هذا الحديث ونحوه بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢).(١)

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر؟ قال: «القدر قدرة الرحمن» واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله.

والمعنى: أنه لا يمنع عن قدرة الله شىء، ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى، فضلوا عن سواء السبيل، وقد قال بعض السلف: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا وإن جحدوه كفروا.

قوله: (وفى المسند وسنن أبى داود عن ابن الديلمى) وهو أبو بسر -بالسين المهملة، وبالباء المضمومة- ويقال: أبو بشر -بالشين المعجمة وكسر الباء- وبعضهم صحح الأول، واسمه عبد الله بن فيروز، ولفظ أبى داود قال: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه،**

٥- عدم حزنه على ما أصابه؛ لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦- أن الإنسان يفعل الأسباب؛ لأنه يؤمن بحكمة الله -عزَّ وجلَّ-، وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطةً بأسبابها.

ويستفاد من هذا الحديث:

١- ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بنى!».

٢- أنه ينبغى أن يُلَقَّن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذلك أنه لم يقل: إن الله كتب. . وسكت، ولكنه أسند إلى الرسول ﷺ؛ فمثلاً: إذا أردت أن تقول لابنك: سَمِّ الله على الأكل، واحمد

---

(١) فى «قرة العيون»: والآيات فى إثبات القدر كثيرة، وقد استدل العلماء على إثبات القدر بشمول القدرة والعلم، كما فى الآية. (الفقي).

أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار. قال:

عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيتُ عبدَ الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت، قال: فحدثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك»[1] [2]، وأخرجه ابن ماجه.

وقال العماد ابن كثير رحمه **الله**: عن سفيان، عن منصور، عن ربعى بن حراش، عن رجل، عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: قال رسول **الله** ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره**»[3] وكذا رواه الترمذى عن النضر بن شميل، عن شعبة، عن منصور به، ورواه من حديث أبى داود الطيالسى، عن شعبة، عن ربعى، عن على فذكره.

الله إذا فرغت؛ فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، لكن إذا قلت: سم الله على الأكل، واحمد **الله إذا فرغت**؛ لأن النبى ﷺ **أمر** بالتسمية عند **الأكل**، وقال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها**»، **إذا** فعلت ذلك استفدت فائدتين:

الأولى: أن تعود ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيه على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذى يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه فى الحقيقة كثيرًا ما يغفل عنها؛ فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذى هو الكتاب والسنة.

---

(١) **إسناده جيد** : أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢-١٨٣)، وعبد بن حميد (٢٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن حبان (٧٢٧)، والآجرى فى «الشريعة» (ص ١٨٧)، وابن ماجه (٧٧)، وابن أبى عاصم فى «السنة» (٢٤٥)، وعبد الله بن أحمد فى «السنة» (٨٤٣)، واللالكائى فى «شرح الاعتقاد» (١٠٩٢) (١٠٩٣)، وصححه الألبانى رحمه الله.

(٢) قال فى «عون المعبود» (جـ ٤ ص ٣٦٢): فيصير الحديث مرفوعاً. قال المنذري: وفى إسناده أبو سنان الشيبانى وثقه ابن معين وغيره، وتكلم فيه أحمد وغيره. (الفقي).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٩٧)، والترمذى (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١)، وابن أبى عاصم (١٣٠) (٨٨٧)، والطيالسى (١٠٦)، والبزار (٨٠٤)، والخطيب فى «تاريخه» (٣/ ٣٦٦)، وأبو يعلى (٥٨٣)، والحاكم (١/ ٣٣)، وصححه الألبانى فى «ظلال الجنة».

فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ ». حديث صحيح رواه الحاكم في «صحيحه».

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. **الثانية:** بيان كيفية الإيمان به.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أبي هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»** زاد ابن وهب: **«وكان عرشه على الماء»**[1] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وكل هذه الأحاديث وما في معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم: تخليد أهل المعاصي في النار، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر، وأعظم المعاصي.

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا، وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار.[2]

---

(١) رواه أحمد (٢/١٦٩)، ومسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦).

(٢) في «قرة العيون»: وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع. وكثير منهم وافقوا الجهمية في نفي صفات الرب تعالى وتقدس. (الفقي).

بــاب ما جــاء فى المصوريــن (*)

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذَهَبَ يَخلُقُ كَخَلقى، فَليَخلُقُوا ذَرَّةً، أَو لِيَخلُقُوا حَبَّةً، أَو لِيَخلُقُوا شعيرَةً»[1] أخرجاه.

قوله: (باب ما جاء فى المصورين)

أى: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه.

وقد ذكر النبى ﷺ العلة، وهى المضاهاة بخلق الله، لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهـو رب كل شئ ومليكه، وهو خـالق كل شئ، وهو الذى صور جـميع المخلـوقات، وجعل فيـها الأرواح التى تحصل بهـا الحياة، كما قـال الله تعالى: ﴿الَّذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ من طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ من سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:٧-٩). فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صـار مضاهئاً لخلق الله، فصار ما صوره عذاباً له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فـيها الروح وليس بنافخ، فكان أشد الناس عذاباً، لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

ويستـفـاد من هذا الحديث، وهو ما سـاقه المؤلف من أجله: تحريم التصـوير، لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهياً لله فى صنعه، والتصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون، أى: ما له جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فـهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، **فإن قلت:** إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صور عـبثاً، يعنى: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهى خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبى ليهدئه به، فهل يدخل فى الحديث؟

فالجواب: نعم، يدخل فى الحديث، لأنه خلق كـخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فـيها القصد، وهذا هو سر المسـألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمهـا، ولهذا لو أن إنساناً لبس لبساً يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم، نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أو لم ترده، وكذلك لو أن أحداً تشبـه بامرأة فى لباسها أو فى شعرها أو ما أشـبه ذلك وقال: ما أردت التشبه، قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨٣).

[1] أخرجه البخارى (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

ولهما عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَشَدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»[1].

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التى ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟ فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس، هو أعظم ذنب عُصى الله تعالى به، ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه، لبيان هذا الشرك والنهى عنه وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى، فنجى الله

الحال الثانية: أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النُّمرُقَة حيث أقبل النبى ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعُرفت الكراهة فى وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**» فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله فى «صحيح البخارى»: «**إلا رَقْماً فى ثوب**»، إن صحت الرواية هذه، فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

الحال الثالثة: أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون أى تعديل أو تحسين من الملتقط، فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك، فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً، إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة، فحركته تعتبر تصويراً، فيكون داخلاً فى العموم.

القول الثانى: أنها ليست بتصوير، لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها فى الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله. ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً فى آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة. فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمى لا يعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمى فى ظلمة، وهذا القول أقرب، لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعاً ولا مخططاً، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مباحاً، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا، فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه بالذكرى،

---

(١) أخرجه البخارى (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

ولهما عن ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جهنَّم**»[1].

تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما

سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه، فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور، لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد فى التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه، فهذا يكون مباحاً، فإذا ذهب الإنسان الذى يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذى تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورنى، فصوره، فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل فى الحديث، أى: حديث الوعيد على التصوير، أما إذا قال: صورنى لغرض آخر غير مباح، صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابعة:

أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمى، فهذا لا بأس به بالاتفاق، لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة، مثل أن يصور الإنسان سيارته فهذا يجوز، لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التى هى فرع من باب أولى.

النوع الثانى: ما لا يصنعه الآدمى وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام، فغير النامى، كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار، فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذى ينمو فاختلف فى ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتى فى الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله -عز وجل- والحديث عام: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى**»، ولأن الله -عز وجل- تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لاشك أنها نامية، وعلى هذا، فيكون تصويرها حراماً، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رحمه الله -أعلم التابعين بالتفسير-، وقال: إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجوازك وهذا الحديث هل يؤيد رأى الجمهور أو يؤيد رأى مجاهد ومن قال بقوله؟

---

(١) أخرجه البخارى (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) بنحوه.

ولهما عنه مرفوعاً: «مَن صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنيا كُلِّفَ أَن يَنفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيسَ بِنَافِخٍ»[1].

ولمسلم عن أبي الهياج قال: «قال لي عَلِيٌّ: أَلا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تَدَعَ صَورةً إلا طَمَسْتَها، ولاَ قَبْراً مُشْرِفاً إلا سَوَّيْته»[2].

أعظمه من ذنب ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨). ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).

قوله: (ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي -حيان بن حصين- قال: قال لي علي رضي الله عنه) هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».[3]

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولاً: العموم في قوله: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»**.

ثانياً: قوله: **«أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»**، وهذه ليست ذات روح، فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يرى رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي أن قوله: **«أحيوا ما خلقتم»**، وقوله: **«كلف أن ينفخ فيها الروح»** يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: **«أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»**، فذكر على سبيل التحدي، أي: أن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه.

فيستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير، وأنه من الكبائر، لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله -عز وجل-.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤١) (١٠٦٤)، ومسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والنسائي (٤/٨٨)، وأبو يعلى (٦١٤)، والحاكم (١/٣٦٩)، والطيالسي (١٥٥) وغيرهم.

(٣) في «قرة العيون»: فهذا ما صح عن النبي ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فأكثروا التصوير واستعملوه، وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها وجعلوها أوثانًا، وزعموه دينًا، وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات، تعظيمًا للأموات وغلوًا، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده. (الفقي).

....

فيه تصريح بأن النبى ﷺ بعث علياً لذلك. أما الصور: فلمضاهاتها لخلق الله، وأما تسوية القبور: فلما فى تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله، فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته، ولما وقع التساهل فى هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطاً لرحال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جل العبادة: من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله[1]: ومَن جمع بين سنة رسول الله ﷺ فى القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً. فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها.

٢- وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد فى أن يخلق كخلق الله -عز وجل- لقوله: **«يضاهئون بخلق الله»**، ومن أجل هذا حرم الكبر، لأن فيه منازعة للرب -عز وجل- وحرم التعاظم على الخلق، لأن فيه منازعة للرب -سبحانه وتعالى-، وكذلك هذا الذى يصنع ما يصنع فيضاهى خلق الله فيه منازعة لله -عز وجل- فى ربوبيته فى أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته، فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

قوله: **«أشد الناس عذاباً»**: فيه إشكال، لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنباً، كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذاباً، وقد أجيب عن ذلك بوجوه:

الأول: أن الحديث على تقدير «من» أى: من أشد الناس عذاباً بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: **«إن من أشد الناس عذاباً»**.

الثانى: أن الأشدية لا تعنى أن غيرهم لا يشاركهم، بل يشاركهم غيرهم، قال تعالى: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ (غافر:٤٦)، ولكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط، فكيف يسوى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟!

الثالث: أن الأشدية نسبية، يعنى أن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها أشدهم عذاباً الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

---

(١) فى «إغاثة اللهفان» الجزء الأول. (الفقى).

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد، مضاهاة لبيوت الله. ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها. ونهى عن أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي ـ فذكر حديث الباب ـ وحديث ثمامة بن شُفَي وهو عند مسلم أيضاً قال: «**كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم برودس، فتُوفِّي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها**»[1]، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين،

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا، لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلى كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**».

وقد أطال الشارح -رحمه الله- في هذا الباب في البناء على القبور، وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة وباقية، ما عدا بلادنا ولله الحمد، فإنها سالمة من ذلك، نسأل الله أن يديم عليها، وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها.

عقوبة المصور ما يلي:

١- أنه أشد الناس عذاباً أو من أشدهم عذاباً.

٢- أن الله يجعل له في كل صورة نفساً يُعذب بها في نار جهنم.

٣- أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

٤- أنه في النار.

٥- أنه ملعون، كما في حديث أبي جحيفة في «البخاري» وغيره.

فائدتان:

الأولى: «**كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**» يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملاً، وعلى هذا، فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس، فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق في الحديث: «**مر برأس التمثال فليقطع**» ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس، فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٨).

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله، لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم فى «صحيحه» عن جابر رضي الله عنه قال: **«نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه»**[1]، ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود فى «سننه» عن جابر: أن رسول الله ﷺ : **«نهى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها»**[2]، قال الترمذى: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره.

ونهى أن يزاد عليها غير ترابها، كما روى أبو داود عن جابر أيضاً: أن رسول الله ﷺ: **«نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه»**[3]، وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار[4]، قال إبراهيم النخعى: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.

الثانى: يؤخذ من حديث على رضي الله عنه، وهو قوله: **«أن لا تدع صورة إلا طمستها»** أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل، فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور، لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك، فهذا حرام بلاشك، ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه هذه الصورة، لأن تعظيم ذوى السلطة باقتناء صورهم ثلم فى جانب الربوبية، وتعظيم ذوى العبادة باقتناء صورهم ثلم فى جانب الألوهية.

القسم الثانى: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهذا حرام أيضاً، لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حناناً أو تلطفاً، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضاً حرام للحوق الوعيد به فى قوله ﷺ : **«إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة»**.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه بهذه الزيادة الترمذى (١٠٥٢)، والحاكم (١/ ٣٧٠)، وراجع أحكام الجنائز للشيخ الألبانى رحمه الله.

(٣) أخرجه بهذه الزيادة أبو داود (٣٢٢٦)، والنسائى (٤/ ٧١) وصححها الشيخ فى الكتاب السابق.

(٤) اختصر المؤلف كلام ابن القيم هنا وحذف منه ما يأتي: «ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر. وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره، وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبرى آجراً. وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة أن لا يضربوا على قبره فسطاطاً. وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاطاً». اهـ. «إغاثة اللهفان» جـ١ ص ١٠٣». (الفقي).

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام، قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد في القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ قال: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذّر ما صنعوا»**[(١)] متفق عليه، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه مناسك حج المشاهد، مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده، من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيم الموقع في الافتتان بها. ومنها: اتخاذها أعياداً. ومنها: السفر إليها. ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعبّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد

القسم الرابع: أن يقتنى الصور لا لرغبة فيه إطلاقاً، ولكنها تأتي تبعاً لغيرها، كالتي تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك، فالظاهر أن هذا لا بأس به، لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة، فهو أولى.

---

(١) سبق تخريجه.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور فى جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها. ومنها: النذر لها ولسدنتها. ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء، وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف، إلى غير ذلك. ومنها: الدخول فى لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها. ومنها: الشرك الأكبر الذى يفعل عندها. ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعل النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (الفرقان: ١٧، ١٨). قال الله تعالى للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ (الفرقان: ١٩). وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ..﴾ الآية (المائدة: ١١٦).

القسم الخامس: أن يقتنى الصور على وجه تكون فيه مهانة ملقاة فى الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة، فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة، لأن فى ذلك امتهاناً للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟

الجواب: نقول: لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه، لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصاً أو سراويل أم عمامة أم غيرها. وقد ظهر أخيراً ما يسمى بالحفائظ، وهى خرقة تلف على الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلى الجسم أو الملابس، فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتهن؟ هى إلى الثانى أقرب، لكن لما كان امتهاناً خفياً وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولى.

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء، كالصور التى تكون فى بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤٠، ٤١).

ومنها[١]: إماتة السنن وإحياء البدع. ومنها[٢]: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عُباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام، والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه. ومنها: أن الذى شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه والميت، فقلَب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت، وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذى شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجراً، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها، قولاً وفعلاً.

وفى صحيح «مسلم» عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«زوروا القبور، فإنها تذكّر الموت»**[٣،٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم السابقون ونحن بالأثر»**[٥،٦]، رواه أحمد والترمذى وحسنه.

---

(١) اختصر المؤلف من كلام ابن القيم ما يأتي: «ومنها مشابهة اليهود والنصارى فى اتخاذ المساجد والسرج عليها. ومنها محادة الله ورسوله، ومناقضة ما شرعه فيها. ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير والإثم العظيم». (الفقي).

(٢) زاد فى «الإغاثة»: ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد، ودين الله الذى بعث به رسوله بضد ذلك. ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخربوا المساجد. (الفقي).

(٣) أخرجه مسلم، وقد سبق تخريجه.

(٤) حذف المؤلف -رحمه الله- من كلام ابن القيم حديث عليّ عند الإمام أحمد: **«إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكرة الآخرة»**.

(٥) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (١٠٥٣)، والطبرانى (١٢٦١٣)، وضعفه الشيخ فى «ضعيف الجامع» (٣٣٧١)، وفى «أحكام الجنائز» (١٩٧).

(٦) حذف المؤلف -رحمه الله- حديث ابن مسعود: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة»** رواه ابن ماجه، وحديث أبى سعيد: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة»** رواه الإمام أحمد. (الفقي).

فهذه الزيارة التى شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»، ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبى ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا[١] ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة، وفى الترمذى وغيره: **«الدعاء هو العبادة»**[٢]، فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها، والاستغفار لهم، والترحم عليهم، وأخرج أبو داود عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم»**[٣]، وإسناده جيد، ورواته ثقات مشاهير. وقوله: **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»** أى: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور. فأمر بتحرى النافلة فى البيوت، ونهى عن تحرى النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن[٤] فى تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله، ما يغضب لأجله كل من فى قلبه وقار لله و غيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفاسد: اتخاذها أعياداً والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الدين، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التى كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم، فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً، وقد نزلوا عن

---

(١) قال ابن القيم: فقال سلمة بن وردان: «رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه يسلم على النبى ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو». (الفقي).

(٢، ٣) سبق تخريجهما.

(٤) الذى فى نسخ «إغاثة اللهفان» التى بأيدينا المخطوطة والمطبوعة أن قول المؤلف -رحمه الله-: «ثم إن فى تعظيم القبور ... إلخ» فصل متقدم قبل ما نقله المؤلف هنا.

....

الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا فى الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر رُكعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسراناً.

فلغير الله ـ بل للشيطان ـ ما يُراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوى الفاقات، ومعافاة ذوى العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذى جعله الله مباركاً وهدى للعالمين، ثم أخذوا فى التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التى يعلم الله أنها لم تُعَفر كذلك بين يديه فى السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولا بحجك كل عام.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هى فوق ما يخطر بالبال، ويدور فى الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح كما تقدم، وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور: سد الذريعة إلى هذا المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم فى نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى فى اتباعه وطاعته، والشر والضلال فى معصيته ومخالفته. اهـ كلامه رحمه الله تعالى.[1]

---

(١) اختصره المؤلف -رحمه الله تعالى-، وتصرف فيه بالتقديم والتأخير على حسب ما بيدنا من نسخ «إغاثة اللهفان». والله يرحم الجميع ويغفر لنا ولهم. (الفقي).

باب
ما جاء في كثرة الحلف (*)

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٩).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعَة، مَمحَقَةٌ لِلكَسبِ**» أخرجاه .

قوله: (باب ما جاء في كثرة الحلف)

أي: من النهي عنه والوعيد. (**وقول الله تعالى:** ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾).

قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير. وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس: يريد لا تحلفوا. وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا.

والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس، فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

قوله: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعَة، مَمحَقَةٌ لِلكَسبِ**»[1] أخرجاه). أي: البخاري ومسلم، وأخرجه أبو داود، والنسائي.

والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطى فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه، فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعاً في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب.

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٨٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦).

وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُم اللهُ** ....

قوله: (وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُم اللهُ وَلاَ يُزَكِّيهم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيم: أُشَيْمطٌ زَانٍ، وعَائِلٌ مُسْتَكبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ، لاَ يَشْتَرِى إِلاَّ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَبِيعُ إِلاَّ بِيَمِينِهِ**»[١] رواه الطبراني بسند صحيح).

و«**سلمان**» لعله سلمان الفارسي، أبو عبد الله، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة، وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدى وشرحبيل بن السمط وغيرهما، قال النبي ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**»[٢]، «**إن الله يحب من أصحابى أربعة: علياً، وأبا ذر، وسلمان، والمقداد**»[٣] أخرجه الترمذي وابن ماجه. قال الحسن: كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم فى عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها. توفى فى خلافة عثمان رضي الله عنه. قال أبو عبيدة: سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة.[٤] ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبى.

قوله: «**ثلاثة لا يكلمهم الله**»[٥] نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شئ وأبينه، وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به، فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا**

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبراني فى «الكبير» (٦١١١) بنحوه، و«الأوسط» (٥٥٧٧)، و«الصغير» (٢/ ٢١)، والبيهقى فى «الشعب» (٤٨٥٢)، وصححه الشيخ فى «صحيح الجامع» (٣٠٧٢).

(٢) **ضعيف جداً**: أخرجه الطبراني (٦٠٤٠)، والحاكم (٣/٥٩٨)، وقال الشيخ فى «ضعيف الجامع» (٣٢٧٢) ضعيف جداً، ورواه عمرو بن عوف، قال الشيخ فى هامش «الضعيف» وقد صح موقوفاً على على بن أبى طالب - راجع «الضعيفة» (٣٧٠٤).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١)، والترمذى (٣٧١٨)، وابن ماجه (١٤٩)، والحاكم، انظر: «ضعيف الجامع» (١٧٢٤)، و«الضعيفة» (٣١٢٨)، وقد جعل الشارح -رحمه الله- الحديث والذى قبله رواية واحدة.

(٤) هذا القول نسب لابن يزيد البحراني، وقد قال الذهبي في «السير» (١/ ٥٥): وقد فتشت فما ظفرت في نسبه بشيء سوى قول البحراني، وذلك منقطع لا إسناد له. ثم قال، فلعله عاش بضعاً وسبعين سنة وما أراه بلغ المئة، فمن كان عنده علم، فليفدنا. اهـ.

(٥) فى «قرة العيون»: هذا وعيد شديد فى حقهم. لأنه قد تواتر أنه تعالى يكلم أهل الإيمان ويكلمونه فى عرصات القيامة. والأدلة على ذلك فى الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه. وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة صفة الكلام. (الفقي).

وَلاَ يُزَكِّيهم وَلَهُم عَذابٌ أليم: أُشَيمطٌ زَان، وعَائلٌ مُستَكبِرٌ، ورَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ، لاَ يَشتَرِى إِلاَّ بِيَمينه، وَلاَ يَبِيعُ إِلاَّ بِيَمينِهِ» رواه الطبراني بسند صحيح.

أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢). فأتى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضاً، وذلك فى القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا -يعنى النفاة-: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به. قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل، ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة، والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلما إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة. اهـ.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره، والله أعلم.

وقوله: «ولا يزكيهم ولهم عذاب إليم» لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التى هى أعظم العقوبات.

قوله: «أشيمط زان» صغره تحقيراً له[1]، وذلك لأن داعى المعصية ضعف فى حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا، محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله، وضعف الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب، فإن قوة داعى الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهى ويراجع.

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر، لأن الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرة المال والنعم والرياسة، والعائل الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعى إليه، يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن فى قلبه، فعظمت عقوبته، لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذميم، الذى هو من أكبر المعاصى.

قوله: «ورجل جعل الله بضاعته» بنصب الاسم الشريف، أى: الحلف به، جعله بضاعته،

---

(١) تصغير أشمط، وهو الذى بشعره شمط أى شيب. (الفقي).

وفى الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيرُ أُمَّتى قَرنى، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم -قالَ عمرانُ: فَلا أدرى أَذَكَر بَعدَ قَرنه مَرَّتَين أو ثَلاثاً؟-..

لملازمته له وغلبته عليه، وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة على قلة الداعى إليها، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه.

قوله: (وفى الصحيح) أى صحيح مسلم، وأخرجه أبو داود والترمذى، ورواه البخارى بلفظ: «خيركم». (1)

قوله: (عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خَيرُ أُمَّتي قَرنى، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُم -قالَ عمرانُ: فَلا أدرى أَذَكَر بَعدَ قَرنه مَرَّتَين أو ثَلاثاً؟- ثُمَّ إنَّ بَعدكُم قَومٌ يشهدونَ وَلا يُستشهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤتَمنُون، وينذُرُونَ ولاَ يُوفُونَ، وَيَظهَرُ فيهم السِّمَنُ»**(2)).

قوله: «خير أمتى قرنى» لفضيلة أهل ذلك القرن فى العلم والإيمان والأعمال الصالحة التى يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها وكثر أهله، وقلّ الشر فيها وأهله، واعتز فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء.

«ثم الذين يلونهم» فضّلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعى إليه، والراغب فيه والقائم به، وما ظهر فيه من البدع أُنكر واستُعظم وأُزيل، كبدعة الخوارج، والقدرية، والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت، فأهلها فى غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله: «فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟» هذا شك من راوى الحديث عمران بن حصين رضي الله عنه. والمشهور فى الروايات: أن القرون المفضلة ثلاثة، الثالث دون الأولين فى الفضل، لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون، والإسلام فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء فى الدين، وكثرة الأهواء.

---

(1) بل رواه باللفظين، فرواية «خير أمتى أهل قرني» فى فضائل الصحابة. ورواية «خيركم» فى عدة مواضع منه. (الفقي).

(2) أخرجه البخارى (٢٦٥١) (٣٦٥٠) (٦٤٢٨) (٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٥)، وأبو داود (٤٦٥٧)، والترمذى (٢٢٢٢)، والطيالسى (٨٥٢)، والطحاوى «مشكل» (٢٤٦٤)، و«شرح الآثار» (٤/ ١٥١)، والطبرانى (١٨/ ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩)، وابن حبان (٦٧٢٩)، وأحمد (٤/ ٤٢٦، ٤٤٠)، وأبو نعيم (٢/ ٢٥٩)، والبيهقى (١٠/ ١٦٠)، والبغوى (٣٨٥٨).

ثُمَّ إنَّ بَعْدَكُم قَومٌ يشهدونَ ولا يُستشهَدُونَ، ويَخُونُونَ ولاَ يُؤتَمنُون، ويَنذُرُونَ ولاَ يوفُونَ، ويَظهَرُ فِيهم السِّمَنُ».

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خَيرُ النَّاس قَرني، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ يَجيءُ قَومٌ تَسبقُ شَهَادَةُ أَحَدِهم يَمينَهُ، ويَمينُهُ شَهَادَتَهُ».

فقال: «ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون» لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحريهم للصدق، وذلك لقلة دينهم، وضعف إسلامهم.

قوله: «ويخونون ولا يؤتمنون» يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم.

قوله: «وينذرون ولا يوفون» أي: لا يؤدون ما وجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «ويظهر فيهم السمن» لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعم بها، وغفلتهم عن الدار الآخرة، والعمل لها. وفي حديث أنس: «لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ[1]، فما زال الشر يزيد في الأمة، حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم، حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف.[2]

قلت: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا في ذلك نظماً ونثراً، فنعوذ بالله من موجبات غضبه.

قوله: (وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خَيرُ النَّاسِ قَرني، ثُمَّ الذِينَ يَلونَهُم، ثُمَّ الذِينَ يَلونَهُم، ثُمَّ يَجِيءُ قَومٌ تَسبقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِم يَمينَهُ، ويَمينُهُ شَهَادَتَهُ»[3،4]).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨)، والقضاعي (٩٠٣)، وأبو يعلى (٤٠٣٦)، وابن حبان (٥٩٥٢)، وأحمد (١٢١٦٢) (١٢٣٤٧) (١٢٨١٧) (١٢٨٣٨) (١٣٧٥٣).

(٢) في «قرة العيون»: فحدث التفرق والاختلاف في الدين وحدث الغلو في أهل البيت من بني بويه في المشرق لما كان لهم دولة وبنوا المساجد على القبور وغلوا في أربابها وظهرت دولة القرامطة، وظهر فيهم الكفر والإلحاد في شرائع الدين، ومذهبهم معروف، وظهر فيهم من البدع ما يطول عده، وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين، وما زال أهل السنة على الحق، ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣)، والترمذي (٣٨٥٩)، وابن أبي عاصم (١٤٦٦)، والطحاوي (٤/ ١٥٢)، والشاشي (٧٩٤)، وابن حبان (٧٢٢٨)، وأحمد (٣٥٩٤) (٣٩٦٣) (٤١٣٠) (٤١٧٣) (٤٢١٧) وغيرهم.
وفي الباب حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥٣٤)، وأحمد (٢/ ٢٢٨)، وعائشة عند مسلم (٢٥٣٦)، وبريدة الأسلمي، والنعمان بن بشير.

(٤) في «قرة العيون»: في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك. (انفقي).

وقال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان. **الثانية:** الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه ولا يشترى إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعى.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يُستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة. وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء، لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك، وهذا هو الغالب على الأكثر، والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع فى صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف، فكن من الناس على حذر.

قوله: (وقال إبراهيم -هو النخعى-: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار).

وذلك لكثرة علم التابعين وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنه من أفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به، وفى هذا الرغبة فى تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد: تؤخذ من قول إبراهيم النخعى: **«كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد»**، فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضاً عناية السلف بتربية أولادهم، وأن من منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استناداً إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر بضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب:

الأول: أن يكون الصغير قابلاً للتأديب، فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثانى: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث: أن لا يسرف فى ذلك كمية أو كيفية أو نوعاً أو موضعاً أو غير ذلك.

الرابع: أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام، لم يكن مؤدباً، بل منتصر.

بـاب مـا جاء فى ذمـة الله وذمـة نبيه (*)

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الآية (النحل: ٩١).

قوله: (باب ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية).

قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، ولا تعارض بين هذا وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٤). وبين قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٩). أى: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله ﷺ فى الصحيحين: «**إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير منها وتحللتها** - وفى رواية - **وكفّرت عن يمينى**»[1]، لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهى ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها: الداخلة فى العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد فى الآية: يعنى الحلف أى: حلف الجاهلية.

ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حلف فى الإسلام، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»[2]، وكذا رواه مسلم، ومعناه أن الإسلام لايحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨٤).

(١) أخرجه البخارى (٣١٣٣) (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩) عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨٣)، ومسلم (٢٥٣٠)، وأبو داود (٢٩٢٥)، والنسائى «كبرى» (٦٤١٨)، وأبو يعلى (٧٤٠٦)، والطحاوى (١٦١٥) (٥٩٩١)، وابن حبان (٤٣٧٢)، والطبرانى (١٥٨٠)، والبيهقى (٦/ ٢٦٢).

وعن بُرَيدة قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً فقال: اغزُوا بِاسمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَن كَفَرَ بِاللهِ، اغزُوا**،..

وقوله: «عن بُريدة» هو ابن الحُصيب الأسلمى، وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه. قاله فى «المفهم».

قوله: «قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى» فيه من الفقه، تأمير الأمراء، ووصيتهم.

قال الحربى: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها، والجيش: ما كان أكثر من ذلك، وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته. قلت: وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

قوله: «ومن معه من المسلمين خيراً» أى ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً، من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

قوله: «اغزو باسم الله» هذا أى اشرعوا فى فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له.

قلت: فتكون الباء فى «**بسم الله**» هنا للاستعانة والتوكل على الله.

قوله: **«قاتلوا من كفر بالله»** هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم. وقد خصص منهم من له عهد، والرهبان، والنسوان، ومن لم يبغ الحلم، وقد قال

قوله: «**أو سرية**»: هذه ليست للشك، بل للتنويع، فإن الجيش ما زاد على أربعمائة رجل والسرية ما دون ذلك.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ- قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، ويقسم ما غنمه، كقسمة ما غنم الجيش.

ب- قسم ينفذ فى ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

جـ- قسم ينفذ فى الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش.

وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة، فلسرية الابتداء الربع بعد الخمس، لأن الجيش وراءها، فهو ردء لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس، لأن الجيش قد ذهب عنها، فالخطر عليها أشد. وهذا الذى تعطاه السريتان راجع إلى اجتهاد الإمام: إن شاء أعطى وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة.

وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغدرُوا، وَلاَ تَمثُلوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَإِذَا لَقيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشرِكِينَ فَادعُهُم إلى ثَلاَث خِصَالٍ -أو خِلاَلٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فاقبَل مِنهُم وكُفَّ عَنهُم،

متصلاً به: «ولا تقتلوا وليداً»، وإنما نهى عن قتل الرهبان، والنسوان، لأنه لا يكون منهم قتال غالباً، وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا.

قوله: «ولا تَغلوا، ولا تغدورا، ولا تمثلوا» الغلول: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها. والغدر: نقض العهد. والتمثيل هنا: التشويه بالقتيل، كقطع أنفه وأذنه والعبث به. ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي كراهية المُثلة.

قوله: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال -أو خصال-» الرواية بالشك وهو من بعض الرواة، ومعنى الخلال والخصال واحد.

قوله: «فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم» قيدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده

قوله: **«ولا تغدروا»**: الغَدْرُ: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا، فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد، فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على عليٍّ صاح به عليٌّ: ما خرجت لأبارز رجلين. فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله علي رضي الله عنه.

ونيعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن لا يكون بيننا وبينهم عهد، فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحال الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه، فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم، لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٧)، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (التوبة: ٤).

الحال الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه، فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم، لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨).

قوله: **«ولا تمثلوا»**: التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء، كالأنف واللسان وغيرهما، وذلك عند أسرهم، لأنه لا حاجة إليه، لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك.

ثُمَّ ادعُهُم إِلَى الإسلاَمِ فَإِن أَجَابُوكَ فَاقبَل منهُم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَى التَحَوُّل من دَارِهِم إِلَى دَارِ المُهَاجِرِينَ، وَأَخبِرهُم أنهم إن فعلوا ذَلك فلهم ما للمهاجرين وعَليهم مَا عَلى

بنصب «أيتهن» على أن يعمل فيها «أجابوك» لا على إسقاط الجر، و«ما» زائدة، ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم، كما تقول: جئتك إلى كذا وفى كذا، فيعدى إلى الثانى بحرف الجر.

قلت: فيكون فى ناصب «أيتهن» وجهان ذكرهما الشارح: الأول- منصوب على الاشتغال، والثانى- على نزع الخافض.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» كذا وقعت الرواية فى جميع نسخ كتاب مسلم «ثم ادعهم» بزيادة «ثم» والصواب إسقاطها، كما روى فى غير مسلم، كمصنف أبى داود، وكتاب «الأموال» لأبى عبيد، لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال.

وقوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين» يعنى المدينة، وكان فى أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل الإسلام، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم.[1]

فقيل: لا يمثل بهم للعموم، والنبى ﷺ لم يستثن شيئاً، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم، فقد يكون لا يرضى بما فعل قومه، فكيف نمثل به؟!

وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا، لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤).

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا، فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم فى هذه الحال، عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثانى.

فإن قيل: قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟ فيقال: إن الأمة الواحدة فعل

---

(١) فى «قرة العيون»: وكذلك إذا ظهرت المعاصى فى بلدة. نص عليه الفقهاء فى كتبهم. اهـ. يعنى إذا غلبت المعاصى وأهلها ولم يقدر ولم يجد سبيلاً للإنكار عليهم. أما إذا وجد السبيل لإقامة الحجة. فإن بقاءه يكون واجباً لتبليغ الدين خصوصاً إذا كان يدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع، ويجد من يسمع له ويصغى إليه وينتفع بدعوته. والله الموفق. (الفقي).

المهاجرين، فَإِن أَبَوا أَن يَتحولوا منهَا فَأخبرهُم أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأعرَاب المُسلمينَ، يَجري عَلَيهم حُكمُ الله تَعَالَى، وَلاَ يَكُونَ لَهُم في الغنيمَة وَالفيءِ شَيءٌ، إلاّ أن يُجَاهدُوا مَعَ المُسلمين، فَإِن هُم أَبَوا فَاسأَلهُم الجزيَةَ، فَإِنَ هُم أَجَابُوكَ فَاقبل منهُم، وَكُفَّ عَنهُم، فَإِن هُم أَبَوا فَاستَعِن بالله وَقَاتلهُم.

قوله: «فإن أبوا أن يتحولوا» يعنى: أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفئ شيئاً، وقد أخذ الشافعى رحمه الله بالحديث فى الأعراب، فلم ير لهم من الفئ شيئاً، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم فى الصدقة عنده، ومصرف كل مال فى أهله. وسوّى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين، وجوّزا صرفهما للضعيف.

قوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» فيه حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعى فى أخذ الجزية من كل كافر: عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره، وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع، إلا من مشركى العرب ومجوسهم. وقال الشافعى: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب، عرباً كانوا أو عجماً، وهو قول الإمام أحمد فى ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

قلت: لأن النبى ﷺ أخذها منهم، وقال: **«سنوا بهم سنة أهل الكتاب»**(١).

وقد اختلفوا فى القدر المفروض من الجزية. فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورِق، وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان.

الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله -عز وجل- يخاطب اليهود فى عهد الرسول ﷺ بأمور جرت فى عهد موسى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ (البقرة:٧٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ (البقرة:٩٣)، وما أشبه ذلك.

وقوله: «إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»: يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم. وأما الفيء، فاختلف أهل العلم فى ذلك فعند الإمام أحمد لهم حق فى الفيء مطلقاً ولهم حق فى الغنيمة إن جاهدوا. وقيل: لا حق لهم فى الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء فهو عائد على الغنيمة، إذ ليس من فى البلد مستعداً للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابى عند إبله.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه مالك (١/ ٢٧٨/ ٤٢)، وعنه الشافعى (١١٨٣)، والبيهقى (٩/ ١٨٩)، عن عبد الرحمن بن عوف. وضعفه الألبانى فى «الإرواء» (١٢٤٨).

وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حصن فَأَرادُوكَ أَن تَجعَلَ لَهُم ذمَّةَ الله وَذمَّةَ نَبيِّه فَلاَ تَجعَل لَهُم ذمَّةَ الله وَذمَّةَ نَبيِّه، ولَكن اجعَل لَهُم ذمَّتَكَ وَذمَّةَ أَصحَابكَ، فَإِنَّكُم أن تَخفرُوا ذمَمَكُم وَذمَّةَ أَصحَابكُم أَهونُ من أنَ تَخفرواْ ذمَّةَ الله وَذمَّةَ نَبيِّه..

وقال الشافعي: فيه دينار على الغنى والفقير. وقال أبو حنيفة رحمه الله، والكوفيون: على الغنى ثمانية وأربعون درهماً، والوسط أربعة وعشرون درهماً، والفقير اثنا عشر درهماً. وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله، قال يحيى بن يوسف الصرصرى الحنبلى رحمه الله:

وقاتل يهوداً والنصاري وعصبة الـ ... مجوس فإن هم سلموا الجزية اصدد

على الأدون اثني عشر درهماً افرضن ... وأربعة من بعد عشرين زيد

لأوسطهم حالاً ومن كان موسراً ... ثمانية مع أربعين لتنقد

وتسقط عن صبيانهم ونسائهم ... وشيخ لهم فانٍ وأعمي ومقعد

وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلم ... ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

وعند مالك وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

فإذا أسلموا، فلهم ثلاث مراتب:

١- التحول إلى دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

٢- البقاء فى أماكنهم مع الجهاد، فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة، وفى الفىء الخلاف.

٣- البقاء فى أماكنهم مع ترك الجهاد، فليس لهم من الغنيمة الفىء شىء.

قوله: **«فإن هم أبوا»**: **«هم»** عند البصريين: توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، والتقدير: فإن أبوا هم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده. والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون فى مسألة: أن نتبع الأسهل، والأسهل هنا إعراب الكوفيين.

قوله: **«فاسألهم الجزية»**: سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء: أن سؤال الاستفهام يتعدى إلى المفعول الثانى بـ «عن»، قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (النازعات: ٤٢)، وقد يكون المفعول الثانى جملة استفهامية، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ (المائدة: ٤)، وأما سؤال الإعطاء، فيتعدى إليه بنفسه، كقولك: سألت زيداً كتاباً.

وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حصن فَأَرَادُوكَ أَن تُنزِلَهُم عَلَى حُكمِ الله، فَلاَ تُنزِلهُم عَلَى حُكمِ الله وَلَكن أَنزِلهُم عَلَى حَكمِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدرِي أَتُصِيبُ فِيهِم حُكمَ الله أَم لاَ»[1]. رواه مسلم.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن» الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب فى مسائل الاجتهاد واحد، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره، ووجه الاستدلال به أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكما معيناً فى المجتهدات، فمن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ـ الحديث» الذمة: العهد. وتخفر: نتقض. يقال: أخفرت الرجل: إذا نقضت عهده، وخفرته: أجرته. ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، كجملة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى، والله أعلم.

قوله: **«الجزية»**: فعلة من جزى يجزى، وظاهر فيها أنها مكافأة على شيء، وهى عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضاً عن حمايته وإقامته بدارنا.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلى:

١- تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه.

٢- يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا.

٣- لا يجوز القتال قبل الدعوة، لأنه جعل القتال آخر مرحلة.

وأما ما ورد فى «الصحيح» أن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون، فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع فيها للمصلحة.

٤- جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس، لأن أهل الكتاب نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء، فاختلف أهل العلم:

فقيل: لا تؤخذ من غير هولاء، وقيل: لا تؤخذ من مشركى العرب، لأن فيها إذلالاً. والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار، لعموم قوله ﷺ: **«من كفر بالله»**، ولم يقل: اليهود والنصارى.

٥- الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا فى الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت الجزية، لأنه على هذا التقدير يجب أن يدخلوا فى الدين أو يقاتَلوا، وهذا هو

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٩/ ٤٢٤)، ومسلم (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٢)، والترمذى (علل) (٢/ ٦٩٣)، والدارمى (٢٤٣٩) (٢٤٤٢)، وابن ماجه (٢٨٥٨)، والنسائى «كبرى» (٨٧٦٥)، والطحاوى «مشكل» (٣٥٧٣) (٣٥٧٥)، وفى «المعانى» (٣/ ٢٠٦)، وأحمد (٥/ ٣٥٢) وغيرهم عن بريدة.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

قوله: «وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال»[1]، ذكر فيه: أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث فى الدعوة قبل القتال، قال: وهو أن مالكاً قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدعوا، ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تلتمس غرتهم.

الراجح الذى يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس...»** الحديث، فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

٦- عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهداً لله ورسوله.

٧- جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨- أنه لا يجوز أن ينزلهم على حكم الله، إما فى عهد الرسول ﷺ أو مطلقاً حسب الخلاف السابق.

٩- أن المجتهد قد يصيب وقد يخطئ، لقوله ﷺ: **«فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»** وقال النبى ﷺ: **«إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب، فله أجران، وإن أخطأ، فله أجر واحد»**، وعليه، فهل نقول: إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب.

وقيل: ليس كل مجتهد مصيباً، وقيل: كل مجتهد مصيب فى الفروع دون الأصول، حذراً من أن نصوب أهل البدع فى باب الأصول.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق، فإنه يخطئ ويصيب، ويدل له قوله ﷺ: **«فاجتهد فأصاب، واجتهد فأخطأ»**، فهذا واضح فى تقسيم المجتهدين إلى مخطئ ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول، حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين، لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً والسلف غير مصيبين، سواء فى علم الأصول أو الفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكرا تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئاً من أكبر أصول الدين بالفروع، مثل الصلاة، وهى ركن من أركان الإسلام، ويخرجون أشياء فى

---

(١) ليس فى نسخ المتن التى بأيدينا قول نافع هذا فليحرر. (الفقي).

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح، لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون

العقيدة، اختلف فيها السلف يقولون إنها من الفروع لأنها ليست من العقيدة ولكن فرع من فروعها، ونحن نقول: إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة، فكل الدين أصول، لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة، فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها. والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمي بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف، فليس بمقبول مطلقاً.

١٠- أن باب الاجتهاد باق، لقوله: **«لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»**، وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ، بل الواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يأخذه منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثاً في هذا الحكم حتى يتثبت لأن هذا الحكم قد يكون منسوخاً أو مقيداً أو عاماً وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقول: لا تنظر في القرآن والسنة لأنك لست أهلاً للاجتهاد، فهذا غير صحيح، ثم إنه على قولنا: إن باب الاجتهاد مفتوح، لا يجوز أبداً أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم، لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم، فهذا أيضاً لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادي محرمة، فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في استخراج المسائل من أدلتها، ثم يأتي في آخر الزمان من يقول: إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال ويقولون: كذا وكذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدها وأصولها؟!

١١- فيه إثبات الحكم لله -عز وجل- وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

أ- حكم كوني، وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ (يوسف: ٨٠).

ب- حكم شرعي، وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به. ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ (الممتحنة: ١٠).

الرابعة: قوله: «**قاتلوا من كفر بالله**».

الخامسة: قوله: «**استعن بالله وقاتلهم**».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟

ذلك سبباً مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً، والله أعلم.

بـــاب ما جاء فى الإقسام على الله (*)

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لاَ يَغفرُ اللهُ لفُلاَن، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَن ذَا الذِى يَتَأَلَّى عَلَىَّ أَن لاَ أَغفرَ لِفُلاَن؟ إِنِّى قَدْ غفَرتُ لَهُ وأَحبَطتُ عَمَلَكَ**» رواه مسلم.

قوله: (باب ما جاء فى الإقسام على الله)

ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَالله لاَ يَغفرُ اللهُ لفُلاَن، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَن ذَا الذِى يَتَأَلَّى عَلَىَّ أَن لاَ أَغفرَ لفُلاَن؟ إِنِّى قَد غَفَرتُ لَهُ وأَحبَطتُ عَمَلَكَ**»(1) رواه مسلم.

قوله: «يتألى» أى: يحلف، والألِيَّة بالتشديد الحلف، وصح من حديث أبى هريرة. قال البغوى فى «شرح السنة» -وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار- قال: دخلت مسجد المدينة فنادانى شيخ قال: يا يمامى، تعال، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة، قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته، أو لخادمه، قال:

الإقسام: مصدر أَقْسَم يُقسم إذا حلف. والحلف له عدة أسماء، هى: يمين، وأَلْيَة، وحلف، وقَسَم، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (الواقعة: ٧٥)، وقال: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ (البقرة: ٢٢٦)، أى: يحلفون، وقال: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٥)، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ (التوبة: ٦٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ (النور: ٥٣).

واختلف أهل العلم فى ﴿لا﴾ فى قوله: ﴿لا أُقْسِمُ﴾، فقيل: إنها نافية على الأصل، وإن معنى الكلام: لا أقسم بهذا الشىء على المقسم به، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف، لأن من قرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفى. وقيل: إن ﴿لا﴾ زائدة، والتقدير أقسم. وقيل: إن ﴿لا﴾ للتنبيه، وهذا بمعنى الثانى، لأنها من حيث الإعراب زائدة. وقيل: إنها نافية لشىء مُقدر، أى: لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا كما فى قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة: ١)، فيه شىء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتنبيه.

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل، مثل: والله، ليفعلن الله كذا، أو والله، لا يفعل الله كذا.

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨٤).

(1) أخرجه مسلم (٢٦٢١)، وأبو يعلى (١٥٢٩)، والطبرانى (١٦٧٩)، وابن حبان (٥٧١١).

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر، كأنه يقول مذنب، فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه، قال: فيقول: خلني وربي، قال: فوجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال: أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكاً، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يارب، قال: اذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. ورواه أبو داود في سننه، وهذا لفظه عن أبي هريرة ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت عليّ رقيباً؟ قال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة، فقبضت أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»[1].

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم بما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله، ليشفّعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي ﷺ ذلك في قصة الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضي الله عنهما: «حينما كَسَرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبي ﷺ فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتكسر ثنية الربيع؟ والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع، وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي، فقال الرسول ﷺ: «**يا أنس! كتاب الله القصاص**» يعني: السن بالسن. قال: والله، لا تكسر ثنية الربيع»، وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم على ذلك. فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا، فقال النبي ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تكسر ثنية الربيع، فألقى الله العفو في

---

(١) **حسن الإسناد**: أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣، ٣٦٣)، وأبو داود (٤٩٠١)، وابن حبان (٥٧١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٨٩)، وحسنه الألباني رحمه الله.

وفى حديث أبى هريرة: أن القائل رجل عابد، **قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»**.

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألى على الله. **الثانية:** كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ**»[1] إلى آخره.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

قوله: «وفى حديث أبى هريرة أن القائل رجل عابد» يشير إلى قوله فى هذا الحديث: **«أحدهما مجتهد فى العبادة»**.

وفى الأحاديث: بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام، كما فى حديث معاذ: «**قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟**»[2،3]، والله أعلم.

قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ﷺ على القصاص، فعفوا وأخذوا الأرش.

فثناء الرسول ﷺ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله أبر قسمه ولين له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذى قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أُحُد، ولما استشهد وجد به بضعٌ وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه، وهى الربيع هذه، رضى الله عن الجميع وعنا معهم.

ويدل أيضاً لهذا القسم قوله ﷺ: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**».

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتَحَجُّر فضل الله -عز وجل- وسوء الظن به تعالى، فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المقسم، وهذا القسم هو الذى ساق المؤلف الحديث من أجله.

---

(١) أخرجه البخارى (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٧٨)، والترمذى (٢٣١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٠)، وابن حبان (٥٧٠٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٤)، وأخرجه أحمد (٢/ ٣٥٥، ٥٣٣)، عن الحسن عن أبى هريرة، ولم يسمع الحسن من أبى هريرة. وأخرجه مالك (٢/ ٩٨٥) عن أبى هريرة موقوفاً.

(٢) **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٠٣)، وعنه عبد بن حميد (١١٢)، والترمذى (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائى «كبرى» (١١٣٩٤)، وأحمد (٥/ ٢٣١-٢٣٧)، وابن حبان (٢١٤)، والطبرانى (٢٠/ ١٢٢-٢٦٦)، والمروزى فى «تعظيم قدر الصلاة» (١٩٦)، والقضاعى (١٠٤)، والبيهقى فى «الشعب» (٣٣٥٠)، والبغوى (١١) وغيرهم.

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفى «قرة العيون»: وفيه معنى قوله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه**». (الفقي).

بـــاب لا يستشفع بالله على خلقه (*)

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «**جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نُهكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال النبي ﷺ: سُبحَانَ الله! سُبحَانَ الله! فما زال يسبح حتى عُرِفَ ذلك في وجوه الصحابة، ثم قال النبي ﷺ: وَيَحكَ، أَتَدرِي مَا اللهُ؟ إنَّ شأنَ الله أَعظَمُ مِن ذَلِكَ، إِنَّهُ لاَ يُستَشفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِن خَلقِه**» وذكر الحديث، رواه أبو داود.(1)

قوله: (باب لا يستشفع بالله على خلقه)

وذكر الحديث، وسياق أبي داود في سننه أتم مما ذكره المصنف ولفظه:

عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده، قال: «**أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: ويحك، أتدري ما تقول؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدري ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهكذا -وقال بأصابعه مثل القبة عليه- وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**»(2). قال ابن بشار في حديثه: «**إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته**».

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.(3)

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله -عز وجل-، لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه، إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٨٤).

(١) في «قرة العيون»: هذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحاً أو حسناً وسكت عليه. اهـ.

أقول: بل تكلم أبو داود على سنده، فخطَّأ بعض رواته في سياقه وصوَّب من قال: إنه روى كتابة من نسخة وهب بن جرير لا تحديثاً، وأن مداره فيها على محمد بن إسحاق عنعنة لا سماعاً. (الفقي).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧٥)، وضعفه الشيخ في «ضعيف أبي داود» (١٠١٧).

(٣) يشير بذلك إلى ضعف الحديث؛ لأن محمد بن إسحاق مدلس. وانظر الكلام على الحديث وشروح الأئمة له في «عون المعبود» (جـ ٤ ص ٣٧٠). (الفقي).

فيه مسائل:

الأولى: الإنكار على من قال: «نَستَشفعُ بِاللهِ عَليكَ».

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

قوله: «ويحك[1] إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه» فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر: ٤٤)، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يشفّع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي.

قوله: «وسبح الله كثيراً وعظمه» لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده **«إن شأن الله أعظم من ذلك»**.

وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سماواته. وفيه: تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة، خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في «مفتاح دار السعادة»: -بعد كلام سبق فيما يُعرّف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته- قال بعد ذلك:

عنده، بل يأمره أمراً والله -عز وجل- لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد، لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعاً، ولهذا أنكر النبي ﷺ ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد.

---

(١) في «قرة العيون»: ويحك كلمة تقال للزجر. قوله: «أتدري ما الله؟» فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله. (الفقي).

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نَستَشفعُ بِكَ عَلَى الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير «**سبحان الله**».

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.

والثانى: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافّين من حول العرش، لهم زَجل بالتسبيح والتحميد، والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها، من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر مظلوم، وهداية

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء: وهذا فى حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه، **لأنه** ﷺ انقطع عمله بنفسه وعبادته، ولهذا لما حصل الجدب فى عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس، فقال: «**اللهم! إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا**»، وتوسلهم بالنبى ﷺ كان بطلبهم الدعاء منه، ولهذا جاء فى بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو.

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبى الذى كان جالساً عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى، فقال: السلام عليكم يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤)، وإنى قد جئت مستغفراً لذنبى مستشفعاً بك إلى ربى، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكمُ
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف، قال العتبى: فغلبتنى عينى، فرأيت النبى ﷺ فى النوم، فقال: يا عتبى! بشر الأعرابى أن الله قد غفر له.

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها، لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح، لأن الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا﴾ ولم يقل: إذا ظلموا، و«إذ» لما مضى

حيران، وتعليم جاهل، وردّ آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف، وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان، **فهي** مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع منها عن سمع غيره، ولا تعطله كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عانياً لعزته، فيسجد بين يدى الملك الحق المبين، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب، وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه، فيا له من سفر ما أبركه وأروحه، وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب. اهـ كلامه رحمه الله.

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ فى حياته، فالمراد به: استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ، بل كل حى صالح يرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة، كما قال النبى ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: **«لا تنسنا يا أخى من صالح دعائك»**(١، ٢). وأما الميت: فإنما يشرع فى حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفى غير ذلك، وهذا هو الذى يشرع فى حق الميت، وأما دعاؤه فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهى عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾ (فاطر: ١٣، ١٤). فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة، أى: ينكره ويعادى من فعله، كما فى آية الأحقاف:

بخلاف «إذا»، والصحابة ﷺ لما لحقهم الجدب فى زمن عمر لم يستسقوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٢٩)، وأبو داود (١٤٩٨)، والترمذى (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤)، وضعفه الشيخ فى «ضعيف أبى داود» (٣٢٢)، و«ضعيف الجامع» (٦٢٧٨)، و«ضعيف الترمذى» (٧١٥).

(٢) رواه أبو داود وأحمد فى «المسند» (جـ ١ ص ٢٩، وجـ ٢ ص ٥٩)، عن عبد الله بن عمر: «أن عمر استأذن النبى ﷺ فى العمرة، فأذن له. فقال: **يا أخى أشركنا فى صالح دعائك، لا تنسنا**» قال عبد الرزاق فى حديثه: فقال عمر: «ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس» لقوله: يا أخي. (الفقي).

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٦). فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر. والصحابة ﷿، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم، أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبى ﷺ بعد وفاته، حتى فى أوقات الجدب، كما وقع لعمر ﷺ لما خرج ليستسقى بالناس خرج بالعباس عم النبى ﷺ، فأمره أن يستسقى(١)، لأنه حى حاضر يدعو ربه،(٢) فلو جاز أن يستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر ﷺ والسابقون الأولون بالنبى ﷺ. وبهذا يظهر الفرق بين الحى والميت، لأن المقصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً، فإنهم فى الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل، ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم، فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك، وبالله التوفيق.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري. وقد حصل ذلك فى عام الرمادة سنة ثمان عشرة، ودام القحط تسعة أشهر. قال الحافظ فى «الفتح» (جـ٢ ص ٣٣٩): وقد بيَّن الزبير بن بكار فى «الأنساب» صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة والوقت الذى وقعت فيه. فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم إليك بى لمكانى من نبيك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث» فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس. (الفقي).

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك (*)

عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه[1] قال: «**انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيّدُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى، قلنا وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً،**

قوله: (باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك).

حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص[2]، وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[3]، وتقدم قوله: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل**»[4]، ونحو ذلك.

ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنساناً: «**ويلك قطعت عنق صاحبك**» ـ الحديث، أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: «**أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له: قطعت عنق صاحبك ـ ثلاثاً**»[5].

مناسبة الباب للتوحيد: لما تكلم المؤلف -رحمه الله- فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد، وعلى ذكر ما ينافيه أو ينافي كماله، ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك من كل وجه حتى في الألفاظ ليكون خالصاً من كل شائبة.

(*) انظر «القول السديد» للسعدي في آخر هذا الجزء ص (٣٨٤).

(١) قال في «أسد الغابة»: عبد الله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش. العامري ثم الكعبي ثم من بني الحريش وهو بطن من بني عامر بن صعصعة. له صحبة. سكن البصرة - ثم ساق بسنده إلى مطرف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه أنه قال: «قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر، فقالوا: يا رسول الله أنت سيدنا وأنت والدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء، وأنت وأنت، فقال: **قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان**». وقولهم: «أنت الجفنة الغراء» كانت العرب تدعو السيد المطعام (جفنة) لأنه يضعها ويطعم الناس فيها، فسمي باسمها، و(الغراء) البيضاء أي أنها مملوءة بالشحم والدهن. قاله أبو السعادات في «النهاية». (الفقي).

(٢) في «قرة العيون»: وقد اشتمل هذا الكتاب -على اختصاره- على أكثر ذلك والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه. يعرف ذلك من تدبره وعرف ما تضمنه باباً باباً. (الفقي).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٦٢) (٣٤٤٥) (٤٠٢١) (٦٨٢٩) (٦٨٣٠) (٧٣٢٣)، ومسلم (٦١٩١)، وأبو داود (٤٤١٨). والترمذي «شمائل» (٣٢٣)، وابن ماجه (٢٥٥٣)، والنسائي «كبرى» (٧١٥٧) (٧١٥٨) (٧١٥٩)، وأبو يعلى (١٥٣)، وابن حبان (٤١٣)، وأحمد (١٥٤) (٣٩١).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).

فقال: قُولوا بِقَولِكُم، أوَ بَعضِ قَولِكُم، ولاَ يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ»[1] رواه أبو دواد بسند جيد.

وقال: «**إذا لقيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب**»[2]، أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه، عن المقداد بن الأسود. وفى هذا الحديث: نهى عن أن يقولوا: أنت سيدنا، وقال: «**السيد الله تبارك وتعالى**». ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً وقال: «**لا يستجرينكم الشيطان**»[3]. وكذلك قوله فى حديث أنس: «**أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا**»[4] الخ، كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضى بهم إلى الغلو، وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه -ولو بما هو فيه- من عمل الشيطان، لما تفضى محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح فى نفسه وذلك ينافى كمال التوحيد، فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل فى غاية المحبة، وكمال الذل يقتضى الخضوع والخشية، والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا فى مقام الذم لها، والمعاتبة لها فى حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً، فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً، والنهى عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل والمحبة له، خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب، دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد، وإذا أدّاه المدح إلى التعاظم فى نفسه والإعجاب بها وقع فى أمر عظيم ينافى العبودية الخاصة، كما فى الحديث:

قوله: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»: استجراه بمعنى: جذبه وجعله يجرى معه، أى: لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولاً منكراً، فأرشدهم ﷺ إلى ما ينبغى أن يفعل، ونهاهم عن الأمر الذى لا ينبغى أن يفعل، حماية للتوحيد من النقص أو النقض. وقال فى النهاية: «**لا يستجرينكم الشيطان**»، أى: لا يستغلبنكم فيتخذكم جرياً، أى: رسولاً ووكيلاً.

---

(١) رواه مسلم من حديث أبى سعيد وأبى هريرة، وأبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة. (الفقي).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٥)، ومسلم (٣٠٠٢) عن المقداد. وأخرجه أحمد (٥٦٨٤)، وعبد بن حميد (٨١٢)، والبخارى فى «الأدب المفرد» (٣٤٠)، وابن حبان (٥٧٧٠)، والطبرانى (١٣٥٨٩)، و«الأوسط» (٢٥١٤)، والبيهقى «شعب» (٤٨٦٧)، عن ابن عمر. وأخرجه الترمذى (٢٣٩٤) عن أبى هريرة.

(٣) **صحيح** : أخرجه أحمد (٤/ ٢٥)، وأبو داود (٤٨٠٦)، والنسائى «كبرى» (١٠٠٧٥)، (١٠٠٧٦)، وصححه الشيخ فى «صحيح أبى داود».

(٤) **صحيح** : أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣)، والنسائى «كبرى» (١٠٠٧٨)، وابن حبان (٦٢٤٠)، عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، وأخرجه أحمد (٣/ ١٧٨)، ومسلم (٢٣٦٩)، وأبو داود (٤٦٧٢)، والترمذى (٣٣٥٢) عن مختار ابن فلفل عن أنس.

وعن أنس رضي الله عنه: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُم وَلاَ يَستَهوِيَنَّكُم الشَّيطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبدُ الله وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَن تَرفَعُونِي فَوقَ مَنزِلَتِي التي أَنزلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» رواه النسائي بسند جيد.

«**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني شيئاً منهما عذبته**»[1][2]، وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[3][4]، وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلماً إليها، والعُجْبُ يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيراً في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شئ من ذلك. والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح، صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحاً لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه من الشرك ووسائله ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**﴾ (البقرة:٥٩). ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.

وأما تسمية العبد بالسيد: فاختلف العلماء في ذلك.

وعلى التفسيرين، فمراد النبي ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعي إليه في النفوس أشد. ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي عليه الصلاة والسلام حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه، لأنه أعظم الذنوب، وأيضاً باب الزنا حمى حماية عظيمة، حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محرم وما أشبه ذلك، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا،

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٢)، ومسلم (٢٦٢٠)، عن أبي سعيد وأبي هريرة به.
وأخرجه أحمد (٧٣٨٢)، والحميدي (١١٤٩)، والطيالسي (٢٣٨٧)، وهناد في «الزهد» (٨٢٥)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، من طرق عن عطاء بن السائب عن الأغرّ عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص (*) بإسناد رجاله رجال الصحيح. (الفقي).

(*) قوله: (رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص) إلخ. **أقول**: وأخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء**». (ابن باز).

(٣) أخرجه مسلم (٩١) (١٤٧) عن ابن مسعود.

(٤) في «قرة العيون»: فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان: العبودية الخاصة والرسالة. وللنبي ﷺ أكملهما. وقد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه. وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه. وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره. فلا يذكر في الأذان والتشهد والخطب إلا ذكر معه. صلوات الله وسلامه عليه. (الفقي).

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغى أن يقول من قيل له: «**أَنتَ سَيِّدُنَا**».

الثالثة: قوله: «**لاَ يَستَجرِيَنَّكُم الشَّيطَانُ**» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «**مَا أُحِبُّ أَن تَرفَعُونِى فَوقَ مَنزِلَتِى**».

قال العلامة ابن القيم فى «بدائع الفوائد»: اختلف الناس فى جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبى ﷺ لما قيل له «يا سيدنا» قال: «**السيد هو الله تبارك وتعالى**»(١)، وجوَّزه قوم، واحتجوا بقول النبى ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»(٢،٣)، وهذا أصح من الحديث الأول، قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمى: سيد كندة، ولا يقال للملك: سيد البشر، قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم، وفى هذا نظر، فإن السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو فى منزلة المالك، والمولى، والرب، لا بمعنى الذى يطلق على المخلوق. انتهى.

قلت: فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال فى معنى قول الله تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا**﴾ (الأنعام: ١٦٤). : «أى إلهاً وسيداً». **وقال فى قول الله تعالى:** ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ (الإخلاص: ٢). **أنه:** «السيد الذى كمل فى جميع أنواع السؤدد». وقال أبو وائل: «هو السيد الذى انتهى سؤدده». وأما استدلالهم بقول النبى ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**» فالظاهر: أن النبى ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون فى هذا المقام تفصيل، والله أعلم.

لأن النفوس تطلبه، وفى باب الربا أيضاً حمى الربا بحماية عظيمة، حتى إن الرجل ليعطى الرجل صاعاً طيباً من البر بصاعين قيمتهما واحدة، ويكون ذلك رباً محرماً، مع أنه ليس فيه ظلم، فالشرك قد يكون من الأمور التى لا تدعو إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم، فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة، فحماه النبى ﷺ حماية تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر، وهذا هو معنى الباب الذى ذكره المؤلف.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخارى (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨) عن أبى سعيد الخدرى.

(٣) قال هذا حين رأى سعد بن معاذ آتياً على حمار قد أسندوه؛ لأنه كان مريضاً من جرح أصابه من المشركين فى الخندق. وقد دعا به رسول الله ﷺ ليحكم فى بنى قريظة بعد أن حاصرهم وقبلوا أن ينزلوا على حكم سعد، فكان هذا القول منه ﷺ لأنه مريض ولا يستطيع أن ينزل عن الحمار وحده. فأمرهم أن يقوموا لينزلوه، ولأنه جاء لهذه القضية، فأراد أن يجعل له من التعظيم ما يناسب هذه الواقعة. وكان سعد بن معاذ سيد الأوس ورئيسهم رضي الله عنه. (الفقي).

بــاب (*)

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

قوله: (باب

ما جاء في قــول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾) أى من الأحاديث والآثار فى معنى هذه الآية الكريمة.

قال العماد ابن كثـير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ما قــدر المشركون الله حق قدره، حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شئ تحت قهره وقدرته. قال مجـاهد: نزلت فى قريش. وقال السُّدِّى: ما عظموه حق عظمته[1]. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عبـاس: «هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليـهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره»[2].

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحـريف، وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله فى هذا الباب. قال: ورواه البخارى فى غـير موضع من «صحيحه»، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذى، والنسـائى، كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن ابن مسعود بنحوه.

قال الإمام أحمـد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعـمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع، والسماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصـبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقـول: أنا الملك؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقـاً لقول الحبر. قال: وأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

(*) انظر «القول السديد» للسعدى فى آخر هذا الجزء ص (٣٨٥).
(١) أخرجه ابن جرير (٣٠٢١٠) عن أسباط عن السُّدِّى به.
(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠٢٠٩) وفيه انقطاع.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصْبَع، والأرضين على إصْبَع، والشجر على إصْبَع، والماء على إصْبَع، والثرى على إصْبَع، وسائر الخلق على إصْبَع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** الآية.

وفي رواية لمسلم: «**والجبال والشجر على إصْبَع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله**».

قَدْرِهِ﴾ الآية»[1]. وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة[2] عن عطاء، عن أبى الضحى، عن ابن عباس قال: «مرَّ يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات[3] على ذه -وأشار بالسبابة- والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصبعه فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾»[4]، وكذا رواه الترمذى فى التفسير بسنده عن أبى الضحى مسلم بن صبيح به، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخارى: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[5] تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

---

(١) **صحيح** : وهذا إسناد صحيح على شرطهما. أخرجه أحمد (٣٥٩٢) من هذا الطريق. وأخرجه البخارى (٤٨١١) (٥٠٦٥)، ومسلم (٢٧٨٦)، وأبو داود (٢٠٤٦)، والنسائى (٦/٥٨)، و«الكبرى» (٢٥٤٩) (٥٤١٧)، وابن ماجه (١٨٤٥)، والدارمى (٢/١٣٢)، وأبو يعلى (٥١٩٢)، والشاشى (٣٦٢) (٣٦٣)، وابن حبان (٤٠٢٦)، والخطيب فى «تاريخه» (٣/١٥٦)، والبيهقى (٧/٧٧)، وفى «الشعب» (٥٤٧٦) من طرق عن الأعمش به.

(٢) اسمه يحيى بن المهلب البجلى الكوفى، قال الحافظ ابن حجر فى «تقريب التهذيب»: صدوق من السابعة روى له الترمذى والنسائى أيضاً. (الفقي).

(٣) عند أحمد «السماء».

(٤) **حسن** : وهذا إسناد ضعيف، حسين بن حسن قال البخارى: فيه نظر. وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ليس بالقوى، وعطاء كان قد اختلط.
وأخرجه أحمد (٢٢٦٧) من هذا الطريق، وتابعه عليه محمد بن الصلت، فرواه الترمذى (٣٢٤٠)، والطبرى (٢٤/٢٦)، من طريقه عن أبى كدينة به. وقال الترمذى: حسن غريب صحيح. وله شاهد من حديث ابن مسعود.

(٥) أخرجه البخارى (٤٨١٢) من هذا الطريق. وأخرجه البخارى (٦٥١٩)، والنسائى «كبرى» (٧٦٩٢)، وأبو يعلى (٥٨٥٠)، والبيهقى «أسماء» (ص ٣٢٣)، والبغوى (٤٣٠٣)، وأحمد (٨٨٦٣)، من طريق ابن المبارك عن يونس عن الزهرى به. وأخرجه البخارى (٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧)، والنسائى (٧٦٩٢) (١١٤٥٥)، وابن ماجه (١٩٢)، من طريق ابن وهب عن يونس به.

وفى رواية للبخارى: «**يجعل السماوات على إصْبَع، والماء والثرى على إِصْبَع، وسائر الخلق على إِصْبَع**» أخرجاه.

وقال البخارى فى موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد، حدثنا عمى القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**»[1] تفرد به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر: «**أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرّن به**». [2]اهـ.

ومن فوائد الحديث: إثبات الأصابع لله -عز وجل- لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقى يليق بالله -عز وجل- كاليد، وليس المراد بقوله: «**على إصبع**» سهولة التصرف فى السماوات والأرض، كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ: «**إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن**»، وقوله: «**بين إصبعين**» لا يلزم من البَيْنِيَّة المُمَاسّة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ (البقرة: ١٦٤)، والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما، وتقول: عنيزة بين الزلفى والرس، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذى القعدة وجمادى، ولا يلزم أن يكون موالياً له، فتبين أن البينية لا

---

(١) أخرجه البخارى (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، وإسناده على شرط مسلم.

وقد أخرجه مسلم (٢٧٨٨)، وابن ماجه (١٩٨) (٤٢٧٥)، والنسائى «كبرى» (٧٦٨٩)، والطبرى (٢٤/ ٢٦)، وابن خزيمة «توحيد» (٩٦)، وابن حبان (٧٣٢٤)، والطبرانى «كبير» (١٣٣٢٧)، من طريق أبى حازم عن عبيد الله بن مقسم به.

وأخرجه ابن أبى عاصم (٥٤٦)، والنسائى «كبرى» (٧٦٩٥)، والبيهقى «أسماء» (ص ٣٤)، من طرق عن حماد ابن سلمة بهذا الإسناد.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «**يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**».

وروى عن ابن عباس قال: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع فى كف الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم**»[1].

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر ـ الحديث» كذا فى رواية مسلم، قال الحميدى: وهى أتم. وهى عند مسلم من حديث سالم، عن أبيه، وأخرجه البخارى من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه**». وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم.

قلت: وهذه الأحاديث وما فى معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته ومخلوقاته. وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، وكلها تُعرف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له فى ربوبيته وإلهيته[2]، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، وهذا هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان. وتأمل ما فى هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبى ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله، وتصديقه

تستلزم الاتصال فى الزمان أو المكان، وكما ثبت عنه ﷺ: أن الله -سبحانه وتعالى- يكون قبل وجه المصلى، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التى يصلى إليها، فهو قبل وجهه وإن كان على عرشه، ومثال ذلك: الشمس حين تكون فى الأفق عند الشروق أو الغروب، فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك وهى فى العلو.

فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم أعلم وأحكم، فقد ضل. ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذا القول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر، فهو:

(١) أخرجه الطبري (٢١٢/٣٠)، وعبد الله بن أحمد فى «السنة» (١٠٩٠) موقوفاً، وإسناده ضعيف - وانظر «العلو» للذهبي (٢٨١).

(٢) فى «قرة العيون»: وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده، ولا يصلح منها شيء لملك مقرب ولا لنبى مرسل ولا لمن دونهما. (الفقي).

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد حدثنى أبى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى تُرْسٍ**»(١).

اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التى تدل على عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل ﷺ فى شىء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقاً بلّغه أمين أُمته، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين. وتلقى الصحابة ﷺ عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله، ونعوت جلاله، فآمنوا به، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ (آل عمران: ٧). وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصفوا الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا فى رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدى أهل السنة والجماعة.

أولاً: فيه تناقض، لأنهم قالوا: طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم، لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم، فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة فى سلوك هذه الأسباب.

ثانياً: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل؟

ثالثاً: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحابه، لأن طريقة السلف هى طريقة النبى ﷺ وأصحابه.

رابعاً: أنها قد تصل إلى الكفر، لأنها تستلزم تجهيل النبى ﷺ وتسفيهه، فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم. فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحاً، لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا فى أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها، فإن خوضهم فى هذه الأشياء هو الذى ضرهم وأوصلهم إلى الحيرة والشك، وصدق النبى ﷺ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ فى «العظمة» (٢٠٠)، و«العلو» للذهبى (٢٧٩)، وإسناده ضعيف مع إرساله.

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض**»[1].

وعن ابن مسعود قال: «**بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام، وبين الكرسى والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفى عليه شىء من أعمالكم**»[2] أخرجه ابن مهدى، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودى عن عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبى رحمه الله تعالى، قال: وله طرق.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة، مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر: أن الله تعالى فوق كل شىء، وأنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه مثل قوله تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ (فاطر: ١٠). وقوله تعالى: ﴿**يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ (آل عمران: ٥٥). وقوله تعالى: ﴿**بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾ (النساء: ١٥٨). وقوله تعالى: ﴿**ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ (المعارج: ٣، ٤). وقوله تعالى: ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ (السجدة: ٥). وقوله تعالى: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ (النحل: ٥٠). وقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**﴾ (البقرة: ٢٩). وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي**

حين قال: «**هلك المتنطعون**»، فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح ولم يتنطعوا، لما وصلوا إلى هذا الشك والحيرة والتحريف، حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنى أن يموت على عقيدة أمه العجوز التى لا تعرف هذا الضلال، ويقول بعضهم: ها أنا أموت على عقيدة عجائز نيسابور. وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة

---

(١) **ضعيف وفيه نكارة**: أخرجه من طرق عنه، الطبرى (٣/ ١٠)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٦٧)، والبيهقى فى «الأسماء» (ص ٥١٠، ٥١١)، وأبو الشيخ فى «العظمة» (٢٠٨)، وفى أسانيده من هو منكر الحديث، ومنهم الكذاب والضعيف، وقال الذهبى فى «العلو» (٢٧٨): منكر. وقال ابن عدى (٧/ ٢٦٩٩): هذا حديث منكر.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن خزيمة فى «التوحيد» (١٤٩)، والطبرانى فى «الكبير» (٩٨٨٧)، والبيهقى فى «الأسماء» (ص ٥٠٧)، وأبو الشيخ فى «العظمة» (٢٠٥)، والدارمى فى «الرد على الجهمية» (٨١)، و«الرد على بشر المريسي» (ص ٧٣، ١٠٥)، وابن عبد البر فى «التمهيد» (٢/ ١٣٩)، والذهبى فى «العلو» (٦٧) (١٥٧) (١٥٩) وصححه، وصححه ابن القيم فى «مختصر الصواعق» (٢/ ٢١٠)، وفى «اجتماع الجيوش» (ص ١٢٢).

خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (الأعراف: ٥٤). وقوله تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ الآية (يونس: ٣). فذكر التوحيدين في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ﴾ (الرعد: ٢). وقوله تعالى: ﴿ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى ﴾ (طه: ٤، ٥). وقوله تعالى: ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا * الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾ (الفرقان: ٥٨، ٥٩). وقوله تعالى: ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ (السجدة: ٤، ٥). وقوله تعالى: ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ (الحديد: ٤). فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته، وقوله تعالى: ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾ (الملك: ١٦، ١٧). وقوله تعالى: ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ (فصلت: ٤٢). وقوله تعالى: ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ (الجاثية: ٢). وقوله تعالى: ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧). انتهى كلامه -رحمه الله-.

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين.

فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب «العلو» وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (طه: ٥).

الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبداً، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا على عقيدة سليمة، وإلا ابتلى بالشك والقلق والحيرة، وقد قال بعضهم: أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام، وما بالك -والعياذ بالله- بالشك عند الموت، يختم للإنسان بضد الإيمان.

....

قالت: «**الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر**»[١] رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح. قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق»[٢]. وقال ابن وهب: «كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرّحضاء، وقال: الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ و «الكيف» عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه» رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب[٣]، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً، ولفظه قال: «**الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**»[٤].

قال الذهبي: **فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.**

لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بسهولة وبما جرى عليه السلف، ونقول كما قال الرازي وهو من علمائهم ورؤسائهم: «رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥)، يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠)، ومن جرب مثل تجربتي عرف

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح الأصول» (٦٦٣) وإسناده ضعيف راجع الفتح (١٣/ ٤٠٦).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (٦٦٥)، والبيهقي في «الأسماء» (ح ٨٦٨)، وابن بطة في «الإبانة» (١٢١)، وابن قدامة في «إثبات العلو» (٩٠)، والذهبي في «العلو» (٣٢٢).

وقال شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٦٤): رجاله ثقات، وتبعه ابن القيم في «الصواعق» (٤/ ١٣٠٣).

(٣) **سنده جيد**: أخرجه البيهقي في «الأسماء» (ح ٨٦٦)، وعنه الذهبي في «العلو» (٣٤٤)، وقال: سياق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع الرشديني عن ابن وهب.

وقال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٤٠٧): إسناده جيد.

(٤) أخرجه البيهقي في «الأسماء» (٨٦٧)، وفي «الاعتقاد» (ص ٥٦)، و«العلو» للذهبي (٣٤٤)، وقال في «الفتوى الحموية» (ص ٢٤٠): سنده صحيح.

وأخرج الدارمي في «الرد» (١٠٤)، واللالكائي (٦٦٤)، والصابوني في «اعتقاد السلف» (٢٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥) من طرق عن جعفر بن عبد الله وسنده حسن.

قال البخارى فى «صحيحه»: قال مجاهد ﴿اسْتَوَىٰ﴾ علا على العرش[1]. وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أى: ارتفع.[2] وقال محمد بن جرير الطبرى فى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾: أى علا وارتفع.

وشواهده فى أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم. فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا[3]

وروى الدارمى والحاكم والبيهقى بأصح إسناد إلى على بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: «نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته، على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية»[4]. قال الدارمى: حدثنا حسن بن

مثل معرفتى»، لأنه أقر قبل هذا الكلام، فقال: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تروى غليلاً ولا تشفى عليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن».

والحاصل: أن هؤلاء المنكرين لما جاء فى الكتاب والسنة من صفات الله -عز وجل- اعتماداً على هذا الظن الفاسد أنها تقتضى التمثيل قد ضلوا ضلالاً مبيناً، فالصحابة ﷺ هل ناقشوا

---

(١) أخرجه البخارى «معلقاً» فى «التوحيد» باب «وكان عرشه على الماء» قال فى «الفتح» (١٣/ ٤٠٥)، وصله الفريابى فى «تفسيره» بسند صحيح. وقال فى «التغليق» (٥/ ٣٤٥٥): سنده صحيح كلهم ثقات.
وذكره عن البخارى الذهبى فى «العلو» (١٤٠).

(٢) أخرجه اللالكائى (٦٦٢)، والذهبى فى «العلو» (٣٧٦) عن عبد الله بن شيرويه سمعت إسحاق بن راهويه أخبرنا بشر بن عمر قال: سمعت غير واحد من المفسرين - فذكره. وإسناده حسن.

(٣) قال النووى فى «المجموع» (٢/ ١٨٣): إسناد هذه القصة ضعيف منقطع.

(٤) **إسناده صحيح**: أخرجه الدارمى (الرد على الجهمية) (٦٧) (١٦٢)، وفى «الرد على بشر» (٢٤) (١٠٣)، وعبد الله بن أحمد فى «السنة» (ح ٢٢، ٥٩٨)، وابن منده فى «التوحيد» (٨٩٩)، وابن بطة فى «الإبانة» (١١٢)، والصابونى فى «عقيدة السلف» (٢٨)، والبيهقى فى «الأسماء» (٩٠٢)، وابن قدامة فى «إثبات العلو» (٩٩)، والذهبى فى «العلو» (٣٦١)، وذكره فى «السير» (٨/ ٤٠١-٤٠٢)، من طرق عنه وإسناده صحيح.
قال شيخ الإسلام فى «الحموية» (ص ٢٦٩): «بأسانيد صحاح».
وقال ابن القيم فى «الجيوش» (ص ١٣٤): بأصح إسناد.
وقال فى موضع آخر: «وقد صح عنه صحة قريبة من التواتر» (ص ٢١٣).

الصباح البزار، حدثنا على بن الحسين بن شقيق، عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه».[1]

وقد تقدم قول الأوزاعى: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة.[2]

وقال أبو عمر الطلمنكى فى كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته. وقال فى هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز.

ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله فى السماء وعلمه فى كل مكان. ثم قال فى هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤). ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء. وهذا لفظه فى كتابه.

وهذا كثير فى كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله فى كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا، كما ذكرنا ذلك عنهم فى هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبى: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبد الله القسرى، وقصته

الرسول ﷺ فى هذا؟ والذى نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له، فيجمعون بين الإثبات وبين النفى.

إذاً موقفنا من هذا الحديث الذى فيه إثبات الأصابع لله -عز وجل- أن نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر على مجرد إمراره بدون معنى فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا

---

(١) راجع التخريج السابق.

(٢) أخرجه البيهقى فى «الأسماء» (٣٦٥)، والجوزقانى فى «الأباطيل» (٧٤)، وعنه الذهبى فى «السير» (٧/ ١٢٠)، وفى «العلو» (٣٣٤)، من طريق الحاكم، وفى «التذكرة» (١/ ١٨١-١٨٢)، وصحح إسناده.
وصحح إسناده شيخ الإسلام فى «درء تعارض العقل» (٦/ ٢٦٢)، وفى «الحموية» (ص ٢٣٢)، وقال ابن القيم فى «الجيوش» (١٣٥). رواته كلهم أئمة ثقات، وجود إسناده الحافظ فى «الفتح» (١٣/ ٤٠٦).

....

مشهورة[1]، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات وكان ذلك فى آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر، مثل الأوزاعى، وأبى حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثورى، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى، فقال الأوزاعى إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة، ما أخبرنا عبد الواسع الأبهرى بسنده إلى أبى بكر البيهقى، أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنى محمد ابن على الجوهرى -ببغداد-، حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصى، سمعت الأوزاعى يقول: «كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته» أخرجه البيهقى فى «الصفات»، ورواته أئمة ثقات.[2]

وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى: لله أسماء وصفات لا يسع أحد ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه

أمانى، بل نقرؤه ونقول: المراد به إصبع حقيقى يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة، فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكل علمها إلى الله -سبحانه وتعالى-.

---

(١) أخرج هذه القصة البخارى فى «خلق أفعال العباد» (ح ٣ ص ١٣)، و«التاريخ الكبير» (١/ ٦٤) (٣/ ١٥٨)، والدارمى فى «الرد على الجهمية» (ح ١٣، ٣٨٨)، و«الرد على بشر» (ص ١١٨)، والآجرى فى «الشريعة» (٦٩٤، ٢٠٧٢)، وابن بطة فى «الإبانة» (ص ١٤٦)، واللالكائى فى «أصول الاعتقاد» (٥١٢)، البيهقى فى «الشهادات» (١٠/ ٢٠٥-٢٠٦)، وفى «الأسماء» (٥٦٣)، والخطيب فى «تاريخه» (١٢/ ٤٢٥)، والذهبى فى «العلو» (٣٣٠)، والخلال فى «السنة» (١٦٩٠).

وهى قصة مشهورة عند العلماء وذكروها فى «مصنفاتهم» وانظر: «السير» (٥/ ٤٣٣)، و«البداية» (٩/ ٣٥٠)، و«تهذيب الكمال» (٨/ ١١٨).

والجعد بن درهم -مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء من بنى أمية ويُسمى مروان الجعدى أصله من خراسان وانتقل إلى دمشق وأظهر القول بخلق القرآن فتطلبه بنو أمية فهرب إلى الكوفة ثم قبض عليه، ولما طال حبسه فى يد خالد القسرى رفع آل الجعد قصة إلى هشام بن عبد الملك يشكون ضعفهم وطول حبس الجعد، فقال هشام: أهو حيٌ بعد؟ وكتب إلى خالد فى قتله يوم أضحى، وهو أول من أظهر إنكار الصفات، والكلام وغير ذلك.

(٢) راجع التخريج قبل السابق.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؟ قال: بينها مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شئ من أعمال بنى آدم**». أخرجه أبو داود وغيره.[1]

الصفات وننفى عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١). اهـ من «فتح البارى».[2]

قوله: (عن العباس بن عبد المطلب) ساقه المصنف رحمه الله مختصراً، والذى فى سنن أبى داود: عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت فى البطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها، فقال: «**ما تسمون هذه؟**» قالوا: السحاب، قال: «**والمزن**»، قالوا: والمزن، قال: «**والعنان**»، قالوا: والعنان، -قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً- قال: «**هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندرى، قال: إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء التى فوقها كذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، ثم الله تعالى فوق ذلك**»[3]. وأخرجه الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الحافظ الذهبى: رواه أبو داود بإسناد حسن[4]، وروى الترمذى نحوه من حديث

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦)، وأبو داود (٤٧٢٤)، والترمذى (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وابن أبى عاصم (٥٧٧)، وابن خزيمة فى «التوحيد» (ص ١٠١-١٠٢)، وأبو يعلى (٦٧١٣)، ومحمد بن عثمان فى «العرش» (١٠)، واللالكائى فى «شرح الاعتقاد» (٣/ ٣٨٩)، وأبو الشيخ فى «العظمة» (٢٠٦)، والحاكم (٢/ ٥٠١)، والبيهقى فى «الأسماء» (٥٠٦)، وضعفه الشيخ الألبانى -رحمه الله-.

(٢) أخرج قول الشافعى الهكارى (٧)، وعنه ابن قدامة فى «إثبات العلو» (١٠٩)، وفى «ذم التأويل» (٣٥)، وذكره الذهبى فى «العلو» (٤١٠)، وذكر فى «السير» (١٠/ ٧٩)، وذكره ابن القيم فى «اجتماع الجيوش» (ص ١٦٥).

(٣) **ضعيف**: وقد سبق تخريجه.

(٤) فى إسناده: الوليد بن أبى ثور لا يحتج بحديثه. وقد ساقه أبو داود من غير طريق الوليد. وقال العلامة ابن القيم فى «تهذيب سنن أبى داود»: أما رد الحديث بالوليد بن أبى ثور ففاسد، فإن الوليد لم ينفرد به، بل تابعه عليه إبراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك. ومن طريقه رواه أبو داود. ورواه أيضاً عمرو بن أبى قيس عن سماك. ومن حديثه رواه الترمذى عن عبد بن حميد، أخبرنا عبد الرحمن بن سعد، عن عمرو بن أبى قيس. اهـ. ورواه ابن ماجه من حديث: الوليد بن أبى ثور، عن سماك. وأى ذنب للوليد فى هذا، وأى تعلق عليه؟ وإنما ذنبه روايته ما يخالف قول الجهمية وهى علته المؤثرة عند القوم. اهـ. (الفقي).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر: ٦٧).

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي ﷺ صدقه ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك منه ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

أبي هريرة وفيه: «**ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام**»(١)، ولا منافاة بينهما، لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون على سير البريد، لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه، هذا آخر كلامه .(٢)

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٨٨٢٨)، والترمذي (٣٢٩٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧٨)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٣٩٩- ٤٠٠)، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله.

(٢) في «قرة العيون»: **قلت**: وهذا الحديث له شواهد في «الصحيحين» وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القرآن، فلا عبرة بقول من ضعفه.

وقد ابتدأ المصنف -رحمه الله تعالى- هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الإلهية؛ لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام ببيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونهاهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد. فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته، فقرر هذا التوحيد كما ترى في هذه الأبواب، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن أكثر العامة ليس لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من لم ينتسب إلى العلم. وأما ما ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه العلوم، وأحسنوا الظن بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فقرروا مذهب الجهمية، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات. وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلوا. فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها، فلله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام فضلٌ عنه من ضلٍّ من أهل القرى والأمصار وغيرهم. وبالله التوفيق.

فقد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- بقوله:

والعلم أقسام ثلاث، ما لها ... من رابع والحق ذو تبيانِ

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمنِ

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وصلى الله وسلم على سيد المرسلين، وإمام المتقين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السموات فى اليد اليمنى، والأرضين فى الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «**كخردلة فى كف أحدكم**».

التاسعة: عظم الكرسى بالنسبة إلى السماوات.

العاشرة: عظمة العرش بالنسبة إلى الكرسى.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسى والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسى.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسى والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذى فوق السماوات بين أعلاه وأسفله خمسمائة سنة.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم فى الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة وفى كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما، ولا عبرة بقول مَن ضعَّفه، لكثرة شواهده التى يستحيل دفعها، وصرفها عن ظواهرها. وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله، وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التى وصف بها نفسه فى كتابه، ووصفه بها رسول الله ﷺ، وعلى كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، دون ما سواه.

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

القول السديد
في مقاصد التوحيد

للعلامة الفاضل الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله
المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ

دار العقيدة

باب السحر، وباب شيء من أنواع السحر

قال الشيخ السعدي: وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيراً من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوسل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره. ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

- من جهة ما فيه من استخدام الشياطين، ومن التعلق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه.

- ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر.

وفيه أيضًا من التصرفات المحرَّمة، والأفعال القبيحة كالقتل، والتفريق بين المتحابين، والصرف، والعطف، والسعي في تغيير العقول، وهذا من أفظع المحرمات، وذلك من الشرك ووسائله، ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة لمشاركتهم للسحر في التفريق بين الناس وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور. فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

قال الشيخ السعدي: أي من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق. وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها، أو صدق من ادعى ذلك فقد جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به. ومن جهة التقرب إلى غير الله.

وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

باب النشرة

قال الشيخ السعدي: وهو حل السحر عن المسحور، ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع، وفيه كفاية.

باب الطيرة

قال الشيخ السعدي: وهو التشاؤم بالطيور، والأسماء، والألفاظ، والبقاع، وغيرها؛ فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة.

والفرق بينهما: أن الفأل الحسن لا يدخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه من المصلحة النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة.

وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة، ثم يرى فى تلك الحال ما يسره أو يسمع كلامًا يسره، مثل يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفائل ويزداد طمعه فى تيسير ذلك الأمر الذى عزم عليه، فهذا كله خير وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة فى الدين أو فى الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثَّر فى قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعى فيترك ما كان عازماً على فعله أو بالعكس، فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذى كان عازمًا عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه فى إرادته وعزمه وعمله، فلاشك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يُحْدِثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله، وهذا من ضعف التوحيد والتوكل ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعى، ولكنه يؤثر فى قلبه حزنًا وهمًا وغمًا، فهذا وإن كان دون الأول، لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله. وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوى تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول.

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل.

وينبغى لمن وجد شيئًا من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعى الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ويستعين الله على ذلك، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

باب ما جاء فى التنجيم

قال الشيخ السعدي: التنجيم نوعان:

نوع يسمى عِلمَ التَّأثير: وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية؛ فهذا باطل ودعوى لمشاركة الله فى علم الغيب الذى انفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك، وهذا ينافى التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثانى عِلمَ التَّسيير: وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات، فهذا النوع لا بأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات أو إلى الاهتداء به فى الجهات.

فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه. وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافى للتوحيد دون الثانى.

باب الاستسقاء بالنجوم

قال الشيخ السعدي: لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم، وإضافتها إليه قولاً واعترافاً واستعانة بها على طاعته؛ كان قول القائل: «مطرنا بنوء كذا وكذا». ينافى هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء. والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله؛ فإنه الذى تفضل بها على عباده. ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق، ويضيفها إليه، ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره. وهذا الموضع من محققات التوحيد، وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

قال الشيخ السعدي: أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهى أصل التأله والتعبد له، بل هى حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق

محبته جميع المحاب وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محابِّ العبد تبعًا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج بذكرهم ودعائهم؛ فهذا هو الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضا وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله، وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله، وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر، وحجر، وبشر، وملك، وغيرها، وهي أصل الشرك وأساسه.

وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات. وإلا بقيت من أقسام المباحات، والله أعلم.

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية

قال الشيخ السعدي: هذا الباب عقده المصنف -رحمه الله- لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين، وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك.

ولابد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه. اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة، وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد، وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سرى يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله، لأنه أشرك فى هذه العبادة -التى هى من أعظم واجبات القلب- غير الله مع الله. وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه لله.

وأيضًا فمن خشى الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشى غيره فقد جعل لله نداً فى الخشية، كمن جعل لله نداً فى المحبة. وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهًا أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعياً كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافى الإيمان. وهذا إذا كان خوفاً محققاً قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم. وإن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذى ليس له سبب أصلاً، أو له سبب ضعيف؛ فهذا مذموم يدخل صاحبه فى وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتى أن خواص المؤمنين وأقويائهم تنقلب المخاوف فى حقهم أمناً وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم، ولهذا أتبعه بهذا الباب:

باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قال الشيخ السعدي: التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به فى كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله. وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطى المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه فى جلب مصالح دينه ودنياه، وفى دفع المضار ويثق غاية الوثوق بربه فى حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده فى فعل الأسباب النافعة.

فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة؛ فهو المتوكل على الله حقيقةً،

وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمله.

باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾

قال الشيخ السعدي: مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا له راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وُفِّق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها وخاف من ردها بتقصيره في حقها. وإن ابتلى بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسارّ يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفَّق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد فى كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خُلُقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولى عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته.

فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيَّع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصرُّ عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التى تمنع الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفاً وخلقاً لازماً. وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد. ومتى وصل إلى هذا الحد لم يُرْجَ له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب وتَضعُف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.

فلو عرف هذا ربَّه ولم يخلد إلى الكسل لعلم أن أدنى سعى يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات منهمكًا فى المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى فى قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوى والأخروى.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدًا جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدلَّ بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية فيصير آمناً من مكر الله متكلاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذى جنى على نفسه.

فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

قال السعدي: أما الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وفرعه. فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله. فإن الدين يدور على ثلاثة أصول:

تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما.

فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل فى هذا العموم، ولكن خُصَّ بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به. فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله، وأن لله أتم الحكمة فى تقديرها، وله النعمة السابغة فى تقديرها على العبد، رضى بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره، تقرباً إلى الله ورجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه واغتناماً لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوى إيمانه وتوحيده.

باب ما جاء فى الرياء

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قال السعدي: اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين، وروح التوحيد، والعبادة وهو أن

يقصد العبد بعمله كله وجه الله، وثوابه، وفضله، فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس، وحقائق الإيمان التي هي الإحسان وبحقوق الله وحقوق عباده، مكملاً لها قاصداً بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة، ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده. ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم، أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط وهو شرك أصغر. ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر.

وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس، ولم يقلع عن الرياء بعمله، فظاهر النصوص أيضًا بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده، ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله، فإنْ دفعه وخلَّص إخلاصه لله لم يضره، وإنْ ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء.

والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والاستعانة بالله على دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها؛ فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا المقصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة، فهذا ليس له في الآخرة من نصيب. وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن -ولو كان ضعيف الإيمان- لابد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان؛ فهذا وإن كان مؤمناً فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصًا تاماً، ولكنه يأخذ على عمله جعلاً ومعلوماً يستعين به على العمل والدين، كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد

الذى يترتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التى تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه فى إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يُرِد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معينًا له على قيام الدين.

ولهذا جعل الله فى الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءًا كبيرًا لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة، كما قد عرف تفاصيل ذلك.

فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن، ويوجب لك أن تنزِّل الأمور منازلها، والله أعلم.

باب من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابًا

باب قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .... ﴾

قال الشيخ السعدي: ووجه ما ذكره المصنف ظاهر، فإن الرب والإله هو الذى له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائى، وهو الذى يؤله ويعبد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة، فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعًا لطاعته. فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه، وجعل طاعتهم هى الأصل وطاعة الله ورسوله تبعًا لها فقد اتخذهم أربابًا من دون الله يتألههم ويحاكم إليهم ويقدِّم حكمهم على حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه، فإن الحكم كله لله، كما أن العبادة كلها لله.

والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حكمًا، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله، وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالصاً لوجه الله. وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب. فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله فى أصول الدين وفروعه، وفى كل الحقوق كما ذكره المصنف فى الباب الآخر.

فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك رباً وقد حاكم إلى الطاغوت.

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

قال الشيخ السعدي: أصل الإيمان وقاعدته التى ينبنى عليها هو الإيمان بالله، وبأسمائه، وصفاته.

وكلما قوى علم العبد بذلك وإيمانه به، وتعبد لله بذلك، قوى توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفـرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له فى كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإلـه الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، فمن جحـد شيئًا من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

باب قول الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾

قال الشيخ السعدى: الواجب على الخلق إضافـة النعم إلى الله قولاً واعـترافاً كمـا تقدم، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر، ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلســانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعى غيـره كما هو جار على ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها، وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً.

فإن الشكر الذى هو رأس الإيمان مبنى على ثلاثة أركان:

- اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره.
- والتحدث بها، والثناء على الله بها.
- والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم.

باب قول الله تعالى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال الشيخ السعدى: الترجمة السـابقة على قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾ (البقرة:165) الآية، يقصد بهـا الشرك الأكبر بأن يجعل لـله نداً فى العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات.

وهذه الترجمة المراد بهـا الشرك الأصغر كالشرك فى الألفـاظ كالحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه فى الألفاظ كـ «لولا الله وفلان» و«هذا بالله وبك»، وكإضـافة الأشيـاء ووقوعها لغـير الله كـ «لولا الحـارس لأتانا اللصوص»، و«لولا الدواء الفلانى لهلكت»، و«لـولا حذق فلان فى المكسب الفـلانى لما حصل». فكل هذا ينافى التوحيد.

والواجب أن تضـاف الأمور ووقـوعـها ونفع الأسـبـاب إلى إرادة الله وإلى الله

ابتداء، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: «لولا الله، ثم كذا» ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره. فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله نداً فى قلبه وقوله وفعله.

باب من لم يقنع فى الحلف بالله

قال الشيخ السعدي: ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه؛ لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه. وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله.

وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرضَ إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات فهو داخل فى الوعيد؛ لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب حلف على ما تيقن كذبه فيه؛ فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس فى قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه فتعيَّن إخراج هذا النوع من الوعيد؛ لأن حالته متيقنة، والله أعلم.

باب قول ما شاء الله وشئت

قال الشيخ السعدي: هذه الترجمة داخلة فى الترجمة السابقة: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

باب من سب الدهر فقد سب الله

قال الشيخ السعدي: وهذا واقع كثيرًا فى الجاهلية، وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجان والحمقى، إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت، وربما لعنوه. وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء، فإنه مدبَّر مصرَّف، والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففى الحقيقة يقع العيب والسب على مدبِّره.

وكما أنه نقص فى الدين فهو نقص فى العقل، فيه تزداد المصائب ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا منافٍ للتوحيد.

أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض

لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره، وبذلك يتم توحيده وطمأنيته.

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه
وباب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لذلك

قال الشيخ السعدي: وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق. وهو أنه يجب أن لا يُجعَل لله ند في النيات والأقوال والأفعال. فلا يسمى أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه، وصفاته، كقاضي القضاة وملك الملوك، ونحوهما، وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه، وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قال الشيخ السعدي: أي فإن هذا منافٍ للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين، لأن أصل الدين الإيمان بالله وكتبه ورسله.

ومن الإيمان تعظيم ذلك، ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد، لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء. فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون. فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفراً وأعظم فساداً. والهازل بشيء منها من هذا النوع.

باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ .... ﴾

قال الشيخ السعدي: مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك؛ لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا مناف للتوحيد؛ لأن المؤمن حقاً من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقًا على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعجب بالنفس والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾

قال الشيخ السعدي: مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم. وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه وأن لا يعبِّدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم منافٍ للتوحيد.

باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

قال الشيخ السعدي: أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه، فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمَنْ دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة. وذلك باستحضار معانى الأسماء الحسنى وتحصيلها فى القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها. وتمتلئ بأجل المعارف.

فمثلاً أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيمًا لله وإجلالاً له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا.

وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكساراً بين يديه.

وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله فى الحركات والسكنات وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقارًا واضطراراً إليه، والتفاتاً إليه كل وقت، فى كل حال.

فهذه المعارف التى تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله لا يحصِّل العبد فى الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهى أفضل العطايا من الله لعبده، وهى روح التوحيد وروحه.

ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص، والإيمان الكامل الذى لا يحصل إلا للكمّل من الموحدين.

وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى. وأما الإلحاد فى أسماء الله وصفاته فإنه ينافى هذا المقصد العظيم أعظم منافاة.

والإلحاد أنواع:

- إما أن ينفى الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم.
- وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم.
- وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى، فشبهوها بالله ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة.

فحقيقة الإلحاد فى أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظًا أو معنى، تصريحًا، أو تأويلاً، أو تحريفاً. وكل ذلك منافٍ للتوحيد والإيمان.

باب لا يقال السلام على الله

قال الشيخ السعدى: وقد بيَّن ﷺ هذا المعنى بقوله: «**فإن الله هو السلام**» فهو تعالى السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه فى جميع أحوالهم، وهو الغنى الحميد.

باب قول: اللهم اغفر لى إن شئت

قال الشيخ السعدى: الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طلبًا ملحًا جازمًا، وهذا الطلب عين العبودية ومخها.

ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذى ليس فيه تعليق بالمشيئة، لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التى لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد. فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له

أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور «اللهُمَّ أحيِنى إذَا كانَت الحيَاةُ خَيرًا لي، وتَوفَّنى إذَا علمتَ الوفَاةَ خيرًا لي» وكدعاء الاستخارة.

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة لمعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعى يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التى لا يدرى العبد عن عواقبها. ولا رجحان نفعها على ضررها. فالداعى يعلِّقها على اختيار ربه الذى أحاط بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة ولطفًا.

باب لا يقل عبدى وأمتي

قال الشيخ السعدي: وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدى وأمتى إلى فتاى وفتاتى؛ تحفظًا عن اللفظ الذى فيه إيهام ومحذور، ولو على وجه بعيد، وليس حرامًا، وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التى لا توهم محذورًا بوجه. فإن الأدب فى الألفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصًا هذه الألفاظ التى هى أمس بهذا المقام.

باب لا يرد من سأل بالله

باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

قال الشيخ السعدي: الباب الأول خطاب للمسئول، وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احتراماً وتعظيمًا لحق الله، وأداءً لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم.

والباب الثانى خطاب للسائل، وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته. وأن لا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهى الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنى هو الذى يُسأل بوجه الله.

وأما المطالب الدنيوية والأمور الدنيئة وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه؛ فإنه لا يسأله بوجهه.

باب ما جاء فى « لو »

قال الشيخ السعدي: اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» تقع على قسمين: مذموم ومحمود.

أما المذموم: فأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه، فيقول: لو أنى فعلت كذا لكان كذا. فهذا من عمل الشيطان، لأن فيه محذورين.

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذى ينبغى له إغلاقه، وليس فيها نفع.

الثاني: أن فى ذلك سوء أدب على الله وعلى قدره، فإن الأمور كلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره. وما وقع من الأمور فلابد من وقوعه، ولا يمكن رده، فكأن فى قوله: «لو كان كذا» أو «لو فعلت كذا كان كذا» نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك؛ فأن يقولها العبد تمنيًا للخير. كقوله ﷺ : **«لو استقبلتُ من أمرى مَا استدبرتُ ما سُقتُ الهَديَ ولأهللتُ بالعُمَرةِ»**. وقوله فى الرجل المتمنى للخير: **«لو أن لى مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان»**.

و **«لو صبر أخى موسى لقص الله علينا من نبأهما»** أى فى قصته مع الخضر.

وكما أن (لو) إذا قالها متمنياً للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنياً للشر فهو مذموم. فاستعمال (لو) تكون بحسب الحال الحامل عليها.

إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو تمنى الشر كان مذمومًا.

وإن حمل عليها الرغبة فى الخير والإرشاد والتعليم كان محموداً، ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

باب النهى عن سب الريح

قال الشيخ السعدي: وهذا نظير ما سبق فى سب الدهر، إلا أن ذلك الباب عام فى سب جميع حوادث الدهر، وهذا خاص بالريح، ومع تحريمه فإنه حمق وضعف فى العقل والرأى، فإن الريح مصرَّفة مدبَّرة بتدبير الله وتسخيره، فالساب لها يقع سبه على من صرَّفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى فى قلبه غالباً لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

باب قول الله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾

قال الشيخ السعدي: وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه، وصفاته، وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله، ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده، والله أعلم.

باب ما جاء في منكري القدر

قال الشيخ السعدي: قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة. فعلينا أن نؤمن بجميع مراتب القدر، فنؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر: العلم بأن الله لم يجبر العباد على خلاف ما يريدون بل جعلهم مختارين لطاعتهم ومعاصيهم.

باب ما جاء في المصورين

قال الشيخ السعدي: وهذا من فروع الباب السابق أنه لا يحل أن يجعل لله ندًا في النيات، والأقوال، والأفعال، والند المشابه ولو بوجه بعيد، فاتخاذ الصور الحيوانية تشبه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه.

باب ما جاء في كثرة الحلف

قال الشيخ السعدي: أصل اليمين إنما شرعت تأكيدًا للأمر المحلوف عليه، وتعظيمًا للخالق، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك.

ومن تمام هذا التعظيم: أن لا يحلف بالله إلا صادقًا.

ومن تمام هذا التعظيم: أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف، فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

باب ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه

قال الشيخ السعدي: المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التى يخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعدما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقع النقض فى هذه الحال كان انتهاكاً من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركاً لتعظيم الله، وارتكاباً لأكبر المفسدتين كما نبه عليه ﷺ .

وفى ذلك أيضًا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به، فإن الوفاء بالعهود - خصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق- من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.

باب الإقسام على الله
وباب لا يستشفع بالله على خلقه

قال الشيخ السعدي: وهذان الأمران من سوء الأدب فى حق الله، وهو مناف للتوحيد.

أما الإقسام على الله فهو فى الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله، وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

وأما الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذى خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات بأسرها.

باب ما جاء فى حماية المصطفى
حمى التوحيد وسده طرق الشرك

قال الشيخ السعدي: تقدم نظير هذا الترجمة وأعادها المصنف اهتماماً بالمقام، فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك، والفرق بين البابين أن الأولى فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال.

فكل قول يفضى إلى الغلو الذى يخشى منه الوقوع فى الشرك فإنه يتعين اجتنابه ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه، وأركـانه، ومكملاته ومحققاته، وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهرًا وباطنًا، قولاً وفعلاً، وإرادة واعتقادًا.

وقد مضى من التفاصيل ما يوضح ذلك.

باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

قال الشيخ السعدي: ختم المصنف -رحمه الله تعالى- كتابه بهذه الترجمة.

وذكر النصـوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبـريائه، ومجده وجلاله وخـضوع المخلوقـات بأسـرها لعزه، لأن هذه النـعوت العظيـمـة والأوصاف الكامـلة أكبـر الأدلة والبـراهين على أنه المعبـود وحده، المحـمود وحـده، الذى يجب أن يبذل له غـاية الذل والتعظيم وغـاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سـواه باطل، وهذه حقيـقة التوحيـد ولبه وروحه، وسر الإخلاص.

فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه؛ إنه جواد كريم.

وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيح مقاصده. وقد حوى من غُرَر مسائل التوحيد ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغنى عنه الراغبون فى هذا الفن الذى هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها.

والحمد لله على تيسيره ومنته

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
باب قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾	84
محبة الله تعالى والأسباب الجالبة لها	89
وجوب محبة النبى ﷺ على النفس والأهل والمال	91
المحبة توجب الطاعة والمتابعة	92
حديث: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»	94
قول ابن عباس: «من أحب فى الله وأبغض فى الله»	98
تفسير قوله تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾	102
باب قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾	105
أقسام الخوف	105
تفسير قوله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ - الآية	108
تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله﴾ - الآية	109
حديث: «من التمس رضى الله بسخط الناس»	114
باب قول الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾	117
التوكل من الفرائض وهو من شروط الإيمان	118
تفسير قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله﴾ - الآية	120
تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾	121
قول ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾	123
باب قول الله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾	125
اليأس من روح الله والأمن من مكر الله من الكبائر	127
باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله	130
تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾	132
الطعن فى النسب، والنياحة من أعمال الجاهلية	134
شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية	135
من رحمة الله بالعبد تعجيل عقوبته فى الدنيا	137
علامة حب الله للعبد	140
باب ما جاء فى الرياء	143
تفسير قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ - الآية	143
حديث: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك»	145
خوف النبى ﷺ على أمته من الرياء	147
باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا	149
تفسير قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ - الآية	149
أول من تسعر بهم النار يوم القيامة	151
أنواع الرياء	152
حديث: «تعس عبد الدينار»	154
باب من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله	163
قول ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء»	163

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة